

مجمع البحوث الإسلامية
السلسلة العلمية

المسجد في الإسلام

عبادة وثقافة

الأستاذ الدكتور
محمد رجب البيومي
من كبار علماء الأزهر الشريف
(ت: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)

المسجد في الإسلام
عبادة وثقافة
الجزء الأول

للأستاذ الدكتور

محمـــد رجب البيومـــي

من كبار علماء الأزهر الشريف

(ت ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)

إشـــراف

أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

البيومي، محمد رجب
المسجد في الإسلام عبادة وثقافة، ج١
الأزهر الشريف ـ مجمع البحوث الإسلامية
١ـ المسجد النبوي
٢ـ عبد الله بن عمر
٣ـ المسجد الحرام
١٦٦ص، ٢٠سم
العنوان: مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٢٧٤٥٨/ ٢٠١٧
الترقيم الدولى: ٥-٦٦-٥٠٠١-٩٧٧-٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تصدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه .. أما بعد،،،

فلقد كان الأزهر الشريف على مر تاريخه ـ ولا يزال ـ الحارس الأمين على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، يؤدي رسالته، ويتحمل مسئوليته في المحافظة على الدين وتراثه وعلومه الشرعية والعربية وغيرها، حتى صار كعبة العلوم الدينية والعربية والثقافية في مصر والعالم، ومركز إشعاع روحي وديني وثقافي، ينشر مباديء وأخلاق الإسلام، ويوضح المنهج النبوي في مواقف الحياة المتنوعة بعيدًا عن التعصب الأعمى، أو الاضطهاد الفكري أو المادي، مراعيًا لظروف الناس وحاجاتهم، وكتب الله له القبول فتهيأت له النفوس على مدار عقود وقرون طويلة، فأصبح الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة في العالم بتاريخها وأهدافها ورسالتها ومنهجها ووسطيتها.

إن الأزهر الشريف يضطلع بمسئولياته ويواصل مسيرته العلمية في بيان حقائق الإسلام بمنهج وسطي معتدل يحترم التعددية الدينية والمذهبية والفكرية، ويعمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة، لأجل حماية العقول من الغلو والتطرف والتسيب.

وانطلاقًا من هذه المسئولية كان الدور العظيم لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب في النهوض بالتبعات الملقاة على عاتق الأزهر الشريف في الداخل والخارج، ببيان حقائق الإسلام ومواجهة التطرف والإرهاب، وأهمية المجابهة الفكرية وبيان جهود الأزهر الشريف وجميع هيئاته حيث أكدّ فضيلته: أن الأزهر الشريف قد عاش أكثر من ألف عام ـ وسيظل ـ يُدرِّس المذاهب الفقهية، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته ـ منذ القدم ـ في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذه طوق نجاة للمسلمين كلما عضّتهم نوائب التشرذم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه: هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين، ووقوفهم صفًا واحدًا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية «جمع الكلمة» بين المسلمين، لا يتردد في مقاومة موجات الإلحاد، والتغريب، والإفساد الأخلاقي، ولا يدخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامه ـ من أجل تحقيق هذا الهدف ـ إلا مواصلة السعي ـ بصدق ـ لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها، ومن دون هذا الالتقاء،

فإن النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا، وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن[1].

هذا، وتتعاظم آمال وطموحات الناس حول الأزهر الشريف يومًا بعد يوم، وتتعالى صيحات النداء والفزع إليه ـ بعد الله تعالى – باعتباره الملاذ الآمن للمسلمين في العالم من الانحراف الفكري، والتطرف والإرهاب ، وقد عمل الأزهر الشريف على تلبية هذه النداءات وتحقيق الطموحات، وذلك بكل هيئاته ودواوينه ودوائره العلمية والمعرفية، ومنها: مجمع البحوث الإسلامية، الذي أسهم بجهود عظيمة في العطاء العلمي للأزهر الشريف من خلال دراسة القضايا العلمية المختلفة، إيمانًا منه بدوره العلمي في تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان وسطية وسماحة الإسلام، وأهمية التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إن ما قدمه مجمع البحوث الإسلامية ويقدمه في هذا الصدد ليؤكد جهوده الدؤبة في خدمة الحياة العلمية والعملية للمسلمين؛ في التنظيم، والتشريع، والثقافة، والحضارة، والاجتماع، والسلوك، والأحوال الشخصية، والمعاملات، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الحياة ومتطلباتها.

---

(١) كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد محمد الطيب، في افتتاح مؤتمر خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن مجمع البحوث الإسلامية وهو يؤدي دوره باعتباره هيئة علمية وبحثية وثقافية ومعرفية بالأزهر الشريف، لا ينفصم عن واقع الناس والمشكلات والتحديات التي تحيط بهم، وظهور أنماط من السلوك وألوان من المعاملات تتطلب ضرورة بيان الرأي والشرعي والديني لها؛ حتى لا ينخدع الناس بالسيىء منها، أو ينساقوا وراء الفكر المنحرف والفتاوى الشاذة التي تعاني منها مجتمعاتنا في ظل انتشار التطرف والإرهاب.

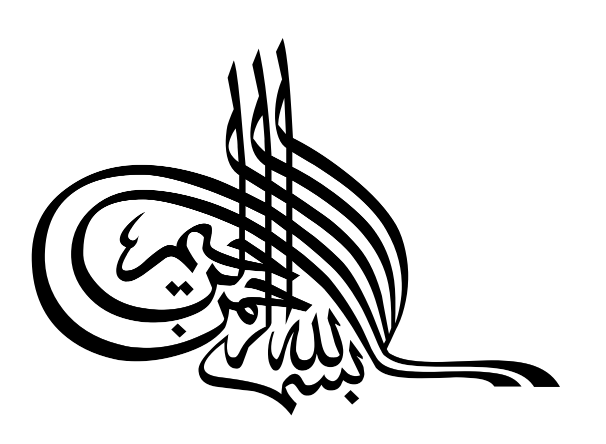
ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب جرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتُنفذ العمليات المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير، ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همجيًا متعطشًا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، وأنه يحرض أبنائه وأتباعه على العنف والكراهية والأحقاد، وللأزهر موقف واضح في هذه القضايا قام بإعلانه وبيانه كأشد ما يكون البيان وضوحًا وجلاءً.

وانطلاقًا من دور المجمع ومسئولياته العلمية؛ فقد قام بإعادة طبع مجموعة من الكتب العلمية النافعة، والتي تتنوع موضوعاتها، وتلبي عددًا من احتياجات المرحلة الراهنة، حيث تشتمل هذه الكتب على قضايا ومسائل تتصل بالعقيدة، والشريعة، والأخلاق، والتفسير، وعلوم السنة النبوية، والثقافة الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ ليكون

الناس على بينة من أمرهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية والأخلاقية، خاصة في ظل تراجع منظومة القيم الأخلاقية، وانتشار موجات التطرف والإرهاب والتكفير والإلحاد والتسيب والإنحلال، مما يستلزم معالجة هذه المسائل من خلال الفكر الوسطي الذي يعمل الأزهر الشريف على ترسيخه.

نسأل الله تعالى القبول، وأن يكون العمل خالصًا لوجهه تعالى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية
أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أخرج الأستاذ الدكتور حسين مؤنس كتابه الرائع «المساجد»، وقد قام فيه ـ كما قال ـ برحلة في عالم الإيمان والجمال، وكانت الرحلة رائعة حقًا، إذ كشفت من معاني التذوق والفن والجلال والحسن ما لا مزيد بعده، وقد رزق إلهام الشاعر في مواقف كثيرة فنفح بيانه بعبير طيب ساطع تجده في مثل قوله الصادق ص ٣١:

«المساجد أجمل ما تقع عليه عين الإنسان في عالم الإسلام، فسواء أكنت في قرية صغيرة خافية في بطن الريف، أو مستكنة خلف كثبان الرمال في الصحراء، أو راقدة في بطن جبل، أو كنت في عاصمة كبيرة مترامية الأرجاء، متدفقة الحركة، عامرة بالعمائر السامقة، فإن المساجد بمآذنها الدقيقة المنسرحة الذاهبة في الجو، مشيرة إلى السماء، وبقبابها الأنيقة، تضيف إلى المنظر عنصرًا من الجلال والجمال الروحي لا يتأتى له بدونها، فهي تزيل الوحشة عن تواضع مباني القرية وصغرها، وتنفي الجمود عن غرور مباني العواصم، وتضفي على مقطع الأفق في القرية والمدينة توازنًا يروع النفس، ولمسة من جمال روحي هادئ رقيق، ويتجلى لك ذلك في أصفى صور ساعة المغيب، عندما يختفى حاجب الشمس وراء الأفق مخلفًا في السماء وهجًا أحمر برتقاليًا يشوبه شيء من بنفسج، وبينما تتحول صورة المباني إلى كتل سوداء

متراصة، كأنها أشباح، تبدو لك المساجد بمآذنها وقبابها ظلالاً جميلة تضفي على الشفق الدامي من ورائها جمالاً يحس به قلبك أكثر مما تراه عيناك، وفي لحظة وقبل أن يهبط رداء الليل، يخيل إليك أن كل ما يتراءى عند مقطع الأفق قد تلاشى ولم تبق إلا المساجد، ولأمر ما تحس أنها يقظى، بينما كل ما حولها قد رقد بين أحضان الليل، كأنها ملائكة حارسة لا تبرح مكانها، رمزًا للأمل، في رحمة الله للهالكين من أهل الأرض».

وصدق الأستاذ الدكتور حسين مؤنس، فإن المساجد رمز للأمل في رحمة الله، وقد أرّخ لها تاريخًا فنيا في كتابه الرائع، فتحدث عن مناحي الجمال في البناء والتنسيق والزخرفة وكل ما يتعلق بالفن المعمارى الأصيل.

وقد أوحى لي هذا الكتاب أن أكتب عن ناحية أخرى من رسالة المساجد، تحتاج إلى توضيح، لأن دور المساجد في التربية الإسلامية والثقافة العلمية دور باهر الشعاع، وقد أشارت إليه كتب التاريخ والحضارة إشارات شتى، تتطلب من يحيط بها قدر المستطاع ليُخْرِجَ منها شيئًا متصلاً يصور حقيقة هذا الدور الرائع لأن المسجد في لبابه مدرسة الإسلام، كما هو موضع الصلاة والابتهال، وما كانت المساجد شرقًا وغربًا إلا معاهد علم ومجالس شرح وتفسير.

ولـم أشـأ أن يكـون كتـابي مـثقلاً بالمـادة العلميـة في منطـق صـارم التعبيـر، جـاف الحقـائق، ولكنـى آثـرت أن أقـدم صـفحات سـهلة تفيـد المثقـف والمتخصـص معًـا، حيـث أخـص بعـض المسـاجد الشـهيرة بتاريخ علمي يسير، ثم أختار لكل مسـجد علمـا مـن أسـاتذته أشـير إلـى بعض مآثره، لأن المكان بأصحابه والدرس بأستاذه، متعرضًـا للسـمات البارزة في المعهد الديني بالمسجد وعظا وقصة وخطابة، ومتحدثا عنها جهد الطاقة كما كانـت وكمـا ينبغـي أن يكـون، والموضـع متسـع فسـيح لمن يريد أن يكتب كما يشاء، ولكنى كتبت شيئًا وتركت أشياء، خاضعًا لظـرفي الزمـان والمكـان، وقـد أعـود ثانيـة إلـى الموضـوع إذا شـاء الله وواتت الظروف.

دكتور/ محمد رجب البيومي

المسجد النبوي

أول مكان تعبد فيه رسول الله ﷺ كان غار حراء، إذ خلا إلى نفسه الليالي ذوات العدد يتأمل فيما يكتنف العالم من شرور، ويضرع إلى ربه أن ينقذه من حيرته ليريه الصراط المستقيم، حتى أنعم الله عليه بالرسالة، فجاءه الروح الأمين يهتف بقول الله:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

[العلق: ١- ٥]

ثم صدع الرسول ﷺ بالحق، فظل أربعة أعوام منذ خطب على الصفا يعلن أنه رسول الله إلى قريش خاصة وإلى الناس عامة، وأنه نذير للكون من عذاب شديد، وليس معه من المسلمين غير بضع وثلاثين نفسًا، كلهم ممن يتصلون به قرابة أو صداقة! ثم هداه الله إلى دار الأرقم فكانت متعبده الثاني، وفيها أخذ عدد المسلمين يتزايد ويكثر، إذ أصبحت مسجده ومدرسته، مسجده الذى يعبد الله فيه ذاكرًا شاكرًا، ومدرسته التي يجلس فيها مجلس المُعَلِم المُثَقِف، يتلو ما نزل عليه من الوحى، ويشرح ما في الذكر من عظات ومثل!

دخل النبي ﷺ دار الأرقم في السنة الرابعة من البعثة، وقضى بها

عامين قبل أن يسلم عمر بن الخطاب، فأصبحت بمقامه الشريف مصدر إشعاع للحق يؤمها كل يوم عضو جديد من أعضاء الجماعة المسلمة، فيهم من جاء علانية لا يرهب أحدًا كعمر وحمزة، وفيهم من جاء مستخفيًا كصهيب وعمار ومصعب بن عمير! لقد تكاثر العدد حتى تجاوز من هاجروا إلى الحبشة بعد عامين من المقام بدار الأرقم مائة نفس غير من تحملوا معهم من ذراريهم، وإذا كان المهاجرون مائة، فلا بد أن يكون المقيمون أكثر من الظاعنين، وبهذا كانت الدار أساسًا لأول مدرسة ذات هداية وعبادة، شرحت بها مبادئ الإسلام، فإذا قلت: إنها المسجد الأول لأبناء الدعوة لم نبعد، وإذا كانت الصلاة المفروضة لم تشرع بعد فإن لفظ الصلاة بمفهومه العربي الخالص رحمة ودعاء.

وحين هاجر محمد ﷺ من مكة بنى مسجد قباء، وذهب كثير من المفسرين إلى أنه أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم، وكان الرسول ﷺ أول من وضع حجرًا في قبلته، ثم جاء أبو بكر فوضع الحجر الثاني، وتتابع الصحابة حتى تم البناء.

وفى المدينة نزل رسول الله ﷺ عند مقدمه في حي بني عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى نفر من بنى النجار فحضروا يتقلدون سيوفهم قال أنس رضي الله عنه: فكأنى أنظر إلى النبي ﷺ

بينهم على راحلته، وأبو بكر في ردفه، وملأ بنى النجار من حوله، وقد بركت ناقته الشريفة عند موضع مسجده فاختار هذا المكان مسجدًا، ودامت حركة البناء سبعة أشهر قضاها الرسول ﷺ في ضيافة أبي خالد الأنصاري، وكان المسجد على عهده ﷺ مبنيًا باللبن ومسقوفًا بالجريد، ومضى أبو بكر فلم يزد فيه شيئًا لاشتغاله بحركة الردة، وتخطيطه للفتح الإسلامي على قصر في مدة حكمه، أما عمر فقد جدد بناءه بعد أن نخرت جذوع النخل، ثم زاد فيه عثمان زيادات كبيرة وتوالى الخلفاء فآثروه بالتجديد عصرًا بعد عصر، حتى استقر في زماننا الراهن على أبدع مثال! وليس من همنا أن نسهب في تاريخ تشييده القديم، وتجديده المتكرر، ولكننا نتحدث عنه باعتباره المدرسة الأولى الحقيقية للتربية الإسلامية، والثقافة الدينية، إذ كانت تعقد حلقات الدرس القرآني والتربية النبوية في ساحته، عامة للرجال والنساء، ثم شكا النساء مزاحمة الرجال فطلبن إلى النبي ﷺ أن يجعل لهن يومًا غير يوم الرجال ففعل.

كان لقاء رسول الله ﷺ لأصحابه إن لم يكن في سفر أو غزوة بالمسجد، فهم يتحلقون حوله يستمعون منه، وتأتى الوفود لرؤيته بالمسجد أيضًا يخطبون، فيتحدث أكابرهم بما في نفوسهم، ويتحدث رسول الله ﷺ فيرد عليهم، وقد يكون فيهم الشاعر فينشد قصيدته،

فيعمد إليه مثل حسان بن ثابت فيعارض شعره بشعر مرتجل، والآثار في ذلك أكثر من أن تحصى، ومنها ما روي عن أبي واقد الليثي، قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد، والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ في مجلسه وذهب واحد قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفه، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرع رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه»(١).

وبهذه المجالس كان المسجد النبوي مصدر الإشعاع العلمي الأول، إذ كانت المدينة ـ كما يقول الأستاذ أحمد أمين(٢) - مقصد من يريد الإسلام في عهد النبي ﷺ من سكان جزيرة العرب، وكثير منهم كانت تدعوه الحماسة الدينية أن يقيم بجوار النبي ﷺ يتعلم منه، ويتعبد معه ويسمع من قوله، وبعد وفاة الرسول ﷺ صارت مقر الخلافة، ومركز كبار الصحابة حتى يحرّم عمر على كبار قريش أن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس. حديث رقم (٦٦).

(٢) فجر الإسلام، ص ٢١٢.

يبرحوها إلا لحاجة ماسة، وقد اشتهر فيها بالعلم كثير من الصحابة، كعمر وعليّ وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود، وكان ابن عباس يأخذ بركاب زيد بن ثابت ويقول: هكذا يفعل بالعلماء والكبراء، وقد قال حسان:

فمن للقوافي بعد حسان وابنه

ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت

وإذا كان صحابة الرسول ﷺ قد تملأوا من علمه، فإنهم لم يكونوا على مذهب واحد في الاجتهاد، فكنت تراهم في المسجد النبوي يصدرون عن استقلال عقلي أو اتباع نقلى، كان فيهم من اشتهر بالاجتهاد في الرأي على منهاج القياس، ومن هؤلاء عبد الله بن مسعود، وعليّ بن أبي طالب، ومنهم من يجتهد عن طريق المصلحة كعمر بن الخطاب حين قتل الجماعة بالواحد، ومنهم من كان يتوقف في التحديث، ولا يتوقف في إبداء الرأي، وبذلك تعددت الآراء العلمية عن كبار الصحابة، ولكن كانوا يحترسون احتراسا كبيرًا يظهر في مثل قول ابن مسعود في إحدى فتاواه: «إني أقول برأيي فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان»! وعلى نحو من ذلك قال عمر.

ثم ورث التابعون صحابة رسول الله ﷺ في العلم والإفتاء

بالمسجد النبوي، فكان بها أمثال: «سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر، وابن شهاب الزهري، ويحيى بن سعيد، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن فقهاء المسجد النبوي كانوا يأخذون بالحديث، وأن فقهاء العراق كانوا يأخذون بالقياس، وهذا ـ كما يقول الأستاذ محمد أبو زهرة ـ خطأ في لبابه[1]، لأن الرأي كان بالعراق مع الحديث، وكان الحديث مع الرأي بالمدينة، ولكن مقدار الرأي عند أهل العراق أكثر منه عند أهل المدينة، ومقدار الحديث عند أهل المدينة أكثر من مقدار الرأي فليست الحدود فاصلة مفرقة.

لقد كان مسجد رسول الله ﷺ جامعة يلتقى فيها الناس من جميع الأجناس والقوميات، فأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ من قريش، وأبو ذر تهامي من غفار، وأبو هريرة يمنى من أوس، وضمام بن ثعلبة أزدي من قحطان، وبلال حبشي، وسلمان فارسي، وصهيب ينسب إلى الروم، وكلهم من رسول الله ملتمس!

وإذا كان عالم المدينة، وهو مالك بن أنس، قد خلف مذهبا فقهيا كثير الأتباع، ومالك تلميذ الأعلام من أساتذة المسجد النبوي، فإننا نختار أحد هؤلاء الأساتذة الكبار من أعلام الصحابة، لنشير إلى

(١) محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية، ص ٣٢.

مكانته في العالم الإسلامي، ليكون مثالًا حيًّا لمن أنجبتهم حلقات العلم النبوي، ذلكم هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، لأن الصحابة الكبار من أمثال عليّ، وعمر، وأبى بكر، قد وضعت عنهم الأسفار المستقلة، شارحة مفصلة، فلا أقل من أن نخصه بفصل من كتاب.

عبد اللّه بن عمر

لازم عبد الله بن عمر مسجد رسول الله ﷺ قبل زواجه، إذ كان ينام فيه بعد أداء الصلاة، ولا يكاد يبرحه إلا لشاغل ضروري من متطلبات العيش، ومن هنا جمع حديث رسول الله ﷺ، وأصبح نهرًا من أنهار العلم، وكان يتتبع أحوال رسول الله ﷺ ويسأل عما لم يشهد من أموره، ليجعله قدوة نفسه، وسراج معاشه، قال تلميذه نافع: كان ابن عمر يتتبع آثار النبي ﷺ، فيصلي في كل مكان صلى فيه، وقد نزل رسول الله ﷺ عند شجرة فكان ابن عمر ينزل عندها ويتعاهد ريها بالماء كيلا تيبس فيحرم من مجلس جلس فيه رسول الله ﷺ!

وقال مجاهد: كنا مع ابن عمر في سفر فمر بمكان فحاد عنه، فسألت: لم فعلت ذلك؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت.

وقد لفت هذا التتبع الحريص عقول معاصريه، فكانوا يتعجبون، حتى قال تلميذه نافع: لو رأيت ابن عمر وهو يتتبع أثر النبي ﷺ لقلت: هذا مجنون!

وكل ذلك له دلالته العلمية في منحى ابن عمر، فهو من أعلام المدرسة المدنية التي تتمسك بالأثر النبوي، والتي لا تميل إلى الاجتهاد في التأويل، وهي مدرسة كانت ذات تلاميذ يتتابعون حتى

انتهـوا إلـى مالـك بـن أنـس، فكـان رأس هـذه المدرسـة في اتجاههـا التشريعي.

ومن يحرص على الحديث لا يفوته أن يحفظ القرآن وأن يدرك مراميه، تناقش مع الحجاج، فاتهمه ظلما بالعى، فقال ابن عمر: إن من يجمع كتاب الله ليس يعى، فسكت الحجاج، وقد روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قوله: «إنما مثل صاحب القرآن كصاحب الإبل المعلقة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»[1]، وكان طويل التأمل لما يقرأ منه، وله في فهم آياته بصر وسداد، بدت بواكيرهما في صغره، فقد روى البخاري في صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهى مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت إذ أنا عاشر عشرة أنا أَحْدَثُهُم، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فقال: يا رسول الله أخبرنا عنها، فقال رسول الله ﷺ: هي النخلة، فقال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلىّ من أن يكون لي حمر النعم».

ومع هذا العلم الغزير، والتتبع الملح لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ،

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٣٧.

كان ابن عمر قليل الفتوى بالنسبة إلى غيره من الصحابة، خشية أن يزل فيقول برأيه، قال نافع مولاه: كان ابن عمر وابن عباس- رضى الله عنهم- يجلسان للناس عند قدوم الحاج، فكنت أجلس إلى هذا يومًا، وإلى هذا يومًا، فكان ابن عباس يجيب ويفتى في كل ما سئل عنه، وكان ابن عمر يرد أكثر مما يفتى، وذلك لشدة حذره وخوفه من الخطأ، قال نافع: سأل ابن عمر رجل عن مسألة، فطأطأ رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته، فقال الرجل: يرحمك الله، أما سمعت مسألتي؟! فقال ابن عمر: بلى، ولكن كأنكم ترون أن الله ليس بسائلنا عن كل ما تسألوننا عنه، اتركنا يرحمك الله حتى نتفهم مسألتك، فإن كان لها جواب عندنا، وإلا أعلمناك بأنه لا علم لنا به.

وفى تتابع هذه الأقوال ما قد يوهم أن الامتناع عن الفتوى من دأبه، ولكن جلوسه للحاج يوما بعد يوم يدل على أنه مستعد للعطاء الدائم، ولكنه لا يجرؤ على الفتوى دون تثبت تام، ولكل وجهة هو موليها.

وكنا نحفظ قول مالك بن أنس، من قال لا أدرى فقد أفتى، فنظنه أول من قال به، ولكن القول يرتفع إلى ابن عمر، وعنه نقل مالك، قال عقبة بن مسلم: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا، فكان كثيرًا ما يُسأل، فيقول: لا أدرى، ثم يلتفت إليَّ فيقول: أتدرى ما يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسرا إلى جهنم.

وقد كان يجيب عن السؤال أحيانًا بما يظن أنه موضع الإصابة ثم يتذكر حديثا لرسول الله ﷺ يفهم منه ما قد يخالف الإجابة، فيسأل عمن أفتاه ويتمنى لو رآه ليصحح له ما قال، عن إسماعيل بن عبيد قال: قلت لابن عمر رضي الله عنه: أيكون الطول في ركوع الصلاة أفضل أم في سجودها؟ فقال: يا بن أخى، خطايا الإنسان في رأسه، وإن السجود يحط الخطايا، ثم بدا له بعد ذلك فقال: لو أنى عرفت السائل لأمرته أن يطيل الركوع والسجود معًا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة أتى بذنوبه كلها فوضعت عن عاتقه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه»[1].

وقد أخذ عليه بعض المؤرخين اعتزاله الفتنة بعد مقتل عثمان وما جد حتى مقتل ابن الزبير، ولكنه كان صاحب حذر وحيطة، وقد قال بصدد ذلك: إنما مثلنا في هذه الفتنة، كمثل قوم كانوا يسيرون على جادة يعرفونها، فبينما هم كذلك إذ غشيتهم سحابة مظلمة، فأخذ بعضهم يمينا وشمالا فأخطأ الطريق، وأقمنا حيث أدركنا ذلك حتى جلى الله ذلك عنا، فأبصرنا طريقنا الأول، فعرفنا وأخذنا فيه، إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان، وعلى هذه الدنيا، ما أبالى ألا يكون لي ما يقتل بعضهم بعضا عليه، ولا أقاتل في الفتنة وأصلى وراء من

(١) سنن البيهقي ٣/ ١٠.

غلب، ولسنا بذلك ندعو إلى مذهبه في اعتزال النزاع، ولكننا نعلن وجهة نظره ونرى الالتزام، بقول الله ﷻ:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: ٩]

لقد هاجر عبد الله إلى المدينة مع والده وسنه لا تتجاوز العاشرة ولكنه كان مشوقًا إلى الجهاد الحربي مع الرسول ﷺ في غزواته، فعرض نفسه يوم بدر ويوم أحد، فرده رسول الله ﷺ لصغره، قال ابن عمر: وجاء يوم الخندق وعرضت نفسي، وأنا أخشى أن يردني رسول الله ﷺ، ولكنه قبلني فشفى صدري، ولا تعرف بعد الخندق غزوة غزاها رسول الله ﷺ وتخلف عنها ابن عمر.

وقد ضرب بسهم في التجارة فربح، وكثر ماله، وله مع والده قصة تعطى درسًا خالدًا في الورع والحيطة، فقد روى ابن الجوزي عن ابن عمير التميمي قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: شهدت جلولاء– وقد افتتحت في عهد أبيه الفاروق– فابتعت من الغنائم بأربعين ألفًا، فدعاني أبي فقال: يا عبد الله، أرأيت لو انطلق بي إلى النار يوم القيامة أكنت تفتديني؟ قلت: نعم يا أبى، وبكل ما أملك– قال عمر: كأنك كنت تبايع بي وتشتري في جلولاء، يقولون: هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله ﷺ، وابن

أمير المؤمنين، وأكرم أهله عليه فيرخصون عليك ولا يودون الربح، وسأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش، ثم أتى منزلي، وأخرج كل ما لدي، وتركني سبعة أيام، ثم دعا التجار فباع منهم متاعًا بأربعمائة ألف، فأعطاني ثمانين ألفا فقط، وأرسل ثلاثمائة وعشرين ألفا إلى سعد بن أبى وقاص، وقال: اقسم هذا المال فيمن شهد الوقعة فإن كان أحد منهم مات فابعث بنصيبه إلى ورثته.

وقد كان لهذا الموقف أثره الرائع في نفس عبد الله، قال جابر بن عبد الله: ما منا من أحد إلا مالت به الدنيا ومال بها، غير عبد الله بن عمر، وقال السدى: رأيت نفرًا من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي ﷺ إلا ابن عمر.

وقال نافع تلميذه: كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه، وقد عرف عبيده ذلك عنه، فربما لزموا المسجد طويلًا، فإذا رآهم مصلين، راكعين أعتقهم، فقال له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، إنهم يخدعونك: من خدعنا بالله ﷻ انخدعنا عنه.

وقد مر جماعة من الخوارج بإبل كثيرة فاستاقوها، وجاء راعيها فقال لعبد الله: إنهم استاقوا الإبل، فسأل: كيف ذهبوا بها وتركوك؟ قال: ذهبت معهم أوهمهم أنى تابع لهم، ثم انتهزت غفلة فهربت، وجئت إليك، فسأل: ما حملك على أن تركتهم وجئت إليّ؟ قال: أنت أحب

إليّ منهم، فاستحلفه عبد الله قائلاً: آلله الذى لا إله إلا هو أنا أحب إليك منهم؟ فقال: نعم، قال: فإني أحتسبك معها، اذهب فأنت حر لوجه الله!

ونختم مقالنا عن عبد الله بقول نافع: إن ابن عمر كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد النبوي وبالقبر فزاره، فإذا اخترناه أنموذجًا لأساتذة المسجد النبوي فهو اختيار صادق لعالم ورع كان أول من تشدد في الفتوى، وحرص على النص، ورفض أن يجيب بما فطن حتى يتيقن، وتلك خصائص المدرسة العلمية بمدينة رسول الله ﷺ.

المسجد الحرام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

[آل عمران: ٩٦ – ٩٧]

المسجد الحرام أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وله من المهابة والتجلة ما ليس لغيره من القصور الشامخة والأواوين الباذخة، إذ هو مهوى أفئدة المسلمين، ومتعلق أرواحهم، وما فارقه مسلم إلا حنّ إلى العودة إليه، وعدّ لقاءه غنيمة الغنائم، وذخيرة الذخائر، وظل حديث رحلته إليه متدفقًا على لسانه مهما تناسلت الحقب ومرت الأعوام.

وإذا كان الطواف والصلاة من شعائر العبادة، فإن ذكر الله ومدارسة العلم من أبرز مزاياه، فأنت تقدم إليه متى شئت من زمن، فتجد الذاكر والقارئ مع الطائف والراكع، بل إن الاستعداد النفسي في هذا المكان المقدس يجعل المستمع إلى العلم في المسجد الحرام أشد قبولًا للوعظ، وأصدق تلقيًا للعلم، وإن عينه لتسعد بكل سطر تطالعه، وإن أذنه لتطرب لكل أثر تسمعه، فيا لها من فائدة محققة.

ومنذ فتح مكة، والمسجد الحرام مدرسة العلم، فقد رحل عنها رسول الله ﷺ إلى المدينة تاركًا معاذ بن جبل فقيهًا يعلم الناس قواعد دينهم في المسجد الحرام، ومعاذ وعاء من أوعية العلم، وقد أوفده رسول الله ﷺ إلى اليمن معلمًا، إذ كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، ومن أحفظهم للقرآن، وقد زوده بنصائح علمية وخلقية صادفت من نفسه تربة طيبة فزكت ونمت وآتت أكلها الشهي، وحسبك أن يروي عنه ابن عباس بالمسجد الحرام، وابن عباس أحد الذين تصدروا للإفتاء والدرس بهذا المسجد، وسنلم بترجمة موجزة له، إذ كان من أعلام النبوة هديًا وتوجيهًا، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مدرسة فقهية بمكة- كما يقول الأستاذ أحمد أمين[1]: حيث تخرج على يده نفر من التابعين مثل: مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبى رباح، وطاوس بن كيسان، واستمرت حلقات العلم في زمن هؤلاء، ومن بعدهم قائمة بالمسجد الحرام.

وكلنا نعلم أن الإمام الشافعي رضي الله عنه تلقى العلم أول ما تلقاه في حلقات المسجد الحرام، وإذا كان الحج فريضة محتومة على المسلمين، فإن طلاب العلم كانوا ينتهزون موسم الحج ليقابلوا العلماء بالمسجد الحرام، حيث يجتمع رجال الإسلام من كل فج

(١) فجر الإسلام ص ٢١٣.

عميق ليشهدوا منافع لهم، ومنافع علماء الدين هي الفقه فيه، ورواية ما لا يعلمون من الحديث والأحكام! وما زال العلماء يتصدرون للإفتاء والتدريس، وفي مواسم الحج في بيت الله، ومازالت الحلقات تمتد آهلة بالسامعين وقراءة كتب التراجم والطبقات، توقفنا على الأهمية العلمية للحج، إذ كان بعثة عامة للمسلمين، ومؤتمرًا علميًا للدارسين، وموسمًا دينيًا للهدى والتوجيه.

وأصحاب الرحلات من مؤلفي العرب قد دونوا – على تناسل الأجيال - مشاهدهم في البيت الحرام، إذ أن أكثر هذه الرحلات المباركة كان الحج سببها الأول، وفيما دونوه ما يصور مشاهد العلم في البيت العتيق من وعظ وخطابة وتلاوة ونقاش وسنروي بعض هذه المشاهد لتكون آية للسائلين.

يتحدث ابن جبير في رحلته الشهيرة عن بعض مجالس العلم والقرآن بمكة، فيروى أن كل وتر من الليالي العشر في رمضان يختم فيه القرآن، إذ يكون أحد أبناء مكة من الناشئين قد حفظ القرآن في هذا العام، واستعد أهله للاحتفال به في ليلة مباركة من ليالي الوتر بمشهد من العلماء والقضاة ومن يرغبون المشاهدة من الزائرين فتنصب الثريات المضيئة على هيئة غصون من الشمع، وقد انتظمت صفوفًا متراصة، وامتدت في أثناء ذلك حبال متينة علقت بها مصابيح زيتية تزيد

المكان لألأة وإشراقًا، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بحلة حريرية غالية، فيأتي الإمام «الطفل» حافظ القرآن في أجمل زينته وحوله أقرباؤه من الإخوة والأعمام والأخوال فلا يستطيع الوصول إلى المنبر من كثرة الزحام إلا بجهد جهيد فيصعد إليه وقد أعد خطبة دينية يتلوها في شجاعة وإبداع، فإذا قال من عظاتها نبذة معقولة، سكت وبدأ القراء يتلون من كتاب الله ما أعدوه ورأوه مناسبًا لما جاء في كلام الخطيب الصغير، ثم ينهض الخطيب فيتلو نبذة ثانية من وعظه يتصرف بها في شئون التذكير والمواعظ وكأنه واعظ كبير متمرس، فإذا بلغ شوطًا يحسن لديه السكوت قام القراء بالتلاوة كعهدهم السابق فأسمعوا الحاضرين من كلام الله ما يحسن وقعه ويستجاد، ثم ينتهى الحفل بين العبادة والتلاوة ومدارسة الفقه والحديث.

قال ابن جبير[1] واصفا لبعض هذه المشاهد: «ثم كانت ليلة خمس وعشرين من رمضان، وهى ليلة الإمام الحنفي «إذ كان للمسجد الحرام أئمة أربعة يمثلون المذاهب الذائعة بين الناس»، وقد أعد ابنًا له لذلك، فكان احتفاله عظيمًا، أحضر فيه من ثريات الشمع أربعًا مختلفات الصنعة، منها مشجرة مغصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة، ومنها غير مغصنة، وصفت أمام الحطيم، وتوج الحطيم بخشب وألواح،

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٣٢، تحقيق الدكتور حسين نصار «بتصرف يسير».

وضعت أعلاه، وجلل ذلك كله سرجًا ومشاعيل وشمعًا، فاستنار الحطيم كله، حتى لاح في الهواء كالتاج العظيم من النور، وأحضر الشمع في أنوار الصفر، ووضع المحراب العودي، فجلل دائره الأعلى كله شمعًا، فاكتنفته هالات من النور، ونصب المنبر قبالته مجللًا بالكسوة الملونة، واحتفل الناس لمشاهدة هذا المنظر النير احتفالاً مهيبًا، فختم الصبى المذكور، ثم برز من محرابه إلى منبره، يسحب أذيال الخفر في أثواب رائقة المنظر، فتسور منبره، وأشار بالسلام على الحاضرين، وابتدأ خطبته بسكينة ولين، ولسان على حالة الحياء مبين، فكانت الموعظة أبلغ والتذكرة أنفع، وحضر القراء بين يديه يبتدرون القراءة، فيسكت خلال إكمالهم الآية التي انتزعوها من القرآن، ثم يعود إلى خطبته وبين يديه في درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أنوار الشمع بأيديهم، ومنهم من يمسك المجمرة تسطع بعرف العود الرطب، فعندما يصل إلى فصل من تذكير أو تخشيع رفعوا أصواتهم بـ«يا رب يا رب»، يكررونها ثلاثًا أو أربعًا، وربما جاراهم بعض الحاضرين إلى أن فرغ من خطبته ونزل، وجرى والده الإمام أثره على الرسم من الإطعام لمن حضر المكان، إما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم».

وإذا كان هذا الحفل بالمسجد الحرام احتفاء بحفظ القرآن، فإنه في

الوقت نفسه تمرين على الخطابة الدينية، وتشجيع للأبناء من الحفاظ أن يكونوا دعاة هداة، تزهو بهم المنابر والمجالس، وفي ذلك من الدعوة إلى نشر العلم والهداية ما يجب أن يفتخر به، أضف إليه ما يتردد من ذكر وتسبيح ومناقشة بين الحاضرين تثمر الثواب من الله، والهداية للناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[١]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله، خير له من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[٢]، وسيطالع القارئ كلمة عن أحد أعلام المسجد الحرام، لأن من خطة هذا الكتاب أن يقرن المسجد بأستاذ.

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاة.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين.

عبد اللّه بن عباس

كان ابن عباس مفتيًا بالمسجد الحرام في مكة حينًا، وفي مسجد الطائف حينًا آخر، فهو أستاذ التشريع في عصره، وهو مرجع الوافدين إلى مساجد الله يستفتون.

ومنذ صحب رسول الله ﷺ وهو غلام، نجده حريصًا على التقاط كل حرف من بيانه، يعيه ويتفهمه ويعتده ذخر الدنيا والآخرة، وقد أنس رسول الله ﷺ فيه النجابة، فدعا الله أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل، وكان يوصيه بوصايا خلقية هي دستور المؤمن الصادق، فقد روى الترمذي عن عبد الله بن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال: «يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِن اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(1)، وهذا الحديث من جوامع الكلم، لأنه يرسم طريق المؤمن في الحياة عملاً وإيمانًا وعزة ويقينًا.

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٤٠٩، حديث (٢٦٦٩).

وقد أوصاه الرسول ﷺ في حديث آخر فقال في غير رواية الترمذي: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».

وقد عرف الفتى الناهض أن المدة التي قضاها مع رسول الله ﷺ قصيرة لا تتيح له أن يتملأ من العلم، فصمم على أن يلقى الصحابة ليأخذ ما يستطيع أخذه مما وعوه من حديث رسول الله ﷺ وأعماله، وقد تحدث عن نفسه لمولاه عكرمة فقال: لما قبض رسول الله ﷺ. قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبًا لك، أترى الناس يفتقرون إليك؟ وترك ذلك، وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فأذهب إلى بيته وهو في وقت القيلولة، ولو شئت أن يؤذن لي لأذن، لكن أبتغي بذلك طيب نفسه، فأتوسد ردائي على بابه، يسفى عليّ الريح من التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا بن عم رسول الله، ماذا جاء بك؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك، فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فقال: هذا الفتى كان أعقل مني.

وكان على حداثة سنه ذا أدب بالغ مع رسول الله ﷺ تحدث عن

نفسه فقال: صليت خلف رسول الله ﷺ فأخذ بيدي حتى جعلنى بإزائه، فلما أقبل على صلاته تأخرت، فلما انصرف قال لى: ما شأنك؟ فقلت: يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلى بإزائك، وأنت رسول الله، فدعا لي أن يرزقني الله علمًا وفهمًا.

وعمر بن الخطاب في فراسته لم يغب عنه ذكاء ابن عباس، وقوة استعداده فكان يحبه، ويسأله عن الدقائق بين الكبار من الأنصار والمهاجرين، فقالوا له: ألا تدعونا كما تدعو ابن عباس؟ فقال: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول. قال ابن عباس: قدم على عمر رضي الله عنه رجل فسأله عن الناس، فقال: قرأ منهم القرآن كذا وكذا، فقال ابن عباس: ما أحب أن يسأل أحد عن آي القرآن، فعبس عمر وانطلقت إلى منزلي، وقلت: ما أراني إلا قد سقطت من نفسه، فبينما أنا كذلك، إذ جاء رجل، فقال: أجب أمير المؤمنين، فأخذ بيدي وسألني: ماذا كرهت مما قال الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أسأت فأستغفر الله، قال: لتخبرني عن رأيك. قلت: إنهم متى تنازعوا اختلفوا، ومتى اختلفوا ضلوا، فقال: لله أبوك.

وروى البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، وقال: لم يدخل هذا معنا وإن معنا لأبناء مثله، فقال عمر: إنه من أعلمكم، ثم دعاهم ذات يوم

فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ماذا تقولون في قوله تعالى:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾

[النصر: ١ – ٣]

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئًا، فقال عمر: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله أعلمه الله له، فقال: إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا، فقال عمر: لا أعلم منها غير ما تقول.

وحين بهر الناس ما ترك ابن عباس من الآثار في تأويل الكتاب، حاول بعض المستشرقين أن يجعله تلميذًا لكعب الأحبار، ليوهم الناس أنه حفظ العلم عن أهل الكتاب لا عن رسول الله وصحابته، وهو وهم رددت عليه من قبل، فقلت[1]:

إن هؤلاء الوضاعين من اليهود يريدون أن يثبتوا عراقة معلوماتهم الدينية، فجعلوا ابن عباس راوية عن كعب وأمثاله ليتم لهم ما يريدون،

---

(١) خطوات التفسير البياني للمؤلف، ص ٢٤.

ومنطق التاريخ يكذب ذلك، لأن ابن عباس لم يكن ليستمع عن كعب في عهد عمر، وقد رحل كعب عن الحجاز عقب مقتل أمير المؤمنين، إذ استشهد ﵁ في ذي الحجة سنة ٢٣هـ، وقد عاش عبد الله إلى سنة ٧٠هـ يفتي ويملأ الحجاز علمًا، فكيف أخذ تفسير كعب وعلمه، وهو في حياة عمر ينقل عنه، ويناقش صحابة رسول الله ﷺ باعتباره ناشئًا يتفقه، ثم بعد وفاته، وكان عمره اثنين وعشرين سنة، لم يكن لأهل الكتاب وجود في الجزيرة العربية؟ فليت شعرى كيف أتى هذا العلم من كعب وأضرابه لابن عباس وبينه وبينهم ما بين مكة وفلسطين؟ لأن عمر أخرج هؤلاء جميعًا من الجزيرة قبل وفاته إلا من أسلم، وقد أسلم كعب وانتقل إلى بيت المقدس بعد مقتل الخليفة مباشرة لما لحقه من اتهام تتردد بواعثه لدى المؤرخين، ثم كيف يروى عن ابن عباس أنه قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم»[1]، ثم يتصور متصور أنه يرد معين هؤلاء؟

وقد حفظت صحف العلم مساجلات ابن عباس العلمية للخوارج وخصوم عليّ، فدلت على رسوخ قدم، وثبات فكر، وقوة حجاج.

ومجلسه بالمسجد المكي ذو اشتهار فائق، وفيه تخرج كبار

(١) البخاري: باب الشهادات.

التابعين من أمثال: مجاهد بن جبير مولى بنى مخزوم، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح مولى قريش، وأبو الزبير محمد بن مسلم مولى حكيم بن حزام، ومن تلاميذه سعيد بن جبير، وقد قيل عنه: إنه مات وما على ظهر الأرض رجل إلا يحتاج إلى علمه.

قال عطاء بن رباح: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، وأكثر فقهًا، وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرون عنه من واد واسع فسيح.

وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس: قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا أفتى قلت: أعلم الناس، وقد سمعته مرة يفسر سورة «النور» بعد أن قرأها، فقلت: لو تسمع هذا الديلم لأسلمت.

وقال عليّ بن أبى طالب - كرَّم الله وجهه- وقد تحققت فراسة ابن عباس في بعض الأمور: لله بلاء ابن عباس، إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

ذلكم هو ابن عباس أحد أساتذة المسجد الحرام!

مسجد الفسطاط

من عادة المسلمين حين يفتحون بلدًا جديدًا، أن يبدءوا بإقامة مسجد لهم، مقرًا للعبادة والشورى والتعليم جميعًا، وما أن فتحت مصر حتى شرع عمرو بن العاص في إقامة أول مسجد بها، وكانت مساحته لأول عهده خمسين ذراعًا طولاً في ثلاثين ذراعًا، وقد وقف على إقامة قبلة المسجد ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعقبة بن عامر، وأبو ذر، ورافع بن مالك، وما برحت وسائل التوسعة والتحسين تتعاقب عليه في عهود معاوية، وعبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، ومن خلفهم على كر العصور حتى أصبح مضرب المثل تشييدًا وعمرانًا.

ومنذ أنشئ المسجد وهو معهد للعلم، يدرس فيه النابغون من صحابة رسول الله ﷺ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وسنخصه بتعريف موجز فيما يلى هذا الفصل، وأذكر أن محمد بن الربيع الجيزي ألف كتابًا فيمن دخل مصر من الصحابة، ذكر فيه مائة وأربعين صحابيًا، وجاء السيوطي فارتفع بالعدد إلى ثلاثمائة، وأكثر هؤلاء قد رجعوا إلى المدينة بعد تمام الفتح بأمد معقول، وفيهم من ظل يهدى إلى سبل الرشاد، فاشتهر بعضهم بالإفتاء، وبعضهم

بالقضاء، وهما من التشريع الإسلامي في لباب اللباب، وعكف تلاميذهم من بعدهم على تلقى العلم، وفيهم من رحل إلى المدينة والعراق طالبًا مستفيدًا ثم رجع يذيع هديه في المسجد الجامع، ومن أشهر من عرفوا بالعلم من تلاميذ الرعيل الأول: يزيد بن أبى حبيب، وابن لهيعة، وابن وهب، والليث بن سعد.

أما يزيد بن أبى حبيب فهو بربري الأصل، وقد رزق الحظوة في تفهم العلم، وكان عاقلًا مهيبًا حليمًا، ويقول المؤرخون: إنه أول من نشر الفقه في مصر بعد صحابة رسول الله ﷺ؛ إذ ورث منهم علمًا كثيرًا أذاعه في المسجد، كما روى عن سالم ونافع وعكرمة، ولم يقتصر على الفقه، بل اهتم بالغزوات والفتوح، فكان الأساس الأول للمدرسة التاريخية بمصر.

وأما ابن لهيعة، فقد كان والده من العرب الوافدين، وقد أخذ عنه الحديث، وأكثر من روايته إكثارًا لم يكن موضع القبول من بعض المحدثين، وليس هذا بعيب، فكل عالم يؤخذ ويرد من قوله، وإذا كان قد تولى القضاء بمصر تسع سنين، فمعنى ذلك أنه كان ثقة في أحكامه الشرعية، يطمئن الناس إلى دروسه بالمسجد، كما يطمئنون إلى حكمه في الأموال والدماء.

ولا يمكن أن نغفل ابن وهب، وهو أبو محمد عبد الله القرشي، وقد امتاز بكثرة الرحلة وبرع في الحديث فاختار منه كتابًا سماه «الجامع

في الحديث» رتبه على كتب متوالية، وقد بلغ من الشهرة العلمية مبلغًا جعل مالك بن أنس يراسله، ويصفه بوصف المفتي، ومالك– بعد– أخبر الناس بالعلماء ولا يهتم إلا بذوي النفاذ والسداد.

وسنلم بشذور من حديث الليث بن سعد فيما يلى هذا البحث؛ إذ بلغ من الفقه مبلغًا رفعه إلى مصاف الأئمة الكبار من أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعي، وله مناظرات علمية مع الإمام مالك ﷺ سنخصها بالتفصيل لتبرز معدن هذا الفقيه الجهير!

على أن تلاوة القرآن كانت ذات ذيوع بالمسجد، إذ انتشر به جماعة من القراء يتلون كتاب الله بقراءة ورش عن نافع، وورش هذا هو عثمان بن سعيد القفطي، مصري أصيل، رحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع تلميذ عبد الله بن عمر، ورجع لينشر قراءته بالديار المصرية في حلقته بمسجد الفسطاط، وعنه انتقلت قراءة نافع إلى المغرب، فمازال القوم يقرءون بها إلى اليوم، وكانت المصاحف تكتب في مصر بكثرة ليتداولها الحافظون من الكبار والصغار، وكانت أجزاؤه توضع بكثرة في المسجد لتكون يسيرة المنال على القارئين.

وقد قرأنا في تاريخ الحاكم بأمر الله أنه بعث من قصره إلى مسجد الفسطاط بألف ومائتين وثمانية مصاحف ما بين ختمات وربعات كلها قد كتب بالذهب ومكن الناس من التلاوة فيها تشجيعًا وترغيبًا، كما

أرسل نجفًا من الفضة يعلق بالمسجد حتى يتمكن التالون بالليل من القراءة على ضوئه! ويا لها من عناية كبرى حين يكتب المصحف بالذهب ويقرأ في مصابيح الفضة! وليس المكتوب عشرة مصاحف، بل يقرب من ألف وثلاثمائة!

وفى مجال الموازنة بين التعليم بجامع عمرو والتعليم بالجامع الأزهر بمصر يقول الدارسون: إن مسجد الفسطاط وإن سبق الجامع الأزهر في التدريس العلمي بنحو من أربعة قرون، ففيه فرق واضح بين التدريس بالمسجدين؛ لأن التدريس بجامع الفسطاط كان حسبة لوجه الله- تعالى- حيث يندفع المدرس والطالب تلقائيًا إلى ممارسة العلم حسبة لوجه الله دون مقابل ما تبذله الدولة، أما التدريس في الجامع الأزهر فكان له أجره المبذول للمدرس قل أو كثر، وذلك في الأعم الأغلب؛ إذ لا يمنع أحد عالمًا يتبرع بالتدريس في المسجد حسبة دون راتب، كما يقولون في صدد الموازنة بين المسجدين: إن طلاب الفسطاط يطلقون اسم «الزاوية» على مكان الدرس، أما طلاب الأزهر فيطلقون اسم «الحلقة» على موضع التدريس، واصطلاح «الزاوية» يوحى بالإقامة المستمرة بالمسجد، أما «الحلقة» فتقوم ساعة الدرس ثم تنفض عقب انتهاء الأستاذ.

وبمقارنة الحركة العلمية في مسجد الفسطاط بمثيلاتها في مساجد

العواصم الإسلامية، نجد أن حركة الفسطاط لا تتقيد بمذهب لإمام خاص، فمن علماء المسجد المصري المالكي والحنفي والشافعي، والمنفرد بمذهب خاص كالليث بن سعد، أما مسجد المدينة فينحو منحى المذهب المالكي وحده، وكذلك تنحو مساجد الكوفة والبصرة منحى المذهب الحنفي، لأن تلاميذ الإمامين هناك يتقيدون بمنحى الإمام، أما في مصر فلكل فقيه أن يتجه وجهته الخاصة بميله العلمي، وقد ظلت هذه الحرية بين العلماء حتى بعد وفود الإمام الشافعي إلى مصر، والتفاف الناس حوله؛ لأن وجود فقيه كبير، وإمام عظيم كالشافعي رضي الله عنه، لا يمنع الدارس أن يرد ما يختار من موارد العلم، وكلها ذات ريّ وغذاء.

يقول الأستاذ محمد المدني- رحمه الله-: «لقد كان المسجد الجامع يومئذ، وهو مسجد عمرو بن العاص، أشبه بنبع صاف فياض يزدحم حواليه الوراد، بل أشبه بجامعة علمية كأرقى ما نعلم من الجامعات الحديثة، تلتقى فيها الدراسات، وتدور المحاورات، وتعقد المناظرات، وتعرض الكتب والتآليف والرسائل، وتنقد المذاهب، وتمحص المسائل، في كنف من حرية الرأي، واستقلال الفكر، وأدب البحث، وعفة المقال، فإذا أفضى الأمر في شيء من ذلك إلى خصومة فهي خصومة شريفة، غايتها الوصول إلى الحق، قد تشتد أحيانًا

وتعظم، حتى يخيل إليك أنها حرب عوان، وهي حرب أي حرب، ولكن جندها العلماء، وقادتها الأئمة الأعلام، وسيفها الحجة والبرهان»[1].

فمن أعلام المذهب الحنفي بجامع عمرو: إسماعيل بن اليسع الكوفي، وقد وفد قاضيًا في عهد المهدى، فأذاع فقه أصحاب الرأي، وتوافد القضاة من الأحناف في عهود الرشيد والمأمون والمعتصم يعاونون على نشر آراء إمامهم، على حين كان فقهاء المالكية أولى حظوة في الدروس العلمية، وكلهم أعلام أئمة من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز، وهما من مذهب مالك بمنزلة أبي يوسف ومحمد بن الحسن من مذهب أبى حنيفة، ثم جاء الإمام الشافعي فأحدث حركة فقهية ذات امتداد، وكان محور نقاش هادف بين الأعلام الكبار، وقد أذكى بين المصريين روح المناقشة والجدل، وانفردت مؤلفات كثيرة بالرد عليه، وتلتها مؤلفات ترد على ما قيل، ثم انتقل إلى جوار ربه، فلم يهدأ النقاش بل امتد بين تلاميذه وتلاميذ مخالفيه! كان الشافعي -رحمه الله- غيثًا دافقًا فملأ الأنهار والينابيع.

(١) مجلة الأزهر، المجلد الحادي عشر، ص ٥٩٢.

عبد اللّه بن عمرو
(عالم الفسطاط)

لم ينل عبد الله بن عمرو بن العاص ما يستحقه من دراسة علمية تبرز أثره الكبير في الثقافة الإسلامية بعامة، وفي الحركة الفكرية الناشئة بمصر عقب الفتح الإسلامي بخاصة؛ لأن الصحابي الكبير كان ذا ثقافة شاملة بالنسبة لزمنه ولزملائه، إذ إنه مع إجادته الكتابة والقراءة في معشر أميّ كان يقرأ بالسوريانية، وكان يطالع التوراة فاهمًا مقارنًا، وقد أسلم قبل أبيه؛ لأنه حاول أن يدرس الإسلام فيما يسمع من نصوص القرآن، فوجد لكلام الله ﷻ بشاشة خالطت فؤاده، وكأنى به وقد أصغى إلى صدق حججه، وقوة منطقه، فلم يستطع صبرًا على اعتناقه، فقدم على رسول الله ﷺ مسلمًا منيبًا، وقد كان إلمامه بالتوراة أحد دوافعه إلى دين الله.

ففي صحيح البخاري عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، حيث يقول الله- تبارك وتعالى- في التوراة:

(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدى ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخاب في

الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر حتى يقيم به الملة العوجاء)، قال عطاء بن يسار: ثم لقيت كعب الأحبار فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفًا.

وقد عهدنا بعض الكاتبين يدرس أمثال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام من مسلمة أهل الكتاب ليبين أثر قارئي التوراة في المحيط الإسلامي في الصدر الأول من عهد الدعوة، ولم نجد فيهم من يشير إلى عبد الله ابن عمرو بن العاص، وكأن هؤلاء متعمدون أن يغفلوا دور الصحابة الخلص في سعة الاطلاع، وقوة الإلمام لحاجات في نفوسهم، وتلك حقيقة نبه إليها الأستاذ صادق إبراهيم عرجون، حين قال- رحمه الله-:

«كان يجدر بمؤرخي الإسلام ورجال الحديث وكاتبي السيرة النبوية وعلماء التفسير أن يجعلوا علم عبد الله بن عمرو وأضرابه من الثقات والأثبات ميزانًا لعلم غيرهم من رواة أخبار التوراة ومقياسًا لروايات الذين أكثروا من الحديث عنها من أمثال كعب الأحبار، ونوف البكالى، ووهب بن منبه، لأن منزلة عبد الله بن عمرو من الصدق والإتقان والفقه ترفعه عن منازل الارتياب، ولو أن العلماء تنبهوا إلى مثل هذا منذ القدم لأمكن تصفية التاريخ الإسلامي من هذه الأقاصيص الإسرائيلية المهلهلة التي ملأت كتب التفسير والسيرة

والحديث، وإذ فات هذا فلا أقل من أن يجعل الباحثون أحاديث عبد الله وأضرابه بعد التثبت من صحة روايتها وسيلة لامتحان هذه القصص المسطورة في الكتب»[1].

ولقدرة عبد الله بن عمرو على القراءة والكتابة كان أحد الذين دونوا حديث الرسول ﷺ في الصحف سماعًا منه، فقد لازم رسول الله ﷺ منذ أن أسلم، واستأذنه أن يكتب حديثه، فأذن له، فقال عبد الله: يا رسول الله، أأكتب كل ما أسمع منك في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإني لا أقول إلا حقًا»[2].

ونحن نعلم أن أبا هريرة رضي الله عنه كان من أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ، إذ حرص على أن يحفظ كل ما يسمع عنه، ولكنه اعترف بأن عبد الله بن عمرو يحفظ من حديث رسول الله أكثر مما يحفظ، وعلل ذلك حين قال: «ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله مني إلا عبد الله ابن عمرو، فإنه كان يعي بقلبه وأعي بقلبي، وكان يكتب وأنا لا أكتب».

وأثر عبد الله في تدوين الحديث النبوي لعهد رسول الله ﷺ كان موضع تردد من الذين يحاولون أن يطعنوا في رواية الحديث؛ إذ يعلنون أنه لم يدون إلا بعد أمد بعيد من رحيل رسول الله ﷺ ليصلوا بذلك

(١) مجلة الأزهر، المجلد الحادي عشر، ص ٦٠٦.
(٢) إحياء علوم الدين.

إلى ما يريدون من هدم لأصل ثابت من أصول التشريع ولكن الروايات المتواترة عن تدوين عبد الله لما كان يسمع من حديث رسول الله ﷺ جعلتهم يتململون كراهية، ولو أخلصوا للحق لاتبعوه حين تظهر دلائله ساطعة دون التباس.

وإذا كان عبد الله من رواة الحديث وحفاظه، ومن دارسي أخبار الأنبياء والمرسلين في القرآن والتوراة، فإن أثره في مسجد الفسطاط بمصر قد كان من الوضوح بحيث ترك تلاميذه ينهجون نهجه في المحافظة على المأثور الصادق من قول رسول الله ﷺ وفي دراسة أخبار السابقين وروايات التاريخ وقصص الفتن والحروب، لذلك عدَّه مؤرخو الحركة العلمية في مصر أول أستاذ لهذه الحركة المباركة، وعدوه المؤسس الحقيقي للعلم في هذه البلاد، إذ أخذ عنه كثير من أهل مصر مكبرين مقدرين، وكان يسمى صحيفته التي دون فيها حديث رسول الله «الصادقة»، ويقول عنها: «فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه أحد»، كما كان يحج ويعتمر ويأتى الشام ثم يرجع إلى مصر، وقد شافه الصحابة ونقل عنهم ونقلوا عنه، وحرصوا على لقائه، وما ظنك بأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر وقد علمت بمقدمه، فقالت لابن أختها عروة بن الزبير أحد الفقهاء السبعة بالمدينة: يا ابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج، فقم والقه واسأله، فإنه حمل عن رسول الله ﷺ علما كثيرًا.

ولم يكن عبد الله عالمًا فحسب، ولكنه كان عابدًا من طراز فريد، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزوّارك عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله، قال عبد الله: فشددت فشدد عليّ، قلت: يا رسول الله، إني أجد قوة، فقال: صم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه، نصف الدهر، فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله».

ولا يتسع المجال لرصد ما يحمل هذا الحديث من العبر، ولكن الذى لا يفوتنا منها هو شدة حساسية عبد الله نحو ربه؛ إذ ينهض لعبادته صائمًا قائمًا، وهو بالأحرى ذو حساسية مفرطة حين يحدث عن النبي وحين يبين الحلال والحرام لمن يجتمع حوله من السامعين.

على أن أهل مصر قد تناقلوا أحاديث ابن عمرو تدوينًا وكتابة، فاقتدوا به في تسجيل المأثور عن رسول الله! وذلك ما ينقض المتعارف من إبطاء حركة التدوين إلى عهد بنى مروان، فقد روى المقريزي عن

حيوة بن شريح قال: دخلت على حسين بن شفى الأصبحي وهو يقول: فعل الله بفلان، فقلت له: ماله؟ فقال: عمد إلى كتابين كان أبى شفى جمعهما مما سمع من عبد الله عن رسول الله ﷺ، أحدهما عن أقضيته، والثاني عن أنباء يوم القيامة، فأخذهما وأضاعهما، ومعنى ذلك أن الحديث لم يكن مدونًا فحسب، بل كان مبوبًا وفق الموضوعات، فللأقضية باب، ولأخبار القيامة باب، وهكذا، ومعناه الثاني أن مصر قد أسهمت في رواية الحديث ونقله منذ عهد مبكر، وأن مقام عبد الله بها قد ترك أثره في هذا الاتجاه، وإذا وجدنا أمثال يزيد بن حبيب، وابن لهيعة، وابن وهب، يتجهون وجهة المأثور في الإفتاء، فذلك توجيه عبد الله.

وإذا كان الليث بن سعد من أبرز أعلام التشريع في مصر؛ حيث انتهى إليه ما تسلسل منذ عهد ابن عمرو من القضايا والأحكام، وشاع ذكره حتى عد بين الأفراد، فإن التاريخ ليحفظ له مناظرة فقهية بينه وبين مالك تصور ما كان يجرى من حوار بين عالم المسجد النبوي وفقيه المسجد المصري، وفي الإلمام بها ما يبرز تصاول العقول، وتبادل الأفكار، مهما بعد المدى ونأت المسافات.

مسجد الكوفة

اشتهر مسجد الكوفة بحركته العلمية ذات التأثير البعيد في التشريع الإسلامي، لأن عبد الله بن مسعود كان من أنصار الاجتهاد، وقد أقام بالكوفة أمدًا غير قصير معلمًا دارسًا شارحًا لكتاب الله، وإذا كان ابن مسعود قارئًا ندي الصوت، حافظا لكتاب الله، حسن التلاوة، حتى إن رسول الله ﷺ كان يطلب منه أن يقرأ القرآن ليسمع، إذا كان ابن مسعود كذلك، فإنه عمل على إحياء مدرسة للقراء بالكوفة، تجردت للضبط والإتقان، وتخصصت في الترتيل الجيد لهجة ومخرجًا ووقفًا، فمن رجال القراءات بالكوفة: يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبى النجود، وسليمان الأعمش، وحمزة الزيات، والكسائي، ومعروف أن ثلاثة منهم، وهم حمزة وعاصم والكسائي يعدون من أئمة القراءة السبعة الذين رزقوا حظوة بين المسلمين، فإذا استطاع مسجد الكوفة أن يبرز هؤلاء الأعلام في مجال القراءات فقد وفق إلى خير كثير.

أما أثر المسجد الكوفي في مجال التشريع فأوضح من أن يشار إليه؛ لأن مدرسة الرأي التي انتهت زعامتها فيما بعد إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، قد نشأت بالكوفة؛ وذلك لأن العراق قد ورث حضارة ومدنية، وانتشر فيه الموالي من سبي فارس، ولم يكن الفتح الإسلامي سلبًا وتدميرًا، ولكنه كان رعاية ومساواة وعدالة، فواجه المسلمون فيما

فتح عليهم من البلاد مسائل جديدة تحتاج إلى أحكام فقهية، فلا بد من استعمال الرأي، وهذا ما قام به عمر بن الخطاب، وما أوصى به عماله وقضاته حين لا يجدون شيئًا من كتاب الله، ولا صحيحًا من قول الرسول ﷺ، وقد أفتى أبو بكر، وزيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل بمثل ما أفتى به عمر، مستعينين بالاجتهاد القائم على القياس، وبذلك كان السبيل ممهدًا لأئمة الفقه في المسجد الكوفي، وفي مقابلة المسجد الكوفي كان علماء المسجد النبوي يقفون عند ظواهر النصوص بدون بحث في عللها، ولهم مع مخالفيهم مناقشات وردود.

تزعم المسجد الكوفي الرأي حتى اشتهر كبير علمائه بربيعة الرأي: وهو فقيه مشهود له بالاطلاع والدربة، قال عبد الله بن سوار القاضي: ما رأيت أحدًا أعلم من ربيعة بالرأي، فقيل له: ولا الحسن البصرى، وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن، ولا ابن سيرين.

يقول الأستاذ محمد الخضري في كتابه «تاريخ التشريع الإسلامي»[1]:

«كان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنهم يتركون بعض الأحاديث لأقيستهم، وهذا من الخطأ عليهم، ولم نر فيهم من يقدم قياسًا على سنة ثبتت عنده، إلا أن فيهم من لم يرو له الأثر في الحادثة،

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، ص ١٤٦ – الطبعة الخامسة.

أو روى له ولم يثق بسنده، فأفتى بالرأي، فربما كان ما أفتى به مخالفًا لسنة لم تكن بمعلومة له، أو علمت، ولكنه لم يثق بروايتها، أو عارضها ما هو أقوى في نظره، كما روى سفيان بن عيينة قال: اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي في دار الحناطين بمكة، فقال الأوزاعي لأبي حنيفة: ما بالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه؟ فقال أبو حنيفة: لأجل أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ فيه شيء، قال: كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وعند الركوع وعند الرفع؟ فقال أبو حنيفة: حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شيء من ذلك، فقال الأوزاعي: أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه، وتقول: حدثني حماد عن إبراهيم؟! فقال أبو حنيفة: كان حماد أفقه من الزهري، وكان إبراهيم أفقه من سالم، وعلقمة ليس بدون ابن عمر، وإن كان لابن عمر صحبة أو فضل صحبة فالأسود هو الأسود، وعبد الله بن مسعود هو عبد الله ابن مسعود، فسكت الأوزاعي».

نقل هذا الحوار ليفهم القارئ أن الرأي لا يعد تحكمًا، وخروجًا على النص، ولكن المسألة تدور حول صحة النص والتيقن من صدوره عن رسول الله ﷺ فإذا كان الحديث النبوي صحيح الرواية فلا خلاف!

ولعل الفيصل في ذلك كله هو قول أبي حنيفة ﵁: «آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ، فما لم أجده فيهما أخذت بقول صحابة رسول الله ﷺ، آخذ بقول من شئت منهم وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم أو الشعبي أو ابن سيرين أو الحسن أو غيرهم فقوم اجتهدوا، وإني لأجتهد كما اجتهدوا»[1].

فإذا تركنا علوم الشريعة إلى علوم العربية، فإننا نجد مسجد البصرة قد سبق مسجد الكوفة في مجال اللغة والنحو؛ لأن الكوفة كانت أكثر اهتمامًا وأولى سبقًا في مجال رواية الشعر والأخبار، ولعل الذى قعد بالبصرة عن السبق في رواية الشعر أنها كانت أكثر اختلاطًا، وأشد ازدحامًا بالموالي والغرباء، فكانت الحاجة إلى تعلم النحو بها أوجب وأرعى، وقد قال الأستاذ يوسف خليف بصدد ذلك[2].

«ونستطيع أن نقول: إن البصرة كانت مدينة العلم، في حين كانت الكوفة مدينة الفن، وضعت الأولى قواعد العلم العربي، ووضعت الأخرى نماذج الفن العربي، وكلتا المدينتين لم تكن بمعزل عن الأخرى في قانون التأثر والتأثير».

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١٣/ ٣٦٨.

(٢) حياة الشعر في الكوفة، ص ٢٦١.

والموازنة بين المدينتين في مجال السبق الزمنى فقط؛ لأن علماء الكوفة قد نشطوا للنحو واللغة، كما نشط علماء البصرة للأشعار رواية ودراية، وللأخبار الأدبية نقدًا وتسجيلًا، وإذا كان عيسى بن عمر الثقفي وأستاذه أبو إسحاق الحضرمي أول نحاة البصرة، وقد توفى الأول سنة ١٤٩هـ، وتوفى الثاني سنة ١١٧هـ، فمعنى ذلك أن البصرة قد سبقت الكوفة بنحو مائة عام، حتى نهض بها أبو جعفر الرؤاسي، وكان معاصرًا للخليل بن أحمد، فكان رأس المدرسة الكوفية، ويقول ثعلب الكوفي: إن أبا جعفر كان أول كوفي وضع كتابا في النحو، ثم جاء بعد الرؤاسي تلميذاه الشهيران الكسائي والفراء، وبهما قامت المدرسة النحوية في هذا المسجد، وامتد لها من الصيت ما ظل أثره مترددًا في كتب النحو إلى اليوم.

وقد أكثر الدارسون من الموازنة بين المدرستين، حتى ألفت كتب مستقلة في الموازنة بينهما، وجاء ابن الأنباري ليضع كتابه: «الإنصاف فيما بين البصريين والكوفيين من الخلاف»، ليكون أبا الحسن لهذه القضية، وقد وفق إلى اهتداء كبير وإن وجد من يعقب عليه تأييدًا ونقضًا، وتلك سنة الباحثين.

ونذكر في مضمار البحث اللغوي بمسجد الكوفة أبا عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، كما نذكر الكسائي والفراء إذ لم يقتصروا على فن واحد

من فنون العربية، وكلهم ثقة فيما كتب إلا ما يروى عن أخطاء لابن الأعرابي تحامل عليه في نقدها بعض المؤرخين، ولكننا في مجال الحق نرى أن الخطأ لم يسلم منه أحد، وأن محاولة انتقاص ابن الأعرابي بما وقع فيه من الخطأ ظلم لا مبرر له، فحسبه أن جاء بصواب كبير.

لقد كان مسجد الكوفة ذا فضل جهير في نشر الثقافة الإسلامية، وسنختار عالمه الأول عبد الله بن مسعود مثالاً لأحد أساتذته؛ لأن ابن مسعود على فضله العلمي قارئًا ومفتيًا وفقيهًا، لم يجد من يخصه بدراسة متأنية، فلعل باحثًا ينهض لإنصافه العلمي، محللاً آراءه، شارحًا قضاياه، لنعرف من نضاله العقلي ما نعلمه من جهاده الإسلامي بصحبة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين.

عبد الله بن مسعود

رزق عبد الله بن مسعود جرأة وشجاعة، فحين أشرب قلبه الإيمان، وكان غلامًا رقيق الحال، يرعى الغنم لأحد العتاة الباغين من كفرة قريش، جعل يكثر من الذهاب إلى دار الأرقم دون تحرج، ولم يجعل إيمانه سرًا بينه وبين نفسه، بل أراد أن يتحدى به السادة الكبار وهو ضعيف لا ظهير له، اجتمع يومًا مع صحابة الرسول ﷺ فأخذوا يقولون: هذا القرآن نتلوه في دار الأرقم، وما سمعت به قريش، فمن منا رجل يسمعه إياهم؟ قال ابن مسعود: أنا ذلك الرجل! فتعجبوا لما يرون من ضعف حاله، وضآلة جسمه، وقالوا: نخشى الجبابرة عليك وما أحد يحميك، فقال في ثقة: دعوني فإن الله سيمنعني.

وطلع الصباح ونهضت قريش إلى مجلسها من الكعبة فسمعت صوتًا مؤمنًا ينبعث من مقام إبراهيم، وقد جعل يتلو قول الله:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

[الرحمن: ١ – ٤]

فدهشوا، وهرعوا إلى صاحب الصوت، فرأوه عبد الله بن مسعود، فسألوه متعجبين، فأعلمهم أنه قد أسلم، فاندفعوا يضربونه في وجهه، وهو لا يكف عن القراءة حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف

إلى المسلمين ودمه يصبغ وجهه، فقالوا له متألمين هذا ما كنا نخشاه عليك، فقال في ثبات: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولو شئتم لغاديتهم بمثلها، فقالوا: حسبك لقد أسمعتهم ما يكرهون.

اشتد اتصال ابن مسعود برسول الله ﷺ، فكان لا يفارقه في منزله أو مسجده، كان يقوم على خدمته، يلبسه نعله ويمشي معه وأمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويستمع إلى حديثه بالمسجد مدققًا واعيًا، حتى صار وعاء مُلئ علمًا كما قال عنه عمر بن الخطاب، وعمر صادق لا يصف أحدًا بما ليس فيه، قال أبو موسى الأشعري: لقد قدمت أنا وأخي من اليمن، وما نرى عبد الله بن مسعود إلا رجلاً من أهل بيت النبي ﷺ، لما نشهد من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ!

ولما اشتد أذى قريش للمسلمين هاجر ابن مسعود إلى الحبشة ورجع منها ليهاجر إلى المدينة، وله موقف رائع في غزوة بدر لا ينسى، إذ جاهد مع المجاهدين، فلما انهزم المشركون جعل يتفقد الجرحى باحثًا عن أبى جهل، استجابة لأمر رسول الله ﷺ، فوجده يجود بآخر رمق، فوضع رجله على عنقه، فصاح أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى عظيما يا رويعي الغنم، فأخبرني لمن الدائرة؟ فقال: لله ورسوله وإني لقاتلك، فقال أبو جهل متحسرًا: إن أشد شيء عليّ قتلك إياي! ثم جز رأسه، وجاء إلى رسول الله ﷺ صائحًا: هذا رأس عدو الله، فقال

الرسول ﷺ؛ آلله الذى لا إله غيره؟ ورددها ثلاثًا، فقال: نعم، وألقى برأسه بين يديه، فحمد الله شاكرًا.

روى الترمذي: عن حذيفة أن أناسًا قالوا له: حدثنا بأقرب الناس دلا وهديًا من رسول الله ﷺ؛ فقال: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أن ابن مسعود من أقربهم إلى الله زلفى.

وجاء في الطبقات عن أبى عطية الهمداني قال: كنت جالسًا عند عبد الله بن مسعود، فأتاه رجل فسأل عن مسألة، فقال: هل سألت عنها أحدًا غيرى؟ قال: نعم، سألت أبا موسى الأشعري، وأخبره بإجابته، فخالفها ابن مسعود، ثم قام، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بينكم.

وحين أنشئت الكوفة سيره ابن الخطاب مع عمار بن ياسر إليها، وقال: إنهما من النجباء في أصحاب محمد فاقتدوا بهما، وقال عليّ بن أبي - طالب كرم الله وجهه -: لو كنت مُؤَمِّرًا أحدًا من غير شورى لأَمَّرْتُ ابن أم عبد.

وقد حفظ له التاريخ موقفًا رائعًا، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى؟ قالها ثلاثًا، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقد أجاب، وقد حدث فقال: لم يحضر ليلة الجن أحد غيرى، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون،

خط لي خطًا، وقال: لا تخرج منه حتى أعود عليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطًا شديدًا، حتى خفت على رسول الله ﷺ، وغشيته أسودة كثيرة، حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم انقطعوا كقطع السحاب، فقال لي رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئًا؟ قلت: نعم، رجالًا سودًا يلبسون لباسًا أبيض، فقال: أولئك جن نصيبين»[1].

أما براعة ابن مسعود في ترتيل القرآن فيخبر عنها ما رواه البخاري عن رسول الله ﷺ عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ اقرأ عليَّ، فقلت: كيف أقرأ عليك القرآن، وعليك نزل؟ قال: إني اشتهى أن أسمعه من غيرى، قال عبد الله: فقرأت عليه من سورة النساء حتى إذا بلغت قول الله ﷻ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

[النساء: ٤١]

قال لي: حسبك، فنظرت إليه وقد اغرورقت عينا رسول الله ﷺ بالدمع، ثم قال ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن فليقرأه قراءة ابن أم عبد».

لذلك كان ابن مسعود يتصدر معلمًا للقراءة ويقول: «جَوّدوا القرآن»، وفي الصحيحين «أن رجلًا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة

(١) كنز العمال رقم ١٥٢٣٤.

واحدة، فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر، إن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فلا يقع في القلب فيرسخ فيه، لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذّوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون هَمُّ أحدكم آخر السورة».

ولعمري لنحن في حاجة ماسة إلى تنفيذ هذه الإرشادات، فأكثرنا يتلو القرآن دون تدبر، بل يمر به مرًا، وقد قال الله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾[القمر: ١٧]

اشتهر ابن مسعود بتلاوة الكتاب وحفظه، وكان الصحابة يسمعون عنه بالمدينة، فلما انتقل إلى الكوفة جعل يقرأ القرآن ويروى العلم، ويحدث بأنباء رسول الله ﷺ، حتى أنشأ مدرسة فقهية دينية قرآنية تنتمى إليه، فقد تلقى عنه عاصم بن ضمرة، والحارث بن عبد الله، وزر ابن حبيش، وأبو عمرو سعد الشيباني، ومسروق بن الأجدع، وزيد بن وهب، وعلقمة بن قيس، وأبو الأسود الدؤلي، وإلى هؤلاء تنتهى قراءة عاصم وحمزة والكسائي من السبعة القراء، وقراءة خلف من العشرة، وقراءة الأعمش من الأربعة عشر، وقد اقتصر على ما وافق الرسم العثماني من قراءته، واشترطوا في صحة التعبد بالقرآن أن يكون صحيح السند، وأن يكون موافقًا للرسم العثماني وموافقًا للعربية بوجه من الوجوه.

ومما يدل على زهد ابن مسعود أنه ﷺ في مرضه الأخير، عاده عثمان بن عفان فسأله: ما تشتكى؟ فقال: ذنوبي، قال: فما تشتهى؟ قال: رحمة ربى، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك، قال: أتخشى على بناتى الفقر؟ لقد أمرتهن بقراءة سورة الواقعة كل يوم لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[1].

وحين نستعرض تاريخ الحركة العلمية بالكوفة نجد أن ابن مسعود كان رائدها الأول؛ لأن عليًا بن أبى طالب قد شغل بأعباء السياسة في مدة خلافته بالكوفة؛ إذ لم يرتح يومًا واحدًا من دسائس الوصولية، وأحقاد الجاهلية، ولو تفرغ لنشر الفقه والتفسير لكان إمام الأئمة ذا القول الفصل، لذلك كان ابن مسعود أكثر من حفظت عنه الفتيا بالكوفة، وكأنما يشعر شعورًا داخليًا بواجبه العلمي، وأنه بعث معلمًا فقيهًا، فابتنى داره إلى جانب المسجد، ليكون ذا اتصال بالمصلين في أقرب المناسبات، ولعل اتجاهه الروحي في منحاه الفقهي كان أقرب إلى عمر بن الخطاب؛ إذ كان ابن مسعود ناقلًا لآرائه، محبذًا لها.

ويذكر ابن القيم أن عبد الله بن مسعود لم يكن ليخالف عمر بن الخطاب في شيء أو حكم، وإذا كانت ميزة الفاروق ﷺ في فقهه هي

(١) الدر المنثور ٦/ ١٥٣.

الاجتهاد واستعمال الرأي حيث لا نص من كتاب أو حديث موثوق برواية، فإن هذا الاجتهاد الفقهى كان مشرب ابن مسعود، وعنه انتقل إلى تلاميذه بالكوفة مع تشدد كبير في رواية الحديث؛ إذ كان مثل عمر ﷺ لا يقبله من راوٍ واحد حتى يشهد على صحته شاهدان.

وفى بعض ما كتبناه في الفصل السابق ما يشير إلى شيوع هذا الاتجاه في الفقه الكوفي بتأثير مباشر من أستاذ المسجد عبد الله بن مسعود رحمه الله.

مسجد البصرة

يحتاج مسجد البصرة إلى كتاب برأسه، فقد قدر لهذا البلد الطيب أن يكون المصدر الأول للحركة العلمية في أزهى عصور العربية، وكان علماؤه لا يقتصرون على البحوث الدينية، بل يتكلمون في كل ما يتجه إليه العقل من علوم، بحيث كانت ساحة المسجد الممتدة مدرسة ذات فصول، والفصول هي الحلقات المتنوعة في المسجد، فحلقة للنحو، وحلقة لعلم الكلام، وحلقة للفقه، وحلقة للتفسير، وحلقة للوعظ والقصص، وحلقة للتاريخ والأخبار، والناس يعرفون جميعًا دسامة هذه الحلقات ويخفون إليها من كل صوب، بل إن الرشيد– على جلالة قدره– كان يتنكر في بعض الملابس والأزياء ليشاهد بعض المصاولات الفكرية في البصرة على حالها الطبيعي دون افتعال، وكذلك فعل المأمون؛ إذ أخذ يصطحب القاضي يحيى بن أكثم إلى حلقات المعتزلة بالبصرة، لينعم بلذة الصيال الفكري، حين يرى رأيًا يصول على رأى وحجة تقرع حجة، والناس واعون متيقظون كأنما يسمعون لأول مرة كتاب الله.

وقد انتشرت سمعة المسجد البصرى الجامع في العهد الأموي، وإن كان عهده الأول يقتصر على دروس الفقه والوعظ، ثم اتجه إلى دروس اللغة والنحو حين أخذ عبد الله الحضرمي يقرأ العربية على

طلابه، وقد خطأ كبار الشعراء ومنهم الفرزدق، فثار عليه الشاعر الصلف وهجاه بأبيات منها قوله المشهور:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا

وتوالت دروس أبى عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل ابن أحمد، وسيبويه، تقيم للعربية مجدًا شاهق الأوج، رفيع العماد.

وكان للحسن البصرى مجلسه العلمي الرائع، وفي حلقة درسه نشأ الاعتزال، حين خاصمه تلميذه واصل بن عطاء، واعتزل مجلسه إلى مجلس آخر، وتابعه في اتجاهه عمرو بن عبيد، واشتد اللجاج، فكثر المعتزلة، وظهر من رءوسها في المسجد الجامع أبو هذيل العلاف والنظام، ومهما قيل في الاعتزال من نقد، فإن أعلامه الكبار هم الذين تصدوا للزنادقة والملاحدة، وهم الذين حاربوا أعداء الإسلام بمنطق العقل فكشفوا عوارهم، وكان اعتزازهم بالعقل مبعث نهوض فكري، لم يقف عند العقيدة وحدها، بل امتد إلى كل بحث علمي.

وبذلك أصبح الفكر الإسلامي ذا ثروة رائعة نقف عليها اليوم فيما كتبه السابقون من تراث يصور أوجه الخلاف بين الفرق المتصارعة، ولا يعيى صاحب العقل البصير أن يتجه إلى ما يرتضيه من الآراء، مقدرًا وجهة نظر المخالف تقديره لوجهته التي يميل إليها، وفي ذلك من سعة الصدر ورحابة الأفق ما يجب أن يكون على مدى الحياة.

على أن مجالس الوعظ والقرآن بالمسجد الجامع بالبصرة كانت أشد جذبًا للعامة من رواد الحلقات؛ إذ لا يصبرون على عمق الجدل الكلامي، وتشعب مراميه، وقد اشتهر بالقصص التهذيبي والوعظ الديني نفر كثير منهم أبو ذر الهمذاني الذى قال عنه الجاحظ: ما سمعت أبا ذر يعظ الناس إلا خيل إليَّ أنه قد نفخ في الصور وقام الناس لرب العالمين، وما سمعت أحدًا يقلده عن غير بصر إلا تمنيت أن يمشق بالسياط تسعين!

أما القاضي ابن سيار الأسواري فقد كان عجيبة العجائب حقًا، يقول عند الجاحظ: إن فصاحته بالفارسية كانت تعدل فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلس وعظه فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن شماله، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية، وللفرس بالفارسية، فلا يدرى العالم باللغتين معًا بأي لسان هو أبين[1]، وزميله الذى يجاوره في الحلقة عمرو بن قائد لا يقل مكانة عنه، وقد قضى ستة وثلاثين عامًا يفسر كتاب الله، مبتدئًا بسورة البقرة، ومضى عليه هذا الأمد الطويل دون أن يختم القرآن تفسيرًا.

وكان عراك النحاة واللغويين لا يقل روعة عن عراك سواهم من المتكلمين، فكثيرًا ما اصطدم الأصمعي بأبي عبيدة في حلقات المسجد الجامع، وكانت الغلبة في الظاهر للأصمعي، لأنه حسن المنطق، فصيح

(١) البيان والتبيين ج١، ص ٢٤٦.

المخـارج، بـارع الفكاهـة، ولكـن الـذين يـدققون في صـميم الحـوار ويتعمقونـه يعرفـون عمـق أبـى عبيـدة وبعـد غـوره، وإن صـد عنـه تلكـؤ لسانه، وضعف بيانه أثناء الجدل.

وقـد خاصـم الأصـمعي سيبويه في بعـض المسـائل، وانتصـر عليـه بلباقته المعهودة، حين أخذ يشقق الحديث، وينتقـل مـن فـن إلـى فـن، ولكن الأصمعي نفسه كان يـدرى أنـه يخـدع السـامعين دون أن يصـيب المقتل من صاحبه، وفيما رواه ياقوت الحموي عن الأصـمعي اعـتراف صريح يـدل علـى أنـه يعـرف منزلـة مـن ينـاظرهم، ويعلـم أنهـم يصـيبون إصابة لا تحتاج إلى اللجاج لولا ما منيـت بـه الـنفس البشـرية مـن حـب الانتصار وزهو الغلبة.

قـال يـاقوت[1]: قـال أبـو حـاتم السجسـتانى: فقلـت لـه- أي الأصـمعي-: في نفسـى شـيء أريـد أن أسـألك عنـه، قـال: سـل، فقلـت: حدثني بما جرى بينك وبين سيبويه في المناظرة، فقـال: والله، لـولا أنـى لا أرجو الحياة من مرضى هذا مـا حـدثتك، إنـه عُـرض علـى شـيء مـن الأشياء التي وضعها سيبويه في كتابه، ففسرتها على خلاف ما فسر، فبلغ ذلـك سـيبويه، فبلغنـي أنـه قـال: لا ناظرتـه إلا في المجلـس الجـامع، فصليت يومًا في الجامع ثم خرجت فتلقاني في المسجد، فقال لي اجلس

(١) معجم الأدباء (نقلا عن كتاب الجاحظ للدكتور الحاجرى، ص ١٠٧).

يا أبا سعيد، ما الذى أنكرت من بيت كذا، وبيت كذا، ولم فسرت على خلاف ما يجب، فقلت له: ما فسرت إلا على ما يجب، والذى فسرته أنت ووضعته خطأ، تسألني وأجيب، ورفعت صوتي، فسمع العامة فصاحتى، ونظروا إلى لكنته، وقالوا: غلب الأصمعي سيبويه، فسرنى ذلك، فقال لى: إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك منى لم ألتفت إلى قول هؤلاء، ونفض يده في وجهى ومضى.

وهذه القصة وإن صورت جموح الأصمعي وشهوة الزهو لديه، فإنها تصور أيضًا اعترافه بالحق لأبى حاتم، وتقديره القوى لرأى سيبويه، كما تصور في الوقت نفسه عظمة سيبويه حين لم يعبأ بمدح العامة أو ذمهم، بل قال قوله عن يقين في صحته، بل عن يقين في أن الأصمعي يعلم أنه مصيب، ولكنه يأبى أن يتراجع! فسيبويه في مجال التقدير العلمي أوفى كيلا من صاحبه.

وإذا كان الشعراء في صدر العصر العباسي يؤمون هذه الحلقات فإنهم لا محالة قد تأثروا فكريًا بالمتكلمين، وأخذت أفكارهم تعمق ومعانيهم تعزز بالاستماع إلى هذه المجادلات الدقيقة، وفيهم من بالغ في ذلك مبالغة اشتهر بها، يقول الدكتور محمد طه الحاجري[1]:

«وقد كان من أثر اتصال الشعراء بالمتكلمين وأخذهم عنهم (فى

(١) الجاحظ: حياته وآثاره للدكتور الحاجري، ص ١٠٥.

مسجد البصرة) أن جعلنا نرى فيهم من اصطبغ شعره بالصبغة الكلامية، فعرف بهذا اللون من الشعر، كأبي عبد الرحمن العطوى، وهو شاعر بصري المولد والمنشأ، وقد ذكره محمد بن داود في كتاب الشعراء، على ما ينقل عنه أبو الفرج –قال: كان له فن من الشعر لم يسبق إليه، وذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام، ففارق[1] جميع نظرائه، وخف شعره على كل لسان، وروى، واستعمله الكتاب، وأخذوا معانيه وجعلوه إمامًا».

ونختار من أساتذة هذا المسجد الجامع شخصية الخليل بن أحمد، فنعرف به على إيجاز، وإنه الشهير الجهير.

(١) لعلها: فاق.

الخليل بن أحمد

قيل: إنه لو اختير عبقريان من علماء الإسلام لكان أحدهما الخليل، دون نزاع، كما قيل: لن يجوز على الصراط بعد الأنبياء من هو أدق ذهنًا من الخليل، وهما قولان يجدان مبررهما من واقع الخليل العلمي؛ لأن جهده في شتى ميادين العربية كان من الدهشة والعجب بحيث جاز لدارسيه أن يقفوا أمامه مبهورين.

تلقى الخليل العلم في مسجد البصرة على أساتذة كبار منهم عيسى ابن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء، ولكنهما بالقياس إليه في منطق العلم الموازن ذوا جهد متواضع؛ لأن الخليل مع عبقريته الساطعة قد كافح وجالد وترك البصرة إلى بوادي الأعراب، ولم يسمع شيئًا من العلم إلا ناقشه وأبدى رأيه فيه تفنيدًا أو تأييدًا، وحين ذهب إلى البادية وجمع ما استطاع جمعه من ألفاظ الأعراب، ومواد اللغة، كان السابق إلى تدوين أول معجم لغوى عرفته العربية، وقد جعل يقابل فصحاء اللغة في مواسم الحج بمكة عدة سنوات، ليقارن ما جمعه بما عند الفصحاء، ثم رسم الخطة لوضع معجم يشمل المهمل والمستعمل معًا فاحتوى على نحو من ١٢,٣٠٥,٤١٢ كلمة عربية بعضها مستعمل وأكثرها مهمل، وقد حدا به إلى تدوين المهمل ما منحه من تفكير عقلي دقيق؛ لأنه كان يجيء بالفعل فيذكر الاحتمالات في حروفه كلها

ضمًا وفتحًا وسكونًا، ثم يقلب اشتقاقه على شتى وجوهه، فتأتى صيغ كثيرة منها المهمل ومنها المستعمل، فيقول عن كلمة: هذه مما استعمله العرب، وعن أخرى: هذه مما لم تستعمله. ثم أضاف في مجال الاستشهاد على ما نطقت به العرب كثيرًا من غرر الشواهد، ونوادر الفرائد، وعجيب القواعد مما يعز وجوده في معجم غير معجم (العين)، وقد نسب هذا المعجم إلى تلميذه الليث، وكل ما في هذه النسبة أن الليث سمع أستاذه ودون قوله وزاد عليه في حدود منهجه الذى قرره، ولسنا نبخس الليث فضله، ولكن النزاهة العلمية تقول: إن إحضار الأرض، وإعداد أدوات البناء، وتشييد القصر كله من عمل الخليل دون نظر إلى لبنات جديدة وضعها تلميذ أو تلميذان في عدة جدر من جدران البناء.

وقد بدأ الخليل معجمه بالعين، ولم يبدأ بالهمزة كما فعل غيره من بعده لأنه رأى هذا الحرف مما يلحقه النقص والتغيير والحذف، ولم يبدأ بالألف لأنها لا تكون كلمة في الابتداء، ولا تكون في اسم أو فعل إلا زائدة أو مبدلة، أما العين فهي أنصع الحروف فخصت بالابتداء، وهناك كتاب يسمى فائت العين ينسب للخليل، وليس له، لأنه لو ذكر الفائت لوضعه في مكانه في النسخة التي يقرؤها لطلابه، كما هي عادة العلماء! ولابد أن عالمًا لغويًا كبيرًا استدرك على الخليل بعض ما

استعمل من ألفاظ لم تذكر في (العين)، وليس ذلك بمستغرب، فقد قال الإمام الشافعي في (الرسالة) لا يحيط بكلمات اللغة العربية بشر إلا أن يكون نبيًا!

أما كتاب سيبويه الشهير فمن وحى الخليل أستاذه؛ لأن الخليل بعقله العلمي قد جاز بالنحو حد الرواية إلى ضبط الأصول، وبسط الفروع، واستخراج العلل والأسباب، ولو تفرغ للنحو وحده لكان قد اهتدى إلى أكثر مما اهتدى إليه، وبعض الناس يقيمون معركة في غير ميدان، فيذهب أحدهم إلى تجريد سيبويه من كل فضل، ونسبة الفضل في الكتاب كله إلى الخليل، وبعض آخر يذهب إلى أن الخليل أستاذ سيبويه حقًا، ولكنه يشرح النحو دون تأليف، فألف سيبويه كتابه من جهده وحده، وكلا الفريقين جانح عن الحقيقة موغل في الخطأ، فأثر الخليل في سيبويه واضح، وإذا وجد في الكتاب قول سيبويه (سألته) أو (وقال) فالضمير راجع إلى الخليل وحده، فما ظنك بمن يسأله سيبويه وينتظر إجابته! الحق أننا نضع الحق في نصابه حين نقول: إن الكتاب بتوجيه من الأستاذ للتلميذ، وإن التلميذ كان له جهد يكافئ جهد الأستاذ، وكلاهما في النحو ذو مقام عظيم.

ونأتي إلى عجيبة العجائب حقًا، وهى ابتداع الخليل علم العروض ابتداعًا على غير سابق مثال، وتفرده وحده بغير شريك بإنشاء علم

عربي كامل تام، إذا صرفنا النظر عن بحر استدركه بعده المستدركون!! ونحن نعرف أن كل شيء مبتكر في العلم أو الفن يكون مظنة التعثر والأخذ والرد، أو يكون نواة يضعها المبتكر الأول في الأرض الجديدة ثم تتوالى الأيام عليها بتوالي الباحثين سقيًا ورعيًا وتسميدًا وتهوية حتى تنشق الأرض عن الغصن الأخضر، وينمو الجذع والساق، وتتهدل الفروع، وتنضج الثمار! هذا هو المعهود في دنيا العلم، أما أن يكون العروض دوحة فينانة مثمرة ممتدة نشأت في أرض الخليل وحده وبمعونته رعيا وتهوية وريًا وتشذيبًا، قد بسقت غصونها، وامتدت ظلالها وجاءت بأشهى الثمر! أما أن تكون دوحة العروض الوارفة المثمرة كلها من صنع الخليل وغرسه، فهذا هو الشيء الذى لا ينتهى منه عجب ذوى العقول.

يقول حمزة بن الحسن الأصبهاني:

«إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع العلوم- التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول- من الخليل بن أحمد، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض، الذى لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه، فلو كانت أيامه قديمة، ورسومه بعيدة، لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا، وذلك في اختراعه هذا العلم، وفي تأسيس بناء كتاب العين الذى يحصر لغة أمة من الأمم

قاطبة، ثم إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذى هو زينة لدولة الإسلام».

لقد رأى الخليل فاشية اللحن على أيدى الموالي، وشاهد من ضعف السلائق، وبلبلة الألسنة، ما خشى معه على الشعر رواية وإنشاء، فأخذ يجمع شعر العرب من كل فج ليجعله طوائف وشيعًا وليخص كل طائفة بوزن معين تنتمى إليه مئات القصائد، فاتخذ أصولاً، ووضع لكل أصل تفعيلات متميزة يعرف بها، وانتهت الأصول إلى خمسة عشر أصلًا سماها بحورًا، وجعل لكل بحر اسمًا يناسبه، وقد أخذ يستخفى عن الأنظار وهو يقطع الأبيات على ما اخترعه من الأوزان، فيذكر فعولن مفاعلن متفاعلن، ويكرر ذلك تطبيقًا لما يحضره من الشاهد، وقد رآه أحد أولاده يقطع الأبيات، وينطق بالوزن العروضي، فدهش وحسب أباه مجنونًا ومضى ليخبر أسرته، ولكن الخليل ابتسم لما علم وقال في عطف:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ∴ أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ∴ وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وللخليل بن أحمد جهد معلوم في شكل الحروف على نمطها المتعارف الآن، إذ إن الخط العربي كان في صدر الإسلام خلوًا من الشكل والإعجام، فجاء أبو الأسود ليجعل النقط ضبطًا للحروف،

فعلامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة تحته، وعلامة الضمة نقطة وسطه، وجعل التنوين نقطتين، ثم جاء نصر بن عاصم، فأعاد النظر إلى الخط بتوجيه من الحجاج بن يوسف، فأشار بنقط الإعجام بعد أن كانت الحروف كلها مهملة، فوضع نقطة تحت الباء ونقطتين تحت الياء وواحدة فوق النون واثنتين فوق التاء، وثلاثا فوق الثاء، وهكذا، فاختلط نقط الشكل بنقط الإعجام، ووقع الناشئون والكبار أحيانًا في لَبْسٍ مما يقرءون، ولكن الله ﷻ هدى الخليل بن أحمد إلى أن يميز بين الشكل والإعجام، فجعل النقط للإعجام وحده، أما الشكل فوضع له ما نعرفه الآن من علامات الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة للمضعف، والشرطتين للتنوين، وجعل للهمزة رأس عين (ء)، فكان مجموع ما تم له وضعه ثماني علامات هي: الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والهمزة والصلة حرف (صـ) والمدة، وترك كتابًا يتضمن ذلك، فلم يزد أحد عما فعل.

ومع هذا العلم الرفيع، والاختراع المدهش، فإن الخليل كان متواضعًا كل التواضع، لم يفخر على أحد بما أحدث، مع أن من يقرءون كتبه يفخرون تائهين؛ لأنهم استطاعوا قراءتها فقط، وعدوا أنفسهم بها علماءً كبارًا يشار إليهم بالبنان، وقد تباعد عن الرؤساء، فلم يتصل بخليفة أو وزير؛ لأنه جعل العلم وجهته، فقاسى من مشقات

العيش ما كان يجب أن يمهد له تلقائيًا ليفرغ إلى مجهوده الضخم العملاق، وقد عاش حتى رأى تلاميذه في حياته يتكسبون بعلمه، ويعلمون الناس بما وعوا عنه درسًا وتأليفًا، فتساق لهم الهدايا، وتفرق عليهم البدر، وتكال إليهم المناصب، وهو مقيم بكوخ صغير من أكواخ البصرة، فإذا غلبته نفسه، وللنفس غلبة في أحيان الضيق، تعزى بما يحفظ من روائع الحكم قرآنًا وحديثًا وشعرًا، وأخذ ينشد قول الأخطل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ∴ ذخرًا يكون كصالح الأعمال

وقد أدرك حالته التقشفية بعض الولاة من أبناء المهلب بن أبى صفرة، فأجرى له راتبًا، وكان واليًا على فارس والأهواز، وأرسل إليه يستدعيه، فأحس الخليل أنه منصرف لا محالة عما هو بصدده من معالجة شئون العلم نحوًا وعروضًا ولغة وموسيقى، فرد عليه بقوله:

أبلغ سليمان أنى عنه في سعة ∴ وفى غنى غير أنى لست ذا مال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ∴ ولا يزيدك فيه حول محتال

وكانت وفاة الخليل فجأة بمسجد البصرة! هذا المسجد الذى شهد فتوحه العلمية قد قدر عليه أن يشهد مصرعه، بل مصرع أنبغ من شاهد من العلماء؛ إذ يذكر المؤرخون أن الخليل بن أحمد دخل

المسجد وهو يفكر في اختراع نوع من الحساب تذهب به الجارية إلى التاجر فلا يظلمها، فصدمته سارية (عمود) من سواري المسجد، فشجت رأسه وسقط مغشيًا عليه، فعجلت هذه الصدمة القاسية بوفاته -رحمه الله- وإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

المسجد الأموي بدمشق

يكاد هذا المسجد يكون أجمل مساجد الدنيا قاطبة، فقد أحضر له منشئه «الوليد بن عبد الملك» آلاف الصناع ومهرة المهندسين من بلاد الروم، وبذل في إنشائه من المال كل عزيز يحرص عليه، وقد زاره الرحالة على تعاقب العصور، فكتبوا عنه ما بهر وأدهش، ومنهم من زار مساجد العالم شرقًا وغربًا، ورأى اختلاف نماذج العمارة باختلاف المدن والأذواق، وكلهم أجمع على تفضيل المسجد الأموي بدمشق.

وقد ذكر ابن جبير من عجائبه باب الساعات! حيث خصصت غرفة بأعلى بعض الجدران لمعرفة الوقت، ولتحديد ميعاد الصلاة ظهرًا وعصرًا ومغربًا وعشاء وفجرًا، وكانت هذه الغرفة النادرة ذات أبواب صغار على عدد ساعات النهار، وقد دبرت تدبيرًا هندسيًا، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من فمي بازين مصورين قائمين على طاستين من نحاس، ولا يزال البازان يحكمان عملهما بدقة لتسقط الصنجتان في ميعادهما المحدد كل ساعة، وبسقوط كل صنجة يغلق الباب، فإذا أغلقت الأبواب جميعها فقد انتهت ساعات النهار، ومن أراد أن يعرف في أي وقت هو أثناء اليوم فعليه أن يعدد الأبواب المغلقة والأبواب المفتوحة، ليعرف كم مر من الساعات، وكم بقى،

وفي هـذا الاخـتراع النـادر بالنسـبة لزمنـه المتقـدم مـا فيـه مـن الحنكـة والإبداع.

ولا يكاد ينقطع التدريس ساعة واحدة من ساعات المسجد إلا لتلاوة القرآن الكريم، أو سماع الحديث الشريف من قارئ مجيد! وقد خصصت بعض الأماكن لتلاوة الكتاب ولتدريس علوم الشريعة واللسان.

يقول ابن جبير في رحلته[1] بتصرف يسير:

«وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح؛ لقراءة سبع من القرآن قراءة دائمة، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية، تقرأ فيها سورة الكوثر وما بعدها إلى الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن، وللمجتمعين على ذلك إجراء يومي، يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان، وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم، فلا تخلو القراءة منه صباحًا ولا مساءً، وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠- طبعة دار مصر.



واسعة، وأغرب ما يحدَّث به أن سارية من سواريه وهى بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس، أبصرنا بهما فقهيًا من أهل أشبيلية يعرف بالمرادي، وعند فراغ المجتمع من القراءة صباحًا يستند كل إنسان منهم إلى سارية، ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن، وللصبيان أيضًا على قراءتهم جراية معلومة، وأهل اليسار من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها، وسائرهم يأخذها، وهذا من المفاخر الإسلامية».

هذا ما قاله ابن جبير، وقد ذكره ابن بطوطة أيضًا في رحلته وتحدث عن الحركة التعليمية بالمسجد حديثًا ينبئ عن اهتمام والتفات، وكان مما قاله قوله[1]:

«ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراس مرتفعة، وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحًا ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى، وإنما يقرءون القرآن تلقينا، ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٧٦- طبعة وزارة المعارف.

بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب، وبذلك يجود خطه؛ إذ إن معلم الخط لا يعلم غيره»..

«وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه، يقبلون على الصلاة والقراءة والذكر ولا يفترون عن ذلك، ويتوضئون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرعية، وأهل البلد يعينوهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئًا من ذلك»[1].

أما المدارس الدينية حول المسجد الأموي فكثيرة، وهى فرع منه تنسب إليه، ويؤمها مجاوروه، وبها مدارس خاصة بالحديث، ومدارس خاصة بتلاوة القرآن، وبها مدارس تشترك في جميع فنون العربية، وكان نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي ومن وليه من بنى أيوب، يهتمون كثيرًا بهذه المدارس ويعينون طلابها على التفرغ للعلم بما يبذلون من رواتب محددة، وفي الجزء السادس من كتاب «خطط الشام» للأستاذ محمد كرد على إحصاء دقيق لهذه المدارس شمل عدة صفحات! وهذه المدارس تتطلب باحثًا متخصصًا يؤرخ لها تأريخًا دقيقًا يكشف عن أساتذتها وطلابها وموادها العلمية، ومصادر أجورها؛ إذ إنها حلقة من سلسلة ذهبية تحتاج إلى صقل وجلاء، ولا نعرف

(١) المهذب، ص ٧٤.

عالمًا جهيرًا من علماء العصر الأيوبي والعصر المملوكي في مصر لم يزر المسجد الأموي ولم يقرأ في مدارسه؛ لأن الرحلة كانت دائمة بين علماء القطرين، وكان القضاء بأمر السلطان المملوكي، فهو يبعث إلى دمشق من يعينه ويختاره، كما ينتدب من علماء الشام من يقوم بالقضاء أو الخطابة في الديار المصرية وقد أسفر هذا التعاون العلمي عن نهضة خصبة حية إذ اتسمت في أكثرها الغالب بالجمع والاستقصاء فحسبها أنها حفظت مسائل العلم من الضياع.

وللإمام أبى حامد الغزالي قصة مشتهرة بالمسجد الأموي، إذ إنه في رحلته التي نهض بها إلى دمشق تزيا بزي الفقراء، واتخذ سمة الدراويش من المنقطعين للعبادة، على أن شغفه بالمذاكرة كان يدفعه إلى حضور الحلقات مستمعًا لا مُنَاقشًا، وفي مظهره الخارجي ما يدل على أنه ليس على شيء من العلم، وحسبه أن يستمع، وقد يكون المدرس من تلاميذ تلاميذه، ولكنه في اعتزاله المتصوف قد آثر التخفي والانزواء.

وصادف أن جاء سائل عن مسألة من مسائل الميراث، فأخذ يعرضها على شيوخ الحلقات شيخًا وراء شيخ، وكلهم يعتذر، ويحيل على سواه، ويطلب من السائل أن يرجع إليه بالإجابة إذا اهتدى إليها، حتى يئس الطالب وهم بالخروج، فلحقه أبو حامد وطلب منه أن يقف

ليعلم الإجابة، فدهش الرجل، وكاد يستهزئ بالغزالي، ولكنه ابتسم وقال: خذ الإجابة واكتبها بدليلها ثم اعرضها على الفقهاء! واستجاب صاحبنا، فكتب ما أملاه الغزالي ومضى به إلى شيوخ الحلقة، فتجمعوا مدهوشين، وأخذوا يتساءلون عن هذا الإمام الذى يجاورهم ولا يدرون! وهرعوا إليه، فعرفوا أنه حجة الإسلام، فأكبوا على يده مقبلين، ورجوه أن يجتمع الأساتذة وحدهم في المدرسة المجاورة ليقرأ لهم درسًا يتباهون به! ولكن الإمام رحل من الغد إلى بيت المقدس! وكيف ينتظر، وقد هرب من الجاه، فإذا به يهم بالرجوع؟!

وفى المسجد قرأ ابن مالك صاحب الألفية حديث رسول الله ﷺ، وكتب مؤلفه عن مشكل أحاديث الجامع الصحيح، ولذلك حديث تجده الآن.

ابن مالك في مسجد دمشق

من منا لا يذكر عالم النحاة ابن مالك؟ لقد رزقه الله حظوة مثمرة في التأليف؛ إذ ذاعت مصنفاته في الشرق والغرب، وتعددت آراؤه في المعضلات، ودار حولها الشرح والتأويل والتحليل، وقد درسنا في الأزهر على عهد الطلب شروح ابن عقيل وابن هشام والأشموني على ألفيته مصحوبة بحواشي الخضري والأزهري والصبان، فأخذ منا الرجل في ميدان النحو جهدًا لم ينله سواه، ثم تابعنا بعد الدراسة مؤلفاته الأخرى، فعرفنا أن ابن مالك- رحمه الله- علم الأعلام في بابه، وقد قيل: إنه قرن بسيبويه في مقامه العلمي، ولسنا بصدد الموازنة العلمية بين إمام وإمام، لكننا ننقل ذلك لنصور مكانة الرجل في نفوس الدارسين.

وإذا كان من القراء غير المتخصصين من لا يعرف تاريخ هذا العلامة الضليع، فإننا نوجز الحديث عنه حين نذكر أنه ولد في مدينة جيان بالأندلس سنة ستمائة للهجرة، ودرس علومه الأولية، حيث ولد، فألم بالنحو والقراءة والفقه، ثم توجه إلى الشرق فكانت دمشق وجهته الأولى، بها لقى أعلام العصر وتوسع في الرحلة، فزار مدينة حلب، وحظى باستماع إلى أكابر رجال الشام من أمثال ابن الحاجب والسخاوى الأكبر وابن يعيش، هذا إلى تقوى وزهد وكثرة عبادة، حتى

قال مؤرخوه: إنه ما كان يرى إلا مصليًا أو قارئًا أو مصنفًا، وإذا كان النحو مجال شهرته بين الناس، فإن الحديث النبوي ومتن اللغة وعلم القراءات كانت تحظى بتفوقه البارع في ميادينها، وقد ألف فيها مؤلفات طيبة نرجع إليها الآن في ثقة واطمئنان.

هذا مما يؤكد أن علوم الشريعة وعلوم العربية تتلاقى وتترادف وأن أئمة السالفين قد عرف من بينهم من يتكلم في التشريع وفي اللغة وكأنهما فن واحد لا يختلف، وقد رأينا الآن في هذا العصر من تضلع في العلوم اللسانية تضلعه في العلوم الشرعية، حتى لتحار أين تذهب به مرجحا كفة على كفة؟ ومن هؤلاء أستاذنا الأكبر محمد الخضر حسين؛ إذ كان يناقش معضلات اللغة والنحو والأدب، كما يناقش معضلات الفقه والأصول والتوحيد بشموخ يرتفع عاليا في الميادين دون أن تقصر مئذنة عن مئذنة في سموقها الناهض وارتفاعها البعيد.

قال الشهاب محمود: جلس ابن مالك يومًا وذكر ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة غيبًا، من صدره دون رجوع إلى أوراق، وإذا كانت أجزاء المحكم كثيرة كأجزاء التهذيب، فإن الذاكر يذكر غيبًا «دون الرجوع إلى أوراق مدونة» ما بينهما من الاختلاف في تفسير الألفاظ اللغوية، ولابد أنه درس الكتابين دراسة حافظة على سمعتهما المحيطة، وهذا عسير كما يقول الشهاب، وإذا كان ذلك بعض تضلعه في اللغة وحدها فكيف بسائر العلوم!

أما النحو فيكفى للدلالة على بعد همته في تحصيله أنه كان على تواضعه الجم يستصغر الزمخشري في مضمار النحو، إذ يقول عن تلميذه ابن الحاجب: لقد أخذ النحو عن الزمخشري صاحب المفصل وهو نحوى صغير! وهذا تحديد كاشف لا تجريح منتقص؛ لأن الزمخشري وقد كان إمامًا في اللغة والبلاغة والتفسير لم يكن لدى أمثال ابن مالك من أئمة النحو، وتلميذه حينئذ يدور في فلكه وأحرى به أن يطير إلى سواه.

وإذا اشتهرت من مؤلفاته «الألفية»، فقد تلاها في الشهرة كتاب «التسهيل» وله عدة شروح من بينها، شرح المصنف نفسه، وقد أكمله ولده بدر الدين وله شروح أخرى لمسائل النحو، وكتب في اللغة والحديث، ونَظَمَ في الصرف والقراءات، وكتب الفهارس تسجل آثار الرجل بما يقنع الباحث، ولسنا بصدد التعريف بها، ولكننا نشير إليها لتدل على إمامته الجهيرة، وقد ظل يدرس مؤلفاته لأعيان العلماء من رجال عصره؛ إذ كانوا مع شهرتهم الذائعة ومؤلفاتهم البارعة تلاميذ في حضرته يؤمون حلقته في المسجد الأموي بدمشق، ليقطفوا ثمار فضله، ومنهم ولده بدر الدين، الذى كان يخالفه في حلقة الدرس، وفيما كتب من مؤلفاته إذا عنّ له ما يتسع للمخالفة من المسائل، فلا ترى من والده إلا كل تشجيع، وهذا ديدن الأستاذ المثالي الذى يجعل صدره فسيح الجنبات لمخالفيه، وإن كانوا دونه في النظر والتعليل! كما أن من

تلاميذه الكبار بدر الدين بن جماعة قاضي القضاة، وبهاء الدين بن النحاس مفسر عصره، وأبا زكريا النووي الفقيه الكبير، وأبا الحسن اليونيني المحدث الشهير، ولديه نقف، فما كتبنا هذا الفصل إلا لنصور جميل الصحبة ونبيل العلاقة بين التلميذ والأستاذ، وكيف ضرب كلاهما المثل العالي للدارسين من رجال العلم جيلًا بعد جيل.

كان أبو الحسن اليونيني نجلًا لشيخ الإسلام الحافظ المحدث تقى الدين محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى اليونيني، فهو إذن من بيت علم وفضل، أبوه شيخ العلماء وحافظ المحدثين، وقد قيل في تاريخه عنه: «لم ير في زمانه مثله، وكان الملك الناصر يهرع إلى زيارته ويتأدب معه، وله اختصاص جاد بالحديث النبوي، يحفظ متونه وأسانيده ويناقش علله ومعاضله، وقد نشأ ولده أبو الحسن على بن محمد اليونيني على نهجه، فكان اتجاهه الأول إلى الحديث، وقد نقل ابن العماد في شذرات الذهب أنه صار شيخًا جليلاً حسن الوجه، بهى المنظر، له سمت حسن، وعليه سكينة، ولديه فضل كبير، فصيح العبارة، حسن الكلام، له قبول من الناس، وكان ممن سعدوا بدروس ابن مالك، أخذ عنه النحو واللغة، وعدد من كبار تلاميذه، ثم تخصص في الحديث، بعد أن ورد حياض أستاذه، وقطف من جناه.

وكان ابن مالك ﷺ من علماء العربية الذين يرون صحة الاستشهاد

بالحديث النبوي لغويًا ونحويًا، على حين ذهبت الكثرة من هؤلاء الأفاضل إلى أن الحديث النبوي قد روي بالمعنى فلا يصح الاستشهاد به؛ إذ لا نقطع تمام القطع أن أفصح البلغاء عليه السلام قد نطق بألفاظه، ولهم في هذا المجال صيال ونقاش، أذكر أنى قد بسطت الحديث عنه في بعض ما كَتَبْتُ من قبل[1]، وقد انتهيت إلى ما رأى ابن مالك وأضرابه من صحة الاستشهاد بالحديث النبوي لغويًا ونحويًا، وأظهر ما يقال في تأييد ذلك: إن صح أن الراوي قد تصرف في اللفظ مكتفيًا بالمعنى، فهو صحابي أو تابعي عربي فصيح ممن يستشهد بقوله، وإني لأعجب كل العجب كيف نستشهد بكلمة نثرية عابرة يقولها أعرابي مجهول مثل: «نعم السير على بئس العير» ثم لا يجوز أن نستدل بقول أفصح البلغاء: «من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل»[2]، أو نسمع كلمة عابرة مثل: «أكلوني البراغيث»، فنجعلها لغة معترفا بها، ثم لا نستدل بمثل قول رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»[3]؟!

مهما يكن من شيء لقد هدى الله قلب الإمام محمد بن مالك إلى

(١) يرجع إلى «البيان النبوي» للمؤلف.
(٢) مسند أحمد ٥/ ١٥، سنن أبى داود: ٣٥٤.
(٣) صحيح البخاري ١/ ١٤٥.

صحة الاستشهاد لغويًا ونحويًا بما روى عن رسول الله، وقد أخذ يتتبع كتب السنة المطهرة ليجعلها مجال نظره الاستدلالي، ولكن حرمة العلم وجلال الالتزام وقوة التبعة، كل ذلك يحتم عليه أن يقرأ الحديث النبوي قراءة صحيحة كما تداولها أئمة الحديث راويًا عن راوٍ، فلا بد ألا يكتفى بالقراءة الغيبية دون الوقوف على النطق المتسلسل الذى التزم به الرواة منذ كتبت مجموعات الصحاح! والرجل محدث كبير، يحفظ الحديث، وقد كان بعض مواده الدراسية دون نزاع، ومثله يكتفى بما حصل وألم، فهو إمام العربية في عصره! لكن أنى يطمئن إلى جلال علمه، وقوة تدقيقه، وقد نسى بعض الضبط الحقيقي لبعض الألفاظ! لا بد أن يجلس مجلس المستمع المستفيد من جديد، ولابد أن يتلقى صحيح البخاري سماعًا من راوية إمام موثوق بسماعه.

وقد فكر وقدر فرأى أن أكبر محدثي بلدته هو تلميذه أبو الحسن على بن محمد اليونيني الذى يقول عنه ابن حجر– فيما بعد–: إنه كان شيخ بلاده والرحلة إليه، فلا بد إذن من أن يجلس منه مجلس المستفيد وهو تلميذه الذى يصغر عنه بأكثر من عشرين عامًا؛ إذ ولد ابن مالك سنة ٦٠٠هـ، وولد اليونيني سنة ٦٢١هـ، ولابد أن يكون المجلس ذائعًا مشتهرًا يحضره طلبة العلم من زملاء اليونيني، وتلاميذ ابن مالك، ليعم الفضل الجميع، وهكذا أعلن الإمام العلامة النبيل محمد بن مالك علم

الأعلام في عصره أنه سيجلس مستمعًا إلى الرواية الصحيحة للبخاري، حيث يقرؤها محدث العصر وحافظه الإمام أبو الحسن اليونيني، وسيكون هذا الاستماع عامًا جامعًا في أعظم مساجد دمشق.

وقد جاءت الأنباء إلى التلميذ، فهرع إلى أستاذه يعلن أنه يفوقه تحديثا، كما يفوقه لغة ونحوا، وأنه قد يستطيع أن يجلس هذا المجلس من شيخه الكبير، ومن تلاميذه الذين هم في الوقت نفسه زملاء أبى الحسن، ولكن ابن مالك أصر وتشدد، وحدد اليوم الذى تبدأ فيه القراءة، ودعا من يتوسم فيه العلم إلى الحضور، فلم يسع اليونيني إلا أن يشترط على أستاذه أن يتفضل بالسماع، فإذا عنّ مشكل لغوى أو معضل نحوى سكت التلميذ ليعلن الأستاذ رأيه في هذا المشكل، ثم يقوم المستمعون بتدوين ما يقول إمام النحو لتحتفظ الأجيال بخبرة علمية نحوية تبحث عن مشكلات الجامع الحديث.

وقد تم للتلميذ ما أراد، فقام هو بالقراءة المضبوطة كما جاءت بها الرواية، وقام الإمام بشرح المشكل وإيضاح الغامض، وقام التلاميذ بالتدوين في أكثر من سبعين مجلسًا تمت بها رواية البخاري، وتم بها في الوقت نفسه تأليف «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك»، وقد كان يزيد عليه ما لا يتيسر له بالمجلس من مسائل تحتاج إلى مراجعة حتى استوى نسيجًا وحده في بابه، وإليه

المرجـــع الآن فيمـــا يـــدق مـــن وجـــوه التركيـــب والضـــبط لـــدى المتخصصين.

وحين جاءت الجلسة الأخيرة التي فرغ فيها اليونيني من تلاوته الضابطة رأى الحاضرون أن يقوم الأستاذ والتلميذ معا بكتابة وثيقتين تسجلان هذا الحدث الرائع لتلحقا بالنسخة اليونينية المضبوطة، فتكونا تثبيتًا لها في نفوس الأجيال، وتخليدًا لمجالس نادرة أمينة، تصلح أن تكون موضع الحذوة ومناط الاقتداء، فقام الرجلان بكتابة ما يرجوان به الخير مما ننقله الآن فرحين مغتبطين.

كتب ابن مالك بخطه الواضح في ظاهر الورقة الأخيرة من النسخة اليونينية يقول: «سمعت هذا المجلد من صحيح البخاري رضي الله عنه بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتفنن شرف الدين أبى الحسن على بن محمد بن أحمد اليونيني رضي الله عنه، وعن سلفه- وكان السماع يحضره جماعة من الفضلاء، ناظرين في نسخ معتمد عليها كلما مر عليهم لفظ ذو إشكال بينت فيه وجه الصواب وضبطته على ما اقتضاه علمي بالعربية، وما افتقر إلى بسط عبارة وإقامة دلالة، أخرت أمره إلى جزء أستوفي فيه الكلام بما يحتاج إليه من نظير وشاهد ليكون الانتفاع به عامًا، والبيان تامًا إن شاء الله، كتبه محمد بن عبد الله بن مالك حامدًا الله تعالى. ا.هـ.

ثـم كتـب الحـافظ اليـونيني مـا نصـه: «بلغـت مقابلـةً وتصـحيحًا وسـماعًا بـين يـدى شـيخنا شـيخ الإسـلام، حجـة العـرب، مالـك أزمـة الأدب، الإمام العلامة أبى عبد الله ابن مالك الطائي الجيـاني، أمـد الله- تعالى- في عمره، في المجلس الحـادي والسبعين وهـو يراعـي قـراءتي، ويلاحظ نطقي فيما اختاره ورجحه وأمر بإصلاحه أصلحته وصححت عليه، وما ذكر أنه لا يجوز فيه إلا إعرابان أو ثلاثة أعلمت ذلك على ما أمر ورجح، وأنا أقابل بأصل الحافظ أبى بكر، والحافظ أبى محمد الأصيلي، والحافظ أبى القاسم الدمشقي ما خلا الجزء الثالث عشر، والثالث والثلاثين، فإنهما معدودان وبأصل مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة الحافظ أبى منصور السمعاني وغيره من الحفاظ، وعلامة ما وافقت أباذر «هـ» والأصيلي «ص» والدمشقي «ش» وأبا الوقت «ط» فيعلم ذلك، كتبه على بن محمد الهاشمي اليونيني عفا الله عنه».

هاتان الوثيقتان حجة واضحة تصلح منارًا ساطعًا في باب العلم، ونبراسًا هاديًا في دنيا الخلق، وبمثلهما فليعتبر ذوو التشاحن والتحاسد من أرباب المنافسة وعشاق الشموخ ما بين أساتذة وتلاميذ وشيوخ وشبان.

في مسجد ابن طولون

جلس أبو محمد عبد الله بن محمد البلوى في مسجد أحمد بن طولون متفردًا حزينًا كمن نزل به همٌّ لا يطيق دفعه، ورآه أحد تلاميذه الأوفياء على مثل ما هو فيه من الوجد، فتقدم إليه متسائلاً عما نزل به؛ إذ عهده بأستاذه أن يكون مستبشر الوجه، ضاحك العينين، فقال البلوى في حزن: لقد منعت اليوم من التدريس لكم في هذا المسجد، إذ جاءني من يقول: إنني أشرح في درس العقيدة كلام الخوارج والشيعة والمعتزلة ولا بد أن يكون الدرس الديني منسجمًا مع ما يراه علماء مصر من اتباع مذهب السنة، وقد أقر القاضي ما رأوه فما عليّ إلا أن أنسحب من مجلس شرفني الله به، وذلك كثير.

فسكت التلميذ مفكرًا، ثم قال لأستاذه: دع درس العقيدة يا سيدى واتجه إلى سواه، لا أقول إلى دروس التفسير والحديث والفقه، فقد تفضى إلى مثل ما يعترض عليه، ولكن إلى درس التاريخ وأنت عالم بأحوال الدول وسير الرؤساء والملوك، وابتعد عن الفترة التي جد فيها الخلاف بين الشيعة والأموية وستجد المجال رحبًا فسيحًا.

فائتلق وجه البلوي، وقال لتلميذه: شكر الله لك ما اقترحت، وأذكر أنى منذ سنوات أفكر في صاحب هذا المسجد الذى جعله مناظرًا لمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، وأتمنى أن أعيد سيرته بعد سبعين

عامًا من وفاته، وقد انقضت الطولونية، وجاءت الإخشيدية، فلن أُرمى بالزلف والرياء لأن هواي مع الرجل.

قال التلميذ: وزملائي يعرفون عن أحمد بن طولون الشيء الكثير، وسيغتبطون بما ستقول، فرد البلوي: اقترح أن يكتب كل تلميذ نبذة بما يعرف، فيكون الدرس الأول مرة مشتركًا بين الأستاذ والتلاميذ على أن أفتتح القول ببعض ما أعلم، وأوالي قراءة ما تكتبون معقبا عليه إن وجد موضع للتعقيب، وعليك أن تذهب إلى إخوانك فتحدثهم عن اقتراحك على أن نبدأ الدرس بعد خمسة أيام عقب صلاة الجمعة فتغمرنا روح العبادة من صلاة وخطبة ودعاء، وبالله التوفيق.

حان الموعد المرتقب، وكان الطلاب على شوق لمجلس الأستاذ بعد أن يئسوا من معاودته حين أتاهم ما أمر به من عدم الخوض في العقائد والاتجاهات! وقد تحلقوا حول البلوي ليبدأ حديثه شاكرًا لهم إسهامهم في هذا الدرس الجديد، وقد رأى أن يتحفهم بحادثتين تتعلقان بابن طولون، إحداهما في مبدأ حياته السياسية، والأخرى في ختام عمره حين أدركه المغيب، وفي ما بين البدء والخاتمة متسع فسيح لقراءة ما أعد التلاميذ.

أما الطرفة الأولى فموقف أحمد حين كان بواسط واليًا عليها؛ إذ خلع الخليفة المستعين بالله، وخلفه المعتز بالله، وكان من التقليد

الشنيع لدى حاشية الخلافة، أن يُقضى على المخلوع كيلا تنازعه نفسه الثورة على الخليفة القائم فيجمع الحشود لثورة لا يريدونها، وقد حضر المستعين منفيًا إلى واسط فلقي من أحمد بن طولون كل تجلة واحترام، ووفاه حقه من التعظيم، ثم فوجئ بكتاب من والدة المعتز، وكانت تخشى الثورة على ولدها.. تقول فيه على لسان الخليفة: إذا قرأت كتابي هذا فجئني برأس المستعين، وقد قلدتك واسط، فلما قرأ ابن طولون الكتاب ارتاع ارتياعًا شديدًا وكتب إليها يقول: والله لا يراني الله ﷻ أقتل خليفة له في رقبتي بيعة أبدًا، وله أيمان مغلظة يحاسبني الله على الحنث بها».

ولكن العزم على اغتيال المستعين كان مقررًا، فجاء الأمر بتنحية ابن طولون عن واسط ليكون واليًا على «سر من رأى» فحمد الله أن نجا من إثم سيحيق به، وما كاد يبرح المدينة حتى قتل المستعين على يد من يسمى سعيد الحاجب، وكانت مأساة!

هذه مكرمة لابن طولون لا ينازعه أحد في سموها؛ إذ عرَّض نفسه لغضب الخلافة غير مبال بالعاقبة. أما المسألة الثانية فهي أنه في مرضه الأخير دعا أخص خاصته، وطلب منه أن يأمر الناس بالدعاء له في موقفه المتأزم، فشاع هذا الأمر، وخرج المسلمون بالمصاحف إلى سفح الجبل، وتضرعوا إلى الله في أمره بنيات خالصة، وعجوا بالدعاء مبتهلين، فكان لهم مشهد عظيم كيوم عرفات.

ولما رأى اليهود والنصارى ما فعل المسلمون، خرج الفريقان ومع اليهود التوراة، ومع النصارى الإنجيل، وفي أيدي شمامستهم البخور الذى يتبركون به، واجتمعت الجماعة كلها في سفح الجبل واعتزل كل فريق منهم على حده يدعون الله، ويتضرعون إليه أن يمن على أحمد بالعافية، وارتفعت لهم ضجة عظيمة هائلة حتى سمعها أحمد بن طولون في قصره، فجعل يبكى، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

سمع التلاميذ هاتين الطرفتين فكتبوهما، وقالوا لم نكن نعرف ذلك من قبل، ثم تقدم كل تلميذ بورقة أو ورقتين كتب بهما ما يعلمه من أخبار ابن طولون، وأخذ الأستاذ يطالع ما كتبه أبناؤه مغتبطًا، ثم قال في محبة، ما كدتم تبقون شيئًا لأستاذكم، وسأرتب الأوراق أبجديًا، وأطالعها عليكم، ففيها النفع الجزيل إن شاء الله.

الورقة الأولى:

كانت الورقة الأولى تحكى قصة عبد الرحمن العمري إذ قام بالثورة على ابن طولون وهيأ جيشًا لمحاربته بالصعيد وطالت الحرب دون جدوى، وبعد شهور جاء إليه فتيان من أتباع العمري، ومعهما سقطٌ يحمل رأسه مقتولاً وقد أملا بذلك أن يحصلا على مركز كبير من دولة ابن طولون، أما ابن طولون فقد أحضر من رجاله من يعرف العمري معرفة شخصية ليشهد عن حقيقة الرأس، أهو له أم لغيره فتأكد

أن القتيل هو العمري، وعند ذلك سأل ابن طولون الشابين، هل آذاكما العمري في شيء؟ وقد كنتما من كبار رجاله، فقالا: لا، فقال، هل غير حالكما معه فخفتما على أنفسكما؟ فقالا: لا، فقال: ولماذا أقدمتا على قتله ولم يفعل ما يوجب ذلك؟ فقالا: نبتغى الحظوة لك ونكون من كبار أعوانك، فأنت ملك مصر، فقال غاضبًا: يجب أن يقتص منكما؛ لأن الذى يغدر بصاحبه دون جرم أسلفه سيغدر بغيره إذا استطاع ذلك، وأمر بضرب عنقيهما، وصلبت جثتاهما، ثم أمر برأس العمرى، فغُسل وطُيب، وشيع في مشهد عظيم.

الورقة الثانية:

قالت نَعْت أم ولد أحمد بن طولون: كان عندي جوار من الحسناوات لم أر أجمل منهن فشوقته إليهن، ووصفتهن له وصفا بديعا، فقال: أعرضيهن علىّ، فجعل ينظر إلى كل واحدة، ويقول حسنة، حسنة جدًا، جميلة جدًا، ثم جعل بعد الانتهاء يبعث بكل واحدة إلى قائد من قواده، هدية له، قالت نعت: فاغتظت غيظًا شديدًا، وقلت له: أنا أقدم إليك هؤلاء، وهن على ما ترى من الروعة والجمال، فتذهب بهن إلى القواد، فتبسم وقال لى: أراك مغيظة مما فعلت، فقلت: نعم، قال: فاسمعي إن رغبتي الآن ليست في الحسان، وخلوات النساء، إنما رغبتي في حراسة مملكتي، والسهر على دولتي وهؤلاء القواد هم

عـدتي، وأسـباب نجـاحي، وينتسـبون إلـيّ انتسـاب الأبنـاء إلـى الآبـاء، وشـهواتهم مقصـورة علـى الأكـل والشـرب والنسـاء، فأنـا أوثـرهم بمـا يحبـون ويشـتهون، كمـا يـؤثرونني بأنفسـهم في أشـد الأوقـات فيبـذلون أنفسهم فداءً لي ثم قال: اعلمي أنني أجد في فهم الرجال، واستعدادهم الشخصي لقبول الأعباء مالا أجده في ملذات الطعام والنساء.

الورقة الثالثة:

نظر أحمد بن طولون من قصره إلـى مشـهد جنـازة تمـر أمامـه فـأمر بإيقاف الجنازة، وإحضار الميت فلما رآه، قال هـذا جاسـوس ويريـد أن يهرب من الحرس إلى الخارج دون أن يشك أحـد فيـه، واختـار الهـرب عن طريـق الجنـازة التـي يكـون هـو الميـت بهـا، فقـال لـه أصـحابه: أيهـا الأمير، وكيف عرفت ذلك؟ قال: لم أسمع من الصارخات الصـائحات ما يدل على حسرة وألم، ولم أر في المشيعين من يظهر الأسف، فأردت أن أتحقق، ثم لما كشفت عنه وجـدت رجلـه قائمـة، والميـت تسـترخي رجله، فعرفت أنه حي يتصنع الموت.

الورقة الرابعة:

قال بعض خدمه: ركب مولاي في يوم بارد، فرأى بشط النيل صيادًا عليـه ثـوب لا يواريـه، ومعـه صـبى في مثـل حالـه، وقـد ألقـى شـبكته في البحر، ومكث ينتظر فرقَّ لحاله، وقال لى: ادفع لهـذا المسـكين ثلاثـين

دينارًا، فتأخرت حتى دفعتها إليه، وفي رجوعه نظر إلى الصياد فوجده ميتا، وابنه يبكى ويصيح، فظن مولاي أن بعض الأشرار قتله ليأخذ النقود، فسأل ولده فقال: إن أبى لم يزل يقبل الدنانير حتى سقط ميتًا، ففتش الميت فوجد الدنانير في جيبه لم تنقص واحدًا، فأراد إعطاء المال للصبى فأبى، وقال: هذه قتلت أبى، فماذا أصنع بها؟ فقال لخادمه: المال يحتاج إلى تدبير وهذا الصياد لم يحمل دينارًا في جيبه فحين وجد ثلاثين دينارًا، لم يتمالك شعوره، وفاضت روحه، ثم قال: ادع القاضي، فجاء، فقال له: اكتب للصبى قدرًا كافيًا من المال يجرى عليه كل شهر كيلا يفقد نفسه إذا وجد في يده المال كله مرة واحدة، وفرح الصبى حين علم أنه سيقبض أجرًا معلومًا كل شهر وسيكتفى به هو وإخوته وأمه.

الورقة الخامسة:

كان من عادة ابن طولون أن يُحضر الفقراء في داره، ويقيم المآدب الخاصة بأكرم المطاعم، وينظر إليهم من الشرفة العالية، وهم يأكلون فيرتاح كثيرًا، وقد لحظ أن شيخًا كبيرًا قد جمع بعض الطعام حتى انتهى الناس من الأكل، ووضعه في لفافة صغيرة، ونهض يسير، فاعترضه بعض الحجاب، وجعل يغمزه حتى سقطت اللفافة وتبعثر ما بها، ونظر الشيخ حائرا، فنهض ابن طولون من مكانه وسأل الحاجب،

لماذا صنعت هذا بالشيخ المسكين؟ فارتبك، وقال: أردت مداعبته، فقسا عليه في الكلام وأمره أن يعد مائدة حافلة بأشهى المأكولات، ويحملها على رأسه ويذهب بها مع الشيخ المسكين إلى منزله، ثم دعا الشيخ وقال له: كم لك من العيال؟ قال: خمس بنات بلغن سن الزواج، وثلاثة أولاد وأم، فقال: ولماذا لم يتزوجن؟ فقال الشيخ: يا مولاي أنا فقير، والناس لا يصاهرون إلا الأغنياء، فأمر له بمائة دينار يشترى بها بضاعة يتاجر فيها قدر طاقته، ويعاونه أولاده، ثم أمر خازن المال أن يجهز بنات الرجل الخمس جهازًا يصلح للعروس الكريمة مع ما ينبغي لهن من الثياب والحلى، ومنح كل غلام خمسين دينارًا تكون رأس مال خاصًا به، ورجع الشيخ إلى منزله وهو لا يصدق أن ليلة القدر قد فتحت له بما حباه ابن طولون من كرم.

الورقة السادسة:

جمع ابن طولون رجال الشرطة، وقال لهم: إني أمر ليلاً بمنازل الأغنياء، ثم أنتقل إلى منازل الفقراء فأجد الشوارع التي يسكنها الموسرون حافلة بالزمر والطرب، وأشم رائحة الخمور، ولولا أنني أوثر السلام لدخلت عليهم بيوتهم وفعلت بهم الأفاعيل، ولكنى أقول: ما داموا مستترين في المنازل فلا بأس.

أما منازل الفقراء فلا أمر بشارع من شوارعهم إلا سمعت كتاب الله

يتلى، والناس مجتمعون في المنزل يستمعون كما أنى أحيانًا أستمع إلى واعظ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإذا أذن الفجر خرجوا جميعًا إلى الصلاة، وأنا معهم دون أن يشعروا بي، أما الأغنياء فلا يخرج أحد منهم إلى بيت الله، ولذلك آمركم إذا رأيتم في أحياء الأغنياء من يحمل شراب خمر أو أداة لهو، فاعتقلوه وكافئوه أسوأ المكافأة، وإذا رأيتهم في أحياء الفقراء رجلًا مسالمًا يذهب إلى بيت جاره فاتركوه؛ فإنه يذهب إلى استماع القرآن والتأدب بالوعظ الحكيم فاستجاب رجال الشرطة لما أمر وطبقوه منذ قال دون تأخير.

الورقة السابعة:

قال أحمد بن طولون لأحد خاصته، اختر لي شابًا صادقًا أمينًا، لعمل خاص يقوم به، فقال صاحبه: فجعلت أتفرس فيمن عرفت حتى اخترت شابًا من أشجع وأذكى وأحسن من عرفته، فتقدمت به إلى ابن طولون، ثم خلا به ساعة، ورجع فأمر بضربه عشرين سوطًا مبرحًا، ثم حمله إلى السجن فتحيرت ولم أجرؤ أن أسأل الأمير، وظللت مشغولًا بما أرى دون أن أعرف له سببًا، وبعد عشرة أيام جاء الشاب فطرحه الأمير على الأرض وضربه عشرين سوطًا، وبعث به إلى السجن، فجعلت أقلب كفيَّ، وأقول: يا سبحان الله، ولا أدري سببًا معقولًا لما أراه، وبعد شهرين جاءني الشاب في مظهر أخاذ، وأخبرني أنه أصبح ذا

ضيعة غالية، وقصر عظيم بفضل رعاية الأمير، فقلت له: أخبرني بأمرك فقال: حين خلوت مع الأمير أول ما عرفتني به قال لي: إن في السجن جماعة من أعدائي وأريد أن أعرف ما يقولون عني، فسأظهر أنك معاقب، وسأضربك بالسياط وأبعث بك لتعيش مع هؤلاء فتعلم ما يدبرون وما يقولون، وحين يرونك مضروبًا بالسياط لن يشكوا في أمرك، وسيتخذونك صديقًا لا يسترون عنك شيئًا، ثم فعل بي ما فعل، وذهبت إلى السجن فلم يشك هؤلاء في أني أحد أعداء ابن طولون، ثم حبس الأمير قومًا آخرين في محبس آخر، واضطر إلى عقابي مرة ثانية لأصنع ما صنعت في المرة الأولى، وقد وفقني الله فعلمت أسرار هؤلاء وأولئك وأبلغت الأمير بكل ما رأيت وما سمعت فغمرني بعطفه وأنعم عليّ بما أنعم.

ثم قال البلوي: أما الورقة الثامنة، فقال تلاميذه: حسبك الآن لنجمع ما سمعنا، فلو طال الكلام لضاع منا الكثير، ولنا يوم آخر في مجلس يمتد فيه هذا الحديث.

وأقبلوا على يد الشيخ يلثمون ويدعون!

جامع قرطبة

لا يزال جامع قرطبة يزار إلى الآن حتى بعد أن تحول إلى كنيسة؛ لأن الملامح الإسلامية ما برحت واضحة للعيان، تدل على أصلها المموه، وأساسها المفقود، وكثير من فضلاء الرحالة المسلمين يذهبون إلى المسجد العزيز ويؤذن لهم بإقامة الصلاة فيه بعد تصريح خاص من القائمين على أمره، وقد حدثني العلامة المجري الشهير الأستاذ عبد الكريم جرمانوس أنه صلى بالمسجد عدة مرات؛ لأنه قرأ أن الأمير شكيب أرسلان سافر خاصة إلى إسبانيا ليسعد بالصلاة في المسجد الجامع، وقد تنشق في أرجائه عبير الإسلام.

وكما يزور المسلمون الآن المسجد الجامع كان النصارى في عهده الزاهر أيام الخلافة الأموية وما تلاها بالأندلس يحجون إلى زيارة هذا المسجد العظيم، وفيهم من كان يمكث عدة سنوات ليقرأ دروس العلم مع الدارسين؛ إذ يشهد التاريخ أن جامع قرطبة كان أول جامعة علمية في أوربا حين كانت مدن الغرب غارقة في الظلام، ولم يجد أهلها مناصًا من زيارة الأندلس ليستفيدوا من حلقات العلم في الطب والفلك والطبيعة والكيمياء والفلسفة، فيرجعوا بزاد حفيل، وإذا كانت أوربا جميعها قد استيقظت على صوت ابن رشد حين ترجمت مؤلفاته إلى اللغات المختلفة حاملة ثمار اليونان والعرب معًا، فإن ابن رشد تلميذ

جامع قرطبة رضع لبانه وأصبح المنار الأعلى في علوم الفلسفة والدين معًا.

وضع الحجر الأساسي لهذا البناء العظيم في عهد التابعين الذين رحلوا مع جيش موسى بن نصير لفتح الأندلس ومنهم حنش الصنعاني وأبو عبد الرحمن الجبلي، إذ وضعا الأساس بأيديهما وصنعا المحراب وفق رأيهما، فظل المحراب بالمسجد يعتز به التالون حتى جاء أمير المؤمنين عبد الرحمن الأوسط فنقله من موضعه القديم وركزه في القبلة الجديدة، وقد قيل له: إن القبلة منحرفة عن موضعها الطبيعي، فجمع أصحابه مشاورًا، وفيهم من قال: «يا أمير المؤمنين إن مكان القبلة قد عين منذ عهد موسى بن نصير، وصلى فيه التابعون وتابعو التابعين، فلا تغير موضعًا قد رضوه، وإنما هلك الناس بالابتداع ونجوا بالاتباع» فمال الخليفة إلى هذا الرأي، وقال: نعم ما قلت.

أما حلقات العلم بالمسجد فكانت متنوعة المعارف متعددة الثمار، وأكثر علماء الأندلس الذين ذكرهم صاحب نفح الطيب من فقهاء ونحاة ومفسرين ومحدثين وأطباء وفلاسفة وأدباء كانوا من أساتذة المسجد الجامع بعد أن مروا بمرحلة التلمذة فيه. ومن الغرائب أن منهم من جلس إلى تلميذه يستمع إليه في حلقة الدرس معجبًا

منشرحًا بعد أن كان أستاذه من قبل، وكأنه بذلك يضرب المثل الرفيع في التواضع النزيه.

وقد توالى خلفاء الإسلام وأمراؤهم متتابعين، وكل منهم يضيف الجديد إلى هذا المسجد، توسعة وتزيينًا ومعمارًا، ويهمنا أن نذكر ما قيل عن المنصور بن أبى عامر من أنه حين عزم على الزيادة في المسجد الجامع وأراد أن يأخذ الدور المجاورة له أحضر أصحابها وقال لهم: إني أريد أن أبتاع دوركم لجماعة المسلمين من مال الله ومن فيئهم، فاطلبوا ما تشاءون من الثمن، فإذا ذكر الحد الأقصى ابتسم وزاده إلى الضعف، وقد قيل: إنه أتى بامرأة لها دار بجوار المسجد بها نخلة، فقالت له: لا أقبل عوضًا إلا دارًا ذات نخلة أستظل بها وآكل من ثمرها، فقال: سأبحث عن مشيئتك ولو ذهب فيها بيت المال، وعقب القول بالفعل على كرم وسخاء.

ولا نترك الكلام دون أن نعرج على مجلس القضاء بالمسجد الجامع، إذ كان يمثل أزهى عصور الأمانة والنزاهة في الحكم الإسلامي، واحتفظ التاريخ بأمثلة رائعة لعظماء من القضاة صدعوا بالحق دون أن يرهبوا لومة لائم، ومن أشهر هؤلاء: محمد بن بشير القاضي الذى اصطدم بأمير المؤمنين الحكم في أكثر من حكم، وتوقع الناس أن يصدر الخليفة أمرًا بعزله، وأكثروا من الوقيعة فيه تنفيسًا عن أحقاد تداخلهم، ولكن الخليفة كان واسع الصدر، مطمئن النفس،

فتقبل الإدانة بصدر رحب، ونزل على رأى القاضي في كل ما حكم به، وقال لمن جلسوا يتحرشون به: «لا يا قوم، لقد أحسن ابن بشير بنا فيما فعل على كره منا. كان في يدنا شيء لا نملكه فأعطاه لصاحبه، وصار ما بقى لنا حلالًا طيبًا لأعقابنا».

وقد لاحظ الدكتور حسين مؤنس أن أهل قرطبة كانوا يهتمون بنظافة المسجد ويعده كل واحد منهم منزله الخاص الذى يحب أن يهتم بنظافته، ثم عقد مقارنة بينه وبين مسجد الفسطاط حين سجل ما روى التاريخ من إهمال أهل الفسطاط لمسجدهم الكبير، وجعله مرتعًا للبيع والشراء دون حرص على مكانته باعتباره بيت الله. وهى ملاحظة يخفف منها أن المساجد الآن في مصر صارت موضع الاحتفاء والإجلال.

وفى كتاب (نفح الطيب) أوصاف جميلة لحلقات الدرس وقيام الحراس بحفظ النظام وتأديب الناشزين من الطلاب، مما يسجل صفحة من صفحات التربية الإسلامية في عصورها الزاهرات، وإذا كنا قد أشرنا إشارة موجزة إلى موقف القاضي ابن بشير مع الحكم، فإن المجال يتسع لإيضاح ما يماثل هذا الموقف النبيل؛ إذ شهد جامع قرطبة في مجلس قضائه أمثالاً وأشباهًا لابن بشير يعتز بها تاريخ القضاء.

ومن هؤلاء الخطيب الداعية القاضي النزيه المنذر بن سعيد

البلوطي الذى نوجز بعض مواقفه من كتابنا (علماء في وجه الطغيان) وإنها لأكثر من أن تحد.

كان للناصر حَظِيَّةٌ من نسائه ملكت قلبه، فهام بها، وكلف برغبتها، فبنى لها قصرًا جميلاً، ثم عنَّ له أن يتوسع في شرفاته ومقاصيره، فأراد أن يشترى دارًا مجاورة لبعض الأيتام، وعرض بعض المال لذلك، فقال الوصي: إنه لا ينفذ البيع إلا بإذن القاضي منذر بن سعيد؛ إذ إن الأيتام في حجره ورعايته، فهو القاضي المسئول عن جماعة المسلمين، وأولى بالتصرف والإنفاذ، فبعث الخليفة إلى القاضي يسأله إنفاذ البيع، فقال البلوطي لرسول الخليفة: إن البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه منها الحاجة الملحة، أو الضعف الشديد، أو الرغبة في مال من غبطة مرتجاة، وليس بالأيتام حاجة لنقد، ولا بالدار ضعف فتزال وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين كثيرًا أنفذت البيع وإلا فلا، وطار الرسول بالخبر إلى الخليفة، فأبدى زهدًا في شرائها، وخاف القاضي أن يصمم الخليفة على الشراء، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها، فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة في هدم المنزل وناقشه الخليفة، فقال له المنذر في جرأة حميدة: لقد أخذت في هدمها بقول الله ﷻ:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ ﴾ (الكهف: ٧٩)

ومقومك لم يقدرها بمال معقول، وقد قبضت في الأنقاض وحدها أكثر منه، وبقيت الأرض للأيتام، فتدبر الخليفة الأمر قليلًا وأدرك صدق النية لدى القاضي، وعلم إخلاصه في اتباع الحق، فقال له: نحن أولى بالانقياد إلى العدالة، وجزاك الله خيرًا يا قاضي الجماعة عن العدل والإسلام.

موقف كريم من قاض عادل، وملك منصف، وبأمثال هذه المواقف الجريئة اعتز الإسلام، وبلغ في قرن واحد ما لم تبلغه الدولة الرومانية في ثمانية قرون، بل إن المنذر العظيم قد رصد نفسه ناقدًا لأعمال الخليفة؛ فهو لا يكتفى بإقامة العدل في القضاء وحده، بل يتتبع أعمال الناصر حسنها وسيئها في رأيه، فإذا لم يطمئن بعمل ما جاهر بمحاربته على رءوس الأشهاد، واتخذ من منبر الجمعة مذياعًا يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر، مهما كانت النتائج، وحسبه أن يسكن ضميره القلق، فلا يشعر بوخز يؤنبه على السكوت والإغضاء.

ولقد كان الناصر كلفًا بالعمارة والزخرفة، فبنى الزهراء وأفرغ الجهد في تزيينها وإبداعها، وأقام قصورها الشماء على أحسن طراز، حتى شغله ذلك عن حضور الجمعة في المسجد الجامع ثلاث مرات

متعاقبات، فأراد القاضي أن يلقى الموعظة الزاجرة، وانتهز حضور الخليفة للصلاة في جمعة حافلة، وبدأ خطبته بقول الله:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾ (الشعراء: ١٢٨ – ١٣٥).

ثم أتبع ذلك بكلام قاس، ينهى عن الإسراف والتبذير، حتى بكى الخليفة وندم، ثم قال لولى عهده ونجله الحكم: «لقد أسرف المنذر في ترويعي وإزعاجي، والله لا أصلى خلفه الجمعة أبدًا. فقال له ولى العهد: وما الذى يمنعك من عزله وإيقافه؟» فرجع الناصر إلى إيمانه ويقينه وقال: «ويلك، أمثل ابن سعيد في ورعه وعلمه وفضله، يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن الرشاد، سالكة غير القصد؟! هذا ما لا يكون وإني لأستحي من الله ﷻ ألا أجعل بيني وبينه شفيعًا يوم القيامة، مثل المنذر بن سعيد». هذا سمو بالغ نذكره بالفخر للناصر.

وقد زاده في عيون المنصفين قدرًا ونباهة، ولو استمع إلى ولي عهده وعزل المنذر بن سعيد عن الخطابة بالمسجد الجامع لاكتسب جرمًا آخر، وسلقه الناس بألسنة حداد، فذاع في الدولة إسرافه وتماديه، فتذمر من تذمر وتآمر عليه من تآمر... ولكنه

تلافى ذلك كله، وأرضى الله عَزَّ وَجَلَّ في واعظه ومرشده، ثم تقبل النصيحة بهدوء وإذعان، بعد أن سكنت عنه سورة الغضب، وكان يذكرها للمنذر بمحمدة وإعجاب.

أبو عليّ القالي
أستاذ الأدب واللغة بجامع قرطبة

كان عبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين بالأندلس في القرن الرابع الهجري يحاول أن يجعل من قرطبة مدينة مماثلة لبغداد حاضرة الخلافة العباسية، كيلا تَقْتُصر عنها في العلم والحضارة والعزة والاستقلال، ومن ثم فقد جعل يبعث الوفود لتلقى العلم بالمشرق، كما لا يقصر في بذل المال شراء للكتب وبناء للخزانات العلمية بشتى جوامع الأندلس، وقد طار صيت أبي عليّ القالي إمام بغداد وكبير علمائها في اللغة والأدب حتى دوى في الأندلس، فرأى عبد الرحمن الناصر أن يستقدمه إلى قرطبة ليجعل مجالسها الأدبية صورة من مجالس بغداد، وبذل من الوعود ما شجع «أبا على» على القدوم إلى الأندلس، حتى إذا شارف البلاد جعل في كل محلة يحل بها وفدًا من كبار رجالها يستقبله مرحبًا ثم يودعه إلى ما يليها من المحلات الأخرى، حتى إذا قرب من العاصمة كان في استقباله ولى العهد الحكم ابن ناصر على رأس كوكبة من رجال الدولة في يوم حافل مشهود.

وأبو على في مجمل حياته يعتبر وليد عصر الثقافة العربية الزاهرة بالقرن الرابع، إذ دخل بغداد سنة ٣٠٣هـ، وحضر دروس العلم في كل فن من فنون العربية والشريعة على كبار العلماء الذين ذكرهم ياقوت في

ترجمة أبى عليّ، وكلهم جهير المكانة عالي المنزلة، وقد مال أبو على بصفة خاصة إلى علوم اللغة والأدب، حتى عد فيهما إمامًا حجة مأمونًا، قال عنه الضبي في (بغية الملتمس) ص ٢١٧:

«كان إمامًا في علم اللغة، متقدمًا فيها، متقنًا لها، فاستفاد الناس منه وعولوا عليه، واتخذوه حجة فيما نقله، وكانت كتبه في غاية التقييد والضبط والإتقان، وقد ألف في علمه الذى اختص به تآليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته».

وقد كان للقالي مجلسان علميان في قرطبة: أحدهما بالمسجد الجامع الذى تقدم الحديث عنه، وثانيهما بمسجد الزهراء الذى بناه الناصر تخليدًا لعهده، وفي المسجد الجامع أملى كتابه المعروف بالأمالي.

ويقول ياقوت: إن أبا عليّ حين انقطع بالأندلس بقية عمره أملى كتبه بها وأكثره مما حفظه أبو عليّ عن ظهر قلب، لأن علمه كان علم رواية، ومن أسماء مؤلفاته يعرف منحاه العلمي واتجاهه التدريسي.

قال ياقوت نقلاً عن أبى محمد بن حزم[1]: «وكتاب نوادر أبي عليّ، مبار لكتاب الكامل، الذى جمعه المبرد، ولئن كان كتاب أبى العباس أكثر نحوًا وخبرًا، فإن كتاب أبي عليّ أكثر لغة وشعرًا، وكتاب

(١) معجم الأدباء: ج٧، ص ٢٨.

الممدود والمقصود رتبه على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق، مستقصى في بابه، لا يشذ منه شيء في معناه، لم يوضع مثله، وكتاب الإبل ونتاجها، وما تصرف منها، وكتاب حلى الإنسان، والخيل وشياتها، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب مقاتل الفرسان، وكتاب تفسير السبع الطوال، وكتاب البارع في اللغة على حرف المعجم، جمع فيه كتب اللغة، ويشتمل على ثلاثة آلاف ورقة، قال الزبيدى: «ولا نعلم أحدًا من المتقدمين ألف مثله».

وكتاب الأمالي هو الذائع المشتهر بين كتب القالي، وقد تعددت طبعاته، وهو من الشهرة بحيث ذكره ابن خلدون بين الكتب الأربعة التي يعتمد عليها في تحصيل الأدب، وهى: الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والأمالي لأبي عليّ، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وحصر كتب الأدب المقيدة في هذه الأربعة ظلم لما عداها، وإلا فكيف يغفل صاحب هذا الاختيار كتابًا ككتاب الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني، وهو من النباهة بحيث يجب أن يتقدم على سواه.

ولشهرة كتاب (الأمالي) وهم الأستاذ أحمد أمين حين ذكر في مقدمة كتاب (العقد الفريد) أن ابن عبد ربه صاحب العقد قد حذا حذو صاحب (الأمالي) في تأليف كتابه، وهو وهم نفاه الأستاذ محمد سعيد العريان حيث قال:

«وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح في أن ابن عبد ربه كان لاحقًا لأبي عليّ القالي، وأنه من تلاميذه، وأن كتاب (الأمالي) أسبق من (العقد الفريد) وأنه أول ما نقل إلى المغاربة من علم المشرق.. وأرى هذا كله خطأً لا يستند إلى دليل من التاريخ، فقد كان مقدم أبي عليّ القالي إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر (توفي ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨هـ) وكان مقدم أبي عليّ القالي في إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠هـ)، وكان تأليف كتابه (الأمالي) بعد مقدمه بسنين؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموع محاضراته في جامع قرطبة، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه (العقد) في سنة ٣٢٢هـ على ما نرجحه، وقدرنا المدة التي أملى فيها أبو على محاضراته في جامع الزهراء قبل أن يجمعها في كتاب ببضع سنين، كان لنا من ذلك برهان لا يدفع بأن (العقد الفريد) كان أسبق من (الأمالى) ببضع عشرة سنة، فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبي عليّ، وبأن كتابه على منهاجه»[1].

وفى مقدمة كتاب (الأمالي) الذى نشرته دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦م في طبعته الأولى ترجمة جيدة لأبي عليّ، كتبها الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي- رحمه الله- أشار فيها إلى مأخذين في حادثتين

(١) العقد الفريد، طبعة الأستاذ سعيد العريان، ج١، ص١١.

مشهورتين لأبي عليّ ونحن نذكرهما لنرد عليهما بما يضع الأمر في نصابه دون تحيز.

قال الأستاذ الأصمعي[1]:

«أما الحادثة الأولى، فهي عدم إقامته وزن بيت من الشعر عند الاحتفال العظيم بقدومه، وكانوا يتناشدون الأشعار في مسير ركبه إلى قرطبة، وقد جمع عددًا من شعراء الأندلس وأدبائها، فقد ذكر صاحب نفح الطيب أنهم كانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم ويتناشدون الأشعار إلى أن تجاوزوا يومًا وهم سائرون أدب عبد الملك بن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل، وإنشاده بيت عبدة بن الطيب.

ثمت قمنا إلى جرد مسومة ∴ أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علىّ، فأنشد الكلمة في البيت:

أعرافها لأيدينا مناديل

فأنكرها ابن رفاعة الألبيري، وكان من أهل الأدب والمعرفة وفي خلقه حرج وزعارة فاستعاد أبا على البيت مستثبتًا مرتين في كليهما أنشده: (أعرافها)، فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفًا وقال: «مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت

(١) مقدمة الأمالي للأستاذ الأصمعي.

مشهور بين الناس، لا يغلط الصبيان فيه! والله لا تبعته خطوة، وانصرف عن الجماعة..» إلخ.

أما الحادثة الثانية، فقد وقعت له عندما كانوا يحتفلون لدخول رسول ملك الروم صاحب القسطنطينية بقصر قرطبة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكانوا يحتفون في لقياه بالعسكر والقواد وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة كالموالي والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة، وإقامة الاحتفالات الشائعة، وتلاوة الخطب الرائعة، بما يدل على فخامة جاه الدولة، وبيان ما يخطبه الغير من مودتها، فقد دعي أبو عليّ وهو أمير الكلام وبحر اللغة في وقته في هذا الاحتفال الرسمي فارتج عليه.

قال صاحب نفح الطيب: «لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة – الاحتفال الذى اشتهر ذكره – أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه تذكر جلالة مقعده، وتصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة، ورمى ملوك الأمم بسهام بأسه ونجدته، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم لذلك من الخطباء ويقدمه أمام إنشاد الشعراء، فتقدم الحكم إلى أبي عليّ البغدادي ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة أن يقوم، فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم انقطع وبهت، فما وصل إلا قطع ووقف ساكنًا مفكرًا، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام قائمًا بدرجة من مرقاة أبي

عليّ ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة وملأ الأسماع جلالة...».

هذا ما جاء في المقدمة عن الحادثتين، والحادثة الأولى مستغربة: فمثل أبي عليّ في علمه الغزير وتدقيقه العميق، لا يغفل عن كسر عروض في بيت من أبيات الشعر، وربما كان القالي حافظًا لهذا البيت، وهو ناشئ صغير، فظل يتردد على لسانه كما كان يحفظه قبل أن يدرس العروض، وهذا نعهده من أنفسنا، إذ منا من يحفظ البيت خطأ في صغره، ثم يرويه في كبره كما حفظ، فإذا نبه إلى الخطأ عجب كيف فاته هذا الأمر البديهي، والكمال لله وحده.

أما الحادثة الثانية فأبو على معذور في عدم توفيقه في المجال الخطابي، لأن لكل إنسان تخصصه؛ فالرجل لم يدع أنه خطيب محافل ومتحدث مجتمعات ولكنه عالم لغة وأدب ونحن حين نؤاخذه على موقفه في الحفل الكبير نكون كمن يؤاخذ طبيب الحميات لأنه لم يجد فن ولادة النساء، إذ لكل تخصصه المشهود وقد نجد أديبًا يجمع بين العلم والأدب، كما نجد من يكون مؤلفًا وخطيبًا، ولكن هذا لا يوجب أن يكون كل عالم خطيبًا جهيرًا، فقدرة البشر محدودة، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

ومهما يكن من شيء فقد كان جامع قرطبة أفقًا تألق فيه كوكب أبي عليّ، وبه اشتهر وذاعت مؤلفاته، فمن حقه أن ينتسب إليه.

جامع السيدة نفيسة
وثقافة المرأة المسلمة

اسم السيدة نفيسة حبيب لدى قلوب المصريين فهو من أسماء البيت النبوي التي لا ينطفئ لها بريق مهما تطاول الزمن، هو كفاطمة وزينب وخديجة وعائشة وسكينة ذوات التاريخ الديني الأثير، وقد اتجه اليوم فريق منا إلى أسماء مستوردة يطلقونها على الإناث، ظانين أنهم بذلك يواكبون القرن العشرين؟! وهكذا تظل تقدميتنا الزائفة منحصرة في القشور لا في اللباب.

ودائمًا حين أدخل المسجد الطاهر، وأقرأ الآية الكريمة فوق المقصورة.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ (الشورى: ٢٣)

تأخذني هزة اشتياق ووجد، إذ أحس إحساسًا جياشًا أنى قريب من شجرة النبوة، وأني أمام إحدى ثمارها اليانعات! وقد كانت نفيسة ثمرة يانعة حقًا، بجهادها العلمي، ونضالها السياسي؛ إذ لم تكن مجرد سيدة تنتسب إلى البيت الطاهر، ولكنها كانت رائدة بين الرائدات.

سعدت مصر بزيارة السيدة الطاهرة في وقت سعدت فيه بزيارة الإمام الشافعي، فقيه الإسلام الأكبر، وقد عاشت حينًا ما في مدينة

الفسطاط الإسلامية قريبة من درس الشافعي بالمسجد، فكانت آراؤه التشريعية تصل إليها، فتعلق عليها بما لفت انتباهه، فسعى إلى مجلسها العلمي وناقشها في كثير من مسائل الفقه، حتى إذا كان شهر رمضان خفت إلى مسجد الفسطاط لتصلى العشاء وراء الصفوف، خلف الإمام الكبير، سعيدة كل السعادة بالائتمام بأكبر فقيه سعدت به هذه البلاد، وحين مات الشافعي أدركت هول الفجيعة فيه، ورثته بعبارة خالدة، ذهب الناس في تأويلها على غير وجهها وما منهما إلا له مقام معلوم، ويكفى أنها أمرت أن تدخل جنازته إلى بيتها لتصلى عليه، وكانت قد انتقلت من الفسطاط إلى مكان مسجدها الحالي، فوقف الناس ينتظرون أداء الصلاة ثم يواصلون التشييع إلى المقر الأمين..».

قلت: إن السيدة نفيسة كانت ذات نضال سياسي، فقد واجهت والي البلاد مواجهات ناقدة حين كانت تحس بتجاوزه وتعديه، وهي تعلم أنها علوية تعيش في ظل العباسيين من خصوم بيتها، ولكنها تقدر كل احتمال، فتجابه المعتدي في موكبه العام عند صلاة الجمعة، وتنهال عليه تقريعًا كي يصحح أخطاءه، وقد سعى الساعون عليها في حاضرة الخلافة بعد أن توفى زوجها، فصودرت أموالها وعاشت على الكفاف، تستنكف أن يصلها أحد المريدين بمال قل أو كثر، إذ هي من أهل بيت لا يقبل الصدقة، ولو كانت في مظهر الهدية الأخوية، وهو ترفع زاد من

مكانتها، فانجذبت العامة والخاصة إليها، وأخذ كل صاحب مظلمة يتجه إليها، لتجابه به الوالي بنصرته، وتلك هي الزعامة حقًا، إذ أردنا اصطلاح العصر الحديث.

وفى سنواتها الأخيرة أحست بدنو أجلها، فحفرت قبرها بيدها في درب السباع، بمكان المسجد الآهل، وجعلت تنزل إلى أعماقه وتقرأ القرآن، وتصلى قاعدة لضعفها، حتى فاضت روحها في أول جمعة من شهر رمضان، وحاول أهلها أن ينتقلوا بالرفات إلى المدينة بالبقيع، فاحتشدت الخلائق وأصر المصريون على أن تدفن في قبرها الذى بنته، ونهض عبد الله ابن السري والى مصر ببناء ضريح على الحفرة الكريمة صار مشهدًا عامًا يتوافد إليه الناس، ثم تجدد البناء على نحو واسع في عهد الدولة الفاطمية أيام الخليفة المستنصر، وفي زمن الخليفة الحافظ لدين الله حدث تصدع بالبناء في القبة العليا، فأمر بتجديد المشهد وكسوة المحراب بالرخام.

وتوالت عناية سلاطين المماليك بالمزار، فحرصوا على تجديده الدائم، حتى كان عصر العثمانيين في نهايته، فنهض الأمير عبد الرحمن كتخدا بتهيئة المسجد على وضعه الراهن اليوم، وشاهد ازدحام الرجال مع النساء عند الزيارة فأمر باتخاذ طريق خاص بالنساء، ثم انضم إلى وزارة الأوقاف فيما بعد، فأكملت

عمرانه على خير وجه؛ لأن ما حبس عليه من الأوقاف، وما كان يتجمع في صناديق النذور كان من الكثرة بحيث امتد خيره إلى مساجد العاصمة بعد أن فاض المال كالطوفان.

وقد كانت كلية اللغة العربية الأزهرية لعهدي أيام الطلب بالصليبة قريبة من مشهد السيدة نفيسة، فكانت أكثرية الطلاب من أبناء الأحياء المجاورة يذاكرون بالمسجد الطاهر في مواسم الامتحانات، وكان عجبًا أن ترى تلميذ المدرسة الابتدائية يذاكر بالمسجد ثم يسأل طالب المدرسة الثانوية إلى جواره عن بعض ما غمض، ويأتي طالب الثانوية ليسأل طالب الجامعة فيجيب، وهذا ما شهدته بعيني وقمت به، وهو نوع من التكافل العلمي أغنى عن وباء الدروس الخصوصية التي تكتسحنا الآن؛ إذ كانت المدرسة حينئذ هي المدرسة، والأستاذ هو الأستاذ، أما الآن فجسم ولا روح، وفصول ولا تدريس.

وكتب التراجم تفيض في مآثر السيدة نفيسة، وإذا كان كبار الفقهاء في حياتها يتعاقبون على مجلسها العلمي مناقشين، فإن هؤلاء قد دأبوا بعد وفاتها على زيارة مشهدها، ومنهم عبد الرحمن البويطي، والربيع ابن سليمان، والربيع الجيزي، كلهم من أصحاب الإمام الشافعي وتلاميذه! وما تزال مواكب الزائرين من العلماء تتوافد، وقد كان أستاذي العلامة الكبير الشيخ أحمد شفيع السيد- رحمه الله- يحرص

على الصلاة في المسجد النفيسي عصر الجمعة، وكثيرًا ما كنت أصطحبه فأجد التزاحم الحاشد والإقبال الشديد.

ثقافة المرأة المسلمة:

وقد ظهر في هذا الزمن من غلاة الكتاب من ينكر على السيدة نفيسة– رضى الله عنها– مكانتها العلمية، مدعيًا أن المرأة المسلمة لم تصل إلى حد الصدارة في المسائل العلمية على مدى التاريخ الإسلامي حتى تكون السيدة نفيسة وحدها مثلاً فريدًا يذكر محوطًا بالكرامات العلمية، وتلك دعوى خطيرة؛ لأن المرأة المسلمة لها مكانها العلمي الذى سجلته الكتب المتعاقبة، وإنكار ما تواتر في الصحف المتتالية دون دليل مما يهدم الحقائق بالظنة الخادعة لا بالبرهان القويم، ونجد مثل هذا الكاتب كثيرًا من أصحاب الأقلام ممن لم يقرءوا تاريخ الإسلام على مدى عصوره، بل تلقفوا شذرات من معلوماتهم الإسلامية عن كهنة المستشرقين فضلوا وأضلوا غاية الضلال والإضلال، ولو أنه ثقف منهج العلم كما يزعم لنفسه لرجع إلى المؤلفات العربية ليجد ما ينطق بالحق دون حجاب.

ويكفى أن نذكر أن السخاوي صاحب (الضوء اللامع) قد عقد جزءًا خاصًا من موسوعته لتراجم النساء ذات الحيثيات الأدبية والعلمية والسياسية في عصره، بحيث لو أردت في هذا العصر أن تكتب

جزءًا خاصًا بشهيرات نسائه في بلد ما لعز عليك أن تعثر على قدر كبير منهن يماثل من تحدث عنهن السخاوي في الضوء اللامع، مع تقرير حقيقة واضحة هي أن المرأة في العصر المتقدم كانت تتعلم لذات العلم، فلم تكن لتعلن عن نفسها في شيء، فكم من متعلمات غفل عنهنَّ السخاوي ونظراؤه، لأنهن لم يشتهرن لدى الكاتبين، ولأن ذوي الغيرة من أوليائهن يأنفون أن يكون حديثهن موضع الذيوع.

ومع هذا الاحتياط المتشدد فقد شاع ذِكْر المرأة بالعلم وسجل التاريخ لهن صحائف ناصعات، ونضع أمام القارئ شاهدًا تاريخيًا لا يخطئ مبتغاه هو أن الجلال السيوطي معاصر السخاوى وقريعه قد ختم كتابه «بغية الوعاة» بمسلسلات قرأها على فضليات من عالمات النساء كما كان يقرأ على أعلام الرجال سواء بسواء، وقد ذكر ممن قرأ عليهن: الأصيلة الثقة الخيرة الفاضلة الكاتبة أم هانئ بنت الحسن الهوريني، كما قرأ على السيدات الفضليات: هاجر بنت محمد، وأم الفضل المقدسية، ونشوان بنت عبد الله، وكمالية بنت أبى بكر، وأمة الخالق بنت العقبى، وفاطمة بنت علي الفسطاطية، وأمة العزيز بنت محمد، وخديجة بنت الحسن بن الملقن، وغيرهن من كبيرات الفضليات:

فإذا كان الجلال السيوطي أكثر مؤلفي الإسلام كتابة وتصنيفًا قد

قرأ على أكثر من عشر أستاذات له، فمن له اليوم في عصر نزعمه عصر المرأة المثقفة، عشر أستاذات يعدهن شهيرات بآثارهن، رائعات بعلمهن، كما فعل الجلال، ولم يكن السيوطي وحده أول من اعترف بأستاذية المرأة، فابن الجوزي العلامة الذائع ينقل دائمًا عن شهرة الكاتبة فيروى عنها الحديث والأدب والتاريخ، ولها ترجمة جليلة في وفيات الأعيان يرجع إليها من شاء.

وما لنا نبعد وأمامنا المحدث الكبير أبو مسلم الفراهيدي يروى الحديث في عصره عن سبعين عالمة من الحرائر والإماء! أما علاء الدين السمرقندي أشهر عالم في عصره، فقد كانت ابنته الفقيهة العلامة فاطمة العلائية تحفظ تحفته وتشرحها للطلاب والطالبات مع دقائقها الأصولية وخفاياها الفقهية، وكانت الفتوى الدينية تصدر عن أبيها موقعة بإمضائه وإمضائها معًا، حتى نهض تلميذه أبو بكر الكاساني الملقب بملك العلماء فألف كتاب البدائع في شرح التحفة وقدمه لشيخه علاء الدين ففرح به، وقرأته فاطمة فأعجبت بعلمه وتخريجه، وكان من وراء رضا الوالد وإعجاب الفتاة أن نال أبو بكر حظوة قبولها فأصبحت زوجته وشريكة حياته، قالوا وكانت الفتوى تخرج عقب ذلك من بيت علاء الدين السمرقندي موقعة بإمضاء الشيخ الأكبر وكريمته وزوجها، فهي ذات ثلاثة توقيعات!!

وإذا كانت طرائف المرأة المثقفة أكثر من أن تحصر فإننا نكتفى الآن بنادرة رائعة ترويها الكتب الأدبية والتاريخية عن أم علىّ تقية، العالمة المصرية الفاضلة، وكان أبوها أبو الفرج غيث بن عليّ من كبار علماء عصره، وجاء ولدها أبو الحسن عليّ بن فضل من كبار النحاة والقراء، وأما هي فقد تتلمذت على الحافظ المحدث أبي طاهر السلفي شيخ علماء الإسكندرية بعد أن حصلت علم أبيها، وكانت تخلص للحافظ إخلاصًا بعيدًا، وكان ينظر إليها بعين التقدير حتى ليذكر في درسه بعض آرائها العلمية لطلابه، وقد زار والدها ذات يوم، فجرحت قدمه بالمنزل عفوًا بتأثير زجاجة صغيرة ارتطم بها في سيره، فشق ذلك على تلميذته المخلصة، وقدت من خمارها شريطًا لقدم أستاذها، وعصبت الجرح ثم أسعفتها البديهة، فقالت شعرًا ارتجاليًا يصور عاطفتها نحو أستاذها، ومنه:

لو وجدت السبيل جدت بخدي ∴ عوضًا عن خمار تلك الوليدة
كيف لي أن أقبل اليوم رجلاً ∴ سلكت دهرها الطريق الحميدة

كما يروى عنها ما هو أطرف وأعجب، فقد مدحت الملك المظفر بقصيدة بدأتها بوصف مجالس الأنس كما كان المعتاد لدى شعراء عصرها، فأعجب بها الملك، ولكنه تبسط مع بعض خاصته فقال: لاشك أن الشاعرة كانت تعرف مجالس الأنس في صباها فوصفتها هذا

الوصف البديع! وطارت الكلمة إلى الشاعرة العالمة الحصيفة، فغضبت لنفسها غضبًا مهذبًا مفحمًا، إذ أنشأت قصيدة حربية تصف فيها حلبة الهول واصطدام الأسنة، واشتجار الرماح وصفًا رائع المنحى جيد الصورة، ثم تقدمت بها إلى الملك المظفر قائلة في أدب جمّ: إن علمي بمجالس الأنس كعلمي بحلبات القتال، فأطرق الملك معتذرًا.

نتيجة مهمة:

هذا قلّ من كثر مما تفيض به صحف التاريخ العلمي عن نشاط المرأة المسلمة في الميدان، ولكن الذين في قلوبهم مرض ينكرون على السيدة نفيسة نشاطها الفكري؛ لأنها لم تترك مؤلفًا، وبالتالي ينكرون على من ذكرناهن من الفضليات جهودهن العلمية، لأنهن لم يتركن مؤلفات ناسين أن طبيعة العصور الماضية كانت تحول دون أن تؤلف السيدة كتبًا تذيع بين الناس؛ لأن مشاق الوراقة ووسائل الذيوع مما تصان عنه المحصنات في عرف هذا الزمن.

رجل المسجد
(الشيخ أحمد البيومي)

انتقل إلى رحمة الله والدى أحمد البيومي في الثاني من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٠١هـ وكان وداعه المشهود يوم الجمعة حيث اجتمع أهل «الكفر الجديد» لصلاة عليه بالمسجد الكبير، وقام الخطيب الأستاذ يوسف أحمد يوسف، فذكر من فضائله ما يعلمه أهل القرية جميعًا. ويشهدون به دون استثناء، وقد علق بذهني من قوله عن أبى: (إنه رجل المسجد)! حيث ظل هذا الوصف يملأ تفكيري؛ لا لأني كنت أجهل منه أمرًا مشهودًا لا ينكره أحد، بل لأنه كان الوصف المتسع لمعان كثيرة تدور في محيطه، فهو إطار حقيقى لمآثر يعرفها الناس، ويسهبون في حديثها! إطار يتسع ويمتد ثم يعلو ويرتفع، ليؤدي رسالته المؤمنة حين يصل الأرض بالسماء.

لقد عاش والدى أكثر حياته تاجرًا يعمل في متجره، فليس له بالمسجد وظيفة رسمية يحرص على أدائها قيامًا بواجب معاشي، ولكن المسجد كان يأخذ منه أكثر مما يأخذه متجره من الأوقات، وكان الذى يحب أن يراه ييمم المسجد حين لا يجده في منزله أو في متجره، إلا أن يكون مسافرًا غير دان، وحينئذ يكون أكثر وقته في المسجد الذى ارتحل إلى مدينته، لقد كان المسجد بالنسبة إليه

روضـة ذات زهـر وشـجر وثمـر ومـاء، فهـو مهـوى القلـب وراحـة العين، ومهد السكينة والاطمئنان.

تعودت صغيرًا منذ بدأت أفكر فيما حولي عن بصيرة، أن أجد باب منزلنا يفتح قبيل الفجر دائمًا حيث ينهض والدى للصلاة، كما رأيت من والدى ووالدتي مشجعين لي، على أن أخف في هذا الوقت لأقف بين يدى الله!! ومن لي اليوم بفرحة الطفولة البريئة، وبهجتها بالذهاب في غلس الظلام إلى المسجد لم يكن نور الكهرباء قد دخل القرية، ولكن نور التقوى كان يشع في كل أفق من آفاقها؛ فالناس ينسلون من كل حدب إلى بيت الله! الصغار مع الكبار دائمًا! فإذا كان الوقت وقت رمضان، فالدنيا تموج، والمسجد يأتلق، وكأن مهرجانًا يقام! ولوالدي مكان جوار المحراب ينهض فيه قائمًا متهجدًا، وقد يكون الإمام وما أكثر ما يكون، إذا لم يكن الإمام الرسمي وهو شقيقه عمى الراحل الكريم الشيخ محمد البيومي- رحمه الله- حاضرًا، ومن بعده ولده الشيخ أحمد محمد البيومي، فإذا نهض أبى للقراءة في الصلاة رتل في ابتهال، وكنت حريصًا قدر الجهد أن أكون خلفه في فجر الجمعة لأسمع سورتى السجدة والدهر من فمه! وقد حفظت السورتين فيما حفظت من كتاب الله، فإذا رددهما والدى خيل إليَّ أني أسمع كتاب الله لأول مرة، أما إذا جاء القنوت ووقف مبتهلاً يدعو ويَؤَمِّن الناس،

صفوفًا خلف صفوف، فإنك لا ترى غير أرواح تتجاذب أجسادها للتطير عنها محققة قول الداعي (اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك)!

والمسجد الأهلي في الريف مأوى الغرباء من أبناء السبيل، فلا تعدم أن ترى كل مغرب تحت مئذنته جماعة يوقدون النار في الشتاء مصطلين، ليعرفهم من أهل الخير من يتقدم لهم بالعشاء، حتى إذا كان اليوم بعد الصلاة الأخيرة لاذوا بالمسجد مستريحين، وقد تعودت أن أجد والدى يصطحب معه بعد صلاة الفجر ضيفًا جديدًا إلى المنزل، وكثيرًا ما يكون هذا الضيف من حملة كتاب الله، أو ممن أصابوا يسيرًا من العلم، فأرى أريكة الفناء قائمة في الشارع القصير يجلس عليها الضيف تاليًا بعض السور وبجواره يجلس والدى مستمعًا، ولا يفارقان المنزل إلا بعد طلوع الشمس بعد أن يتناولا الإفطار، كما تهيأ تلقائيًا دون استعداد خاص وقد ينضم إلى مجلسهما ثالث يشم رائحة الغريب الوافد فيقرع الباب بالعصا، ليؤانس مستمعًا فمسامرًا فمفطرًا، وكان لعمى الشيخ محمد البيومي- رحمه الله- مجلس مماثل أمام منزله المجاور، إذ ما يكاد ينفتل من صلاة الفجر حتى يحضر معه ضيفًا غريبًا، ثم يشعل ما يعرف (بالمنقد) في الريف، ويضع آنية الشاي، ويحضر ما يتيسر من اللبن والجبن والبيض والعيش ليأكل مع ضيفه في

سرور والتذاذ، وكان مما يضحكني أن أجد شيخًا من معارفنا يمر بالمجلسين معًا، ليصيب منهما فوق حاجته، وليواصل ما يجيد من السمر والائتناس، رحم الله الجميع.

وتمر الأيام ولا أنسى مشهدًا لوالدي معي وأنا في الخامسة من عمرى؛ إذ أصيب رأسي ببعض القروح فاصطحبني إلى طبيب بالقاهرة في ميدان السيدة زينب، ونزلنا بإحدى اللوكاندات بالميدان، فكنت أجد أبى يوقظني قبل الفجر بساعتين لنذهب إلى المسجد الزينبي، حيث يصلي متنفلاً، ثم أجد شيخًا مهيبًا يقرأ درسًا علميًا، وحوله الناس، ولوالدي سرور بالغ، وإشراق مضيء، حين يجلس مع الجالسين مستمعًا، وأنا إلى جواره يغالبني النعاس، ولا أكاد أعي شيئًا مما حولي، فإذا انتهى جاء شيخ حسن الصوت وجعل يقرأ القرآن، وحين تقدمت بي السن، والتحقت بالمعهد الثانوي بالأزهر كنت لا أزال أتخيل صور هذا المجلس العلمي في الحرم الزينبي، فسألت والدي، فقال: إن الذى كان يشرح الدرس هو العلامة الشيخ محمد السمالوطي عضو هيئة كبار العلماء، ومن عادته أن يقرأ البخاري قبل الفجر، وله جمهوره الفاقهون، وأن قارئ القرآن هو الشيخ أحمد ندا، وكان من سعادتى بعد ذلك أن أقرأ وصفا للكاتب المبين الأستاذ عبد العزيز البشرى، يتحدث فيه عن مجلس العلم بالمسجد الزينبي، فيردني

إلى أطياف حلوة تلوح بعيدًا بعيدًا في مرآة الطفولة زاهية ناضرة شفافة، وقد استطاع الأديب المصور الأستاذ البشرى أن ينقلني إلى هذه المجالس الوضيئة، النافحة بعبير الإيمان حين قال[1]:

(لقد ولدت في حي السيدة زينب، وسلخت فيه مدة الفتوة، وصدرًا من سنى الشباب، ولست أذكر أنى من عهد الصبا، تخلفت في ليلة من ليالي رمضان إذا كان السحر عن طلب مسجد السيدة زينب- رضى الله عنها- أستمع أولاً إلى درس الحديث من أستاذنا العلامة الجليل الشيخ محمد السمالوطي- عليه رحمة الله- حتى إذا فرغ منه الوقت المقسوم استوى الشيخ ندا على الدكة، وأنشأ يقرأ:

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾

(طه: ١ – ٣)

وقد انصقل بقراءة الليل صوته، وحلا نبره، وسلس منه ما كان جامحًا، ولأن ما كان في أول الليل عاصيًا، وأطلقه في آي السورة الكريمة أبيض ناصعًا كأنما صيغ من ذوب الفضة، أو كأنما اعتصر من صفحة البدر ليلة تمامه، لقد أسمعه في سورة طه كل ليلة، وفي كل ليلة يخيل إليَّ أن جبريل ينزل من جديد بسورة طه على محمد ﷺ وهو

(١) عن العدد ٩٨ من السنة الثانية مجلة الثقافة.

يجول في فنون النغم فارسًا خلا من هيبته الميدان، ولايزال كذلك حتى يملأ الآذان طربًا، ويشيع في النفوس ما شاء الله أن يشيع من لذة وأريحية!!).

ويسترسل البشرى الكبير في الوصف استرسالًا يضائل منه أن نشوهه بتلخيص، فليمض إلى استيعابه من يريد.

حفظت القرآن وانتهيت من المدرسة الإلزامية قبل العاشرة من عمرى، ولزمت متجر القماش مع والدى عامين قبل أن ألتحق بالأزهر، وكان من علماء قريتي أستاذ فاضل هو الشيخ إبراهيم الخميسى حال مرضه دون توظيفه، فكان يطيل الجلوس بالمسجد حينًا من اليوم ثم ينتقل إلى متجرنا حينًا آخر، ووالدي في المسجد يقرأ له مجلات الأزهر والإيمان وهدي الإسلام، فإذا حان العصر، وحضر بعد صلاته إلى المتجر شهدت والدى يقرأ معه كتبًا حديثة، وأذكر أن كتاب (محمد المثل الكامل) للمغفور له محمد أحمد جاد المولى قد شغلهما أكثر من عام قراءة واستعادة وتلخيصًا، وكنت أحاول أن أفهم عنهما جهد طاقتي، فلما شهد والدى رغبتي في الفهم، قال لى: سأقرأ بالمسجد مع الشيخ إبراهيم الخميسي كتابًا يناسب عقلك فلتكن معنا عند الضحى! وكان الكتاب هو (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) للشيخ محمد الخضري.

ومنذ هذا العهد وولعي بالسيرة النبوية بخاصة وبالتاريخ الإسلامي بعامة لا يهدأ، وقد شهد والدى أنى أحاول الحفظ مستظهرًا من صفحات نور اليقين، فقال لى: سأدلك على ما تحفظ، وعين لي قصائد لحافظ وشوقى وغيرهما، مختارة من كتاب (جواهر الأدب) فكنت أصعد إلى (دكة) المسجد كل صباح لأحفظ ما يختاره أبى من الشعر! ومازلت إلى اليوم أحاول أن أجد لذة المحفوظ كالأمس فلا أستطعم، وكأن للصبا حاسة تستمرئ وتتذوق وتستطعم ليست للكهولة.

ومن الإنصاف أن أذكر أن خالي الأستاذ الفاضل عبد المطلب أحمد عبد المطلب كان يرشدني إلى معاني القصائد التي اختارها أبي؛ إذ كان كلفًا بالأدب الرفيع، يقرأ الرسالة، وقد مات له ولد فرثاه في جريدة الجهاد رثاء ذا رنين.. كان كلفًا بالأدب ولا يزال.

ثم التحقت بالأزهر، فبدأت أعرف من قضايا العلم في الدين واللغة ما يعرفه الأزهري الصاعد في مراقي السنوات التعليمية من ابتدائية وثانوية وعالية، وبدأت في الوقت نفسه أتصل بعقل والدى اتصالاً مباشرًا، فكنت أشهد مجالسه العلمية حين يفتى في قضايا الميراث والطلاق بالقرية، بل بدأت ألمس ضعفي حين أجده يناقش أخي الأستاذ محمود فهمى البيومي المحامي في كثير من نواحي

الأحوال الشخصية حيث يخوضان في شجون من الفتاوى الدينية لا يلم بها أزهري مثلى على وجهها المطمئن.

وكان أحسن ما يمتعني أن أناقش والدي في مسائل النحو والقراءات، حيث رزق في هذين العلمين حظوة بالغة يحسد عليها، وأذكر أنه قرأ إلى درجة الحفظ كتاب (منار الهدى في الوقف والابتدا) للعلامة الأشموني، فعرف الوصل والفصل في القراءة معرفة ترجع إلى أصولها النحوية الدقيقة! وكم ناقش علماء الأزهر من أصدقائه في فنون من الوقوف يقف عندها قراء الكتاب في الإذاعة ومجالس العزاء دون وجه علمي مريح، وكم كنت ألتمس لبعض الكبار من فنون التخريج ما ينقذهم من الخطأ، فلا يستريح والدي إلا إلى الحق السافر دون احتيال، أذكر أن ابن عمى الشيخ أحمد محمد البيومي قرأ في صلاة الفجر آيات من سورة الإسراء، وتلا فيها قول الله ﷻ:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾

(الإسراء: ٢٠)

ووقف في القراءة عند كلمة نمد، وبدأ بقوله تعالى ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ فثار والدى عليه بعد انتهاء الصلاة ثورة ناقدة، ولكن الشيخ أحمد اعتصم بما جاء في كتاب (منار الهدى) حيث أجاز الأشموني الوقف، فزادت ثورة أبى، وقال في حدة: للأشموني وقوف يجيزها وهى مخطئة

وعندي شواهد كثيرة، وأخذ يضرب الأمثلة، والحق مع والدى في تخطئة هذا الوقف؛ إذ لا يمزق القول هكذا اعتمادًا على تأويل باطل ينكره السياق.

أما دروس أبى بالمسجد في ليالي رمضان، فكانت تراعى مقتضى الحال مراعاة تامة؛ إذ يتبسط مع سامعيه في مسائل من الفقه، وشجون من السيرة، ونبذ من تفسير آيات الكتاب ذات المنحى الخلقي، وأذكر أنه قرأ كتاب (شفاء الصدور في تفسير سورة النور) للشيخ العلامة إبراهيم الجبالي قراءة مستظهرة؛ لأن المؤلف الكبير كان ذا بيان رائع يذكر دارسه ببيان الكبار من أمثال: محمد عبده ومحمد مصطفى المراغي، ومحمد عبد الله دراز، وقد حفظ والدى كل ما نشر الشيخ الجبالي بمجلة الأزهر عن تفسير سور النور والحجرات والرعد ولقمان وكل ما شرحه من أحاديث البخاري ومسلم على صفحات هذه المجلة، وقد ورثت عنه حب هذا العالم العلامة الجليل! وكان من حسن حظى معه أن يكون شيخًا لكلية اللغة العربية وأنا طالب بها، ومما لا أزال أذكره جيدًا أن والدى قد كتب لي خطابًا ينبئني أنه سيحضر إلى القاهرة في يوم محدد، وأن عليَّ أن أستقبله عند وقوف القطار، فكان لا بد أن آخذ تصريحًا بالإجازة من الكلية في هذا اليوم، فذهبت إلى فضيلة الشيخ الجبالي أعلمه أن والدى سيحضر غدًا،

ولابد أن أكون في استقباله، فتبسم الرجل في هدوء، وقال: لن تذهب إلا إذا أعربت قول الشاعر:

وكل رفيقي كل رحل وإن هما ∴ تعاطى القنا قوما هما أخوان

ومن توفيق الله أنى كنت أحفظ القصيدة، وأعرف مناسبتها وقائلها، وأعلم أين المبتدأ في أول البيت وأين الخبر في آخره، فقلت للشيخ مبتسمًا: سأعرب البيت، ولكن عليك أنت أن تذكر مناسبته ومن قائله، فنظر الشيخ وقال مبتسمًا: جئت بآبدة! جئت بآبدة!! قلت: كل: مبتدأ، وأخوان: خبر، وإن هما تعاطى القنا: جملة شرطية معترضة، فصاح الشيخ فرحًا: فتح الله عليك، تفضل يا بنى واذهب إلى لقاء أبيك! وحين حضر والدى وجلست معه حدثته عن سؤال الشيخ لي وإجابتي عليه، ولا أنسى دهشته واستغرابه وهو يحدق متعجبًا ويقول: أتسأل أنت مولانا الشيخ الجبالي؟ أتسأل مولانا الشيخ الجبالي؟.

وقد تعود أبى حين يحضر القاهرة أن يقطع الوقت متنقلاً بين مساجد الحسين والسيدة زينب والإمام الشافعي- رضى الله عنهم- فإذا امتد به الوقت في القاهرة أوى إلى مسجد الدردير بالكحكيين، وكنت أتعجب لانتظاره الطويل في هذا المسجد وحده مصليًا وتاليًا وداعيًا، فيذكر لي أنه مقلد، وأن الكبار من الشيوخ يألفون هذا المسجد؛ إذ يفوح به أرج لا يشمه إلا المتذوقون، ولا أذكر أنه كان يتجاوز هذه الأماكن إلا

مضطرًا لزيارة صديق بمنزل أو عيادة مريض بمستشفى! وإلا ما كان من زيارته لحديقة الحيوان بالجيزة، وهى مهوى الكثيرين.

وطرفة أذكرها عن شغف أبى بالبحث، فقد كنت مع صديقي العالم الأديب الأستاذ توفيق محمد سبع رئيس قسم النحو بكلية اللغة العربية بالرياض نتحدث ذات ليلة، فحضر إلينا من قال: إنه عائد لساعته من الحرم النبوي بالمدينة، وقد صلى الفجر به في اليوم الماضي فسمع قارئًا باكستانيًا يتلو في الحرم آيات من سورة القصص، وقد قرأ قول الله ﷻ:

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾

(القصص: ٩)

فوقف القارئ عن قوله تعالى ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾، ثم سكت سكتة لافتة، وبدأ يقول ﴿ وَلَكَ لَا ﴾ ويرددها كثيرًا، فحصل من الدهشة والروعة ما ملك النفوس؛ لأن قوله تعالى ﴿ وَلَكَ لَا﴾ جاء معبرًا عن خاتمة مستقبلة لحياة جبار طاغية، سمعت هذا القول، فراسلت والدى به لما أعرف من هيامه بمسائل الوقوف، فلم تمض أيام حتى تلقيت منه بحثًا شافيًا عن سر هذا الوقف نحويًا وذوقيًا وروحيًا، فعرضت الخطاب على صديقي الأستاذ توفيق، فقرأه معجبًا، ثم عرضته على صديقنا الداعية الكبير الأستاذ محمد الراوي رئيس قسم التفسير بالكلية، فقرأه

مستريحًا منوهًا! وظل حديث الوالد يتردد بيننا نحن الثلاثة أمدًا غير قصير.

هذا غيض من فيض ما يجب ذكره عن والدى وشغفه بالمسجد ودروس العلم وآيات الكتاب، وقد تلقيت خطابات شتى بعد رحيله، تفضل أصحابها بتعزيتي، وكان من بينها ما كتبه خالى الأستاذ عبد المطلب أحمد عبد المطلب حيث قال من حديث مبسوط شافٍ وافٍ:

(وقد حاولت أن أزوركم بالمنصورة لأقدم واجب العزاء، فحال دون ذلك شدة القيظ وصيام رمضان، والضعف الصحي الذى يلازمني، وكان يثقل كاهلي أن أكتب عزاء في أحب الناس إلىَّ، وأكثرهم وفاء؛ إذ كان الفقيد بما حفظه الله من المعاصي قوى الذاكرة، يقظ الانتباه لكل ما يدور بخاطر جلسائه، ولقد تناقشت معه في آخر زياراتي في مسائل من الميراث وأحكام الطلاق، فوجدته كعهدي به عالمًا ملمًا بدقائق الأمور، قوى الحجة، مستدلاً بالآيات البينات، والأحاديث الشريفة، لم يوهنه المرض الطويل، ولم يضعف ذاكرته أو يبدد بعض معلوماته، وهو الذى استقى العلم من ينابيعه لا لغرض دنيوي، أو شهادة علمية يذكرها الناس، وقد علمت من الشيخ أحمد محمد البيومي أنكم ستكتبون بحثًا عنه تحت عنوان (رجل المسجد) فذكرني ذلك بطرائف كثيرة وقعت لي معه، منها أنني كنت أرافقه

متنزهين على شاطئ النيل بالقاهرة، وكان الجو رائعًا، وقد أذن العصر، فأردت أن نتابع السير بعض الوقت على أمل أن يصادفنا في طريقنا مسجد للصلاة، وإذ بوالدك- رحمه الله- يزأر زئير الأسد، ويكشر معلنًا غضبه، مما جعلني أتلمس السبيل لإرضائه وتنفيذ رغبته، ولم أجد أمامي في ذلك الوقت إلا مطعمًا للفول فدخلته، واستحضرت حصيرًا بسطه صاحب المطعم على الرصيف فأدى والدك الصلاة؛ إذ كان متوضئًا وواصلنا السير إلى الجيزة، فذهب إلى المسجد يصلى ثانية، وقد شعرت بهدوء، وسكينة معه في هذا المكان، وحدثته عن ذلك فقال: إن ملائكة الرحمة تملأ المسجد، فلماذا لا تطمئن يا أخى، والحديث عنه في ذلك يطول، فما أذكر إلا أنى ما طلبته في يوم ما إلا وانتظرته بالمسجد في الكفر الجديد).

ولعل خير ما سمعته عنه بعد وفاته ما حدثني به الأخ العزيز السيد محمد محمد عماشة من وجهاء القرية، إذ قال لي في معرض التعزية، كنت قديمًا اشتغل بالخياطة فإذا جاءتني قطعة من القماش لأفصلها، ووجدتها زائدة عن مقاسها الطبيعي عرفت أنها من محل والدك، لأن الفقيد كان يقيس القماش ويلفه على المتر من الناحيتين ليتأكد من استيفاء المشترى حقه، فكانت الزيادة تأتى من تتابع الطيات.

هذا ما قاله الصديق محمد عماشة، وكنت أعرف ذلك بما أشهد،

ولكن الاعتراف به من شاهد محايد بعد مرور زمن بعيد صادف مني موضع الارتياح، فانسكبت من عيني الدموع.

لقد تقدم والدى بصحيفته إلى ربه، وإن مردنا إلى الله، فليس لي غير أن أسأل له الرحمة، راجيًا أن يوفقني الله إلى الاقتداء بسيرته! وهو رجاء عسير المنال صعب التحقيق، ولكنه أمل أستشرف إليه من بعيد.

خطيب المسجد
مشاهد تاريخية

لخطيب المسجد روعة ومهابة؛ لأنه خليفة رسول الله على منبر الجمعة، يقف موقفه بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه، فإذا كان فصيح العبارة، كامل التقوى، نقى السلوك زاد محبة في معشره، وكان موضع تبجيل وإكبار.

وقد حرص الخلفاء الراشدون ومن تلاهم من خلفاء بنى أمية وبنى العباس أن يكونوا خطباء المنبر يوم الجمعة، وكانوا يميلون إلى الإيجاز إيثارًا للسلامة لدى من لم يرزقوا حظوة التدفق والانسياب، وقد كان عبد الملك بن مروان من بلغاء عصره وناقديه، ولكنه قال في اعتراف لا يقلل من مكانته سئل لماذا أسرع إليك الشيب؟ فأجاب: وكيف لا يسرع وأنا أصعد المنبر كل أسبوع لأعرض عقلي على الناس!.

وفى منتصف القرن الثالث من الهجرة تراخى الخلفاء عن خطبة الجمعة، وعهدوا بها إلى ذوى اللسن من العلماء، ولكن خلفاء الفاطميين في مصر تمسكوا بالخطبة وحرصوا عليها، حتى قيل: إن الحاكم بأمر الله كان يوزع خطب الشهر على أربعة مساجد من مساجد القاهرة هي مساجد: عمرو، وابن طولون، والأزهر، والجامع الحاكمي.

وفى كتب الرحلات مشاهد تاريخية لبعض من شاهدهم مؤلفو هذه الرحلات من الخطباء، وهى تبين هيبة الخطيب، وشدة اهتمامه بموقفه، وكيف ينتظر السامعون مقدمه في هيبة، وسنوجز بعض هذه المشاهد نقلاً عن ابن جبير؛ لأن من تلاه من الرحالة قد حذا حذوه حتى ليخيل إلىَّ في بعض المواقف أنه ينقل منه، ولذلك كان الرجوع إلى الأصل الأول أوجب وأحق، شاهد ابن جبير بيت الله بمكة، وتحدث عن الخطابة الدينية في أكثر من موضع[1]، فذكر أن منبر الخطيب يقوم على بكرات أربع ليسهل انتقاله، فإذا كان يوم الجمعة ضم إلى صفح الكعبة الذى يقابل المقام، ثم يقبل الخطيب داخلاً من باب النبي ﷺ، وعليه عمامة سوداء، وطيلسان حريري رقيق، وذلك من كساء الخليفة التي يرسلها للخطباء، وقد جعل يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما مؤذنان قويان، وبين يديه أحد الخدم، وفي يده عود مخروط أحمر، قد ربط في رأسه حبل مفتول طويل، وفي طرفه عذبة ينفضها بقوة فتحدث صوتًا عاليًا، كأنه إيذان بوصول الخطيب لمن لم يره، ولا يزال ينفضها بقوة، فإذا قرب الخطيب من المنبر، عرّج على الحجر الأسود فقبله، ودعا عنده، ثم سعى إلى المنبر، ووراءه المؤذن ومعه السيف، فحين يرتقى الخطيب أول درجة من منبره ضرب بسيفه المنبر، وقد أخذه من

(١) رحلة ابن جبير، ص ٧١.



المؤذن، ثم يرتقى الثانية والثالثة والرابعة وهو يضرب بسيفه موقظًا منبهًا، ثم يستقبل القبلة بدعاء خفى، ويتلفت عن يمينه وشماله قائلاً: السلام عليكم، ويقعد، فيبادر المؤذنون بالأذان بين يديه على لسان واحد فإذا انتهوا قام للخطبة وتلاها، وفي أثناء التلاوة تركز رايتان سوداوان في أول درجات المنبر، ويمسكهما مؤذنان قويان، فإذا فرغ من الصلاة بعد الخطبة خرج والرايتان عن يمينه وشماله، والفرقعة من الحبل المفتول تعاد ثانية على الهيئة التي دخل بها، وكان ذلك إيذان بانصراف الخطيب، ورجوع المنبر إلى مكانه المعتاد.

هذا مشهد من مشاهد يوم الجمعة، أما غيره من مشاهد الخطابة فنمثلُ له بما كان يحدث في العشر الأواخر من رمضان حين يحتفل المكيون كل ليلة بغلام أتم حفظ القرآن، واستعد والده أن يشهر حفظه في احتفال مشهود، كما جرت عادة المكيين.

يقول ابن جبير[1]: وجاءت ليلة ثلاث وعشرين، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار، غلامًا لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالاً بديعًا؛ إذ أعدّ ثريا مصنوعة من الشمع على هيئة الغصون، وقد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة، وأعد لها شمع كثير جدًا، ونصب شيء على هيئة المحراب المربع،

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٣٠ بتصرف.

وازدان بالقناديل والمصابيح على وجه يبهر العين، ووضع منبر بمقربة المحراب، وحضر الغلام المحتفل به فصلى التراويح بالناس، وهو لا يكاد يرى من كثرة ما أحيط به من الشموع، ثم برز من محرابه في أفخر ثيابه، مكحل العينين، مخضوب الكفين، فلا يكاد يسير من كثرة الزحام إلا بجهد، فيحمله أحد السدنة إلى ذروة المنبر، فيستوى باسمًا، وَيَقْعُدُ بين يديه القراء يتلون بلسان واحد، فإذا وقفوا عند انتهاء سورة قام الخطيب فصدع بخطبة تحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع، لا من جهة التذكير والتخشيع، وبين يديه نفر يمسكون أحمال الشمع بأيديهم، ويرفعون أصواتهم: يا رب يا رب، عند كل فصل من فصول الخطبة يكررون ذلك، ثم يبتدر القراء تلاوتهم من جديد فيسكت الخطيب إلى أن ينتهوا ليعود فيستأنف خطبة جديدة تحمل الرقائق، ثم يتحدث عن البيت العتيق وزمزم والمقام مشيرًا إلى أمكنتها المباركة، ويودع الشهر المبارك وينزل محفوفًا بالفرحة والاستبشار).

واستمر ابن جبير يعرض مثل هذه المشاهد لحفلات ختم القرآن، وخطب الغلمان، وبلغ الغاية كل الغاية حين وصف احتفال ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان، وبعد أن أسهب في وصف الشموع والقناديل والمشاعل والأعواد قال[1] – بتصرف-:

(١) ابن جبير، ص ١٣٤.

(وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة، وقد وضعت بيد كل منهم كرة من الخرق المشبعة زيتًا، فجعلت كل طائفة تباري صاحبتها في سرعة الإيقاد، فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة، لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المتلألئ، ويرفعون أصواتهم يا رب يا رب، على لسان واحد، فيرتج الحرم لأصواتهم، فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر، كاد يعشي الأبصار شعاع تلك الأنوار، فلا تقع لمحة طرف على نور، يشغل حاسة البصر عن استمالة النظر، فيتوهم المتوهم لهول ما يعانيه من ذلك، أن تلك الليلة المباركة نزّهت لشرفها عن لباس الظلماء فزينت بمصابيح السماء.

وتقدم القاضي فصلى فريضة العشاء الآخرة، ثم قام، وابتدأ بسورة القدر، لو كان أئمة الحرم في الليلة قبلها قد انتهوا في القراءة إليها، وتعطل في تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح، تعظيمًا لختمة المقام، وحضروا للمشاهدة، وكان المقام قد أخرج من مكانه، ووضع في هذا المحل مستورًا بقبته، فختم القاضي بتسليمتين، وقام خطيبًا مستقبلاً البيت العتيق، فلم نتمكن من سماع الخطبة لكثرة الزحام، وضوضاء العوام، فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة التراويح، وانفضت الجموع، والنفوس قد استطارت خشوعًا، والأعين قد سالت دموعًا).

تلك بعض مشاهد ابن جبير في مكة، وفيها دلالة الاحتفاء

بالخطيب والخطبة، وعظيم التقدير والاهتمام بحفظ كتاب الله، والاحتفال باختتامه في المسجد في يوم مشهود، وإذا كان الغلام قد احتفل بحفظه للكتاب، فقد أدى أول درس عملي للخطابة على ملأ من الناس، فكأنه يفتتح عهدًا جديدًا يبشر بانتمائه للعلم والعلماء، أما فرحة الأهل بما يبشر به هذا الصبى من غد مثمر بالعلم، فقد تجلت فيما أعدوا من شموع ووزعوا من خير ودعوا من أناس! والمسجد بعد ذلك كله هو مسرح التلاوة والخطبة، وموضع الاحتفاء والبهجة، وموضع الأمل الموعود لكل أب يرى في ابنه قرة عين، وكل ابن يحاول أن يكون كما ظن به الأهل رجل هدى وداعية إسلام.

لقاء الجمعة كما ينبغي أن يكون

يخيل إليَّ أن لقاء الجمعة الأسبوعي يجرى على غير وجهه التام في كثير من بلاد الإسلام، فقد أصبح في أكثر أحواله أمرًا آليًا يؤدى كما يؤدى أي عمل تقليدي، دون أن يثمر فائدته المرجوة المنتظرة، فكل المسلمين يعلمون أن صلاة الجمعة فرض عين على من توفرت فيه شروطه، لا يغنى فيه أحد عن أحد ومفهوم هذه الفريضة عند الأكثرية الكاثرة أن يحين وقت الصلاة فيسرعوا إلى المسجد ليستمعوا إلى كلمات تقال، ثم تقام الصلاة فيؤديها المسلمون، فإذا فرغت هبوا ينتشرون في الأرض، وقد اعتقدوا أنهم أدوا الفريضة الواجبة الأداء، بل إن بعض الناس ليستمع المؤذن فيتقاعس، ويظل منتظرًا في مكانه حتى يمرّ وقت يخيل إليه معه أن الخطيب قد فرغ من الخطبة الأولى وانتقل إلى الثانية، فيسرع إلى الوضوء ليدخل المسجد وقد قامت الصلاة، إن هذا تصوير واقعي لما يحدث يوم الجمعة! أفكان ذلك ما عناه الشارع الحكيم حين فرض على المسلمين هذا اللقاء الأسبوعي المهم؟ أم أننا نغفل روح الفريضة مكتفين بالشكل الظاهري للأداء؟!

أعتقد أن لقاء الجمعة مؤتمر أسبوعي يحتمه الإسلام بين أهل القرية أو الحي أو المدينة ليتلاقوا جميعًا على حالة يتضح فيها الالتئام المتماسك، فتتصافح الأكف، وتتعارف الوجوه، ويسأل عن الغائب لم

تأخر؟ أمسافر فيعذر؟ أو مريض فيزار، أم مأزوم فيسارع لفك ضيقه، فإذا اكتمل الجمع وأزف الموعد المحدد نهض الخطيب فحدث القوم بما يشعرون به من إحساس؛ إذ يبسط مشكلات الساعة في ضوء القرآن الكريم، والسنة المحمدية، وقد يكون الحديث محليًا إذا اتجه لمشكلة تتعلق بالحي، كانتشار مرض أو اختفاء سلعة أو ترويج إشاعة لا أساس لها، أو دعوة لإصلاح محصول زراعي، أو إسهام في مشروع حيوي، وقد يكون الحديث وطنيًا إذ اتجه إلى أمر يشغل بال الدولة، وتتلمس فيه أوجه الهداية والإرشاد، وقد يكون الحديث عن غير هذا وذاك مما يجذب انتباه السامعين، ويفسح أمامهم مجال التفكير، فإذا انتهت الخطبة وفرغت الصلاة نهض المصلون ليتعاونوا على البر والتقوى، وليبدوا الرأي فيما ذكر الخطيب، وما يشغل البال من أحداث، باذلين أقصى الجهود في تذليل العقاب وتيسير الصعاب، ومترقبين أن يكون اللقاء القادم تحقيقًا لأمل يرجى، وارتقابًا بالخير يتاح بما يبذل من عون ويقدم من مجهود.

هكذا كان اللقاء الأسبوعي على عهد رسول الله ﷺ، وفي الصدر الأول من الإسلام، يخطب القوم صاحب الأمر فيوجه ويرشد، ويتعاون السامعون على الطاعة في الخير، وتتدارس معاضل الفتوح والغزو، ويلم المسلمون بما يدور حولهم من أحداث، ويشيرون بما

يجب من حلول، ثم اتسع ظل الإسلام وامتد فأصبح في كل قرية مسجد، وفي كل مسجد خطبة، ولكن الروح غير الروح، والعمل غير العمل، وإن بقى الشكل الظاهري للشعيرة الأسبوعية تقليدًا باهت اللون، خابي الضياء!

وإذا كان لكل عصر ملابساته وظروفه، فليس من المنتظر الآن أن تكون المساجد محافل سياسية، ومجامع إدارة، كما كان المسجد النبوي بالمدينة، ولكن الذى يجب أن يكون هو أن نهيئ لهذا المؤتمر الأسبوعي الكريم ما يكفل جدواه الدينية والاجتماعية، العلمية والخلقية، فيصبح مؤكدًا لصلات المسلمين، وداعيًا إلى التحاب والتواد، فيسأل عن الغائب، ويسعف المحتاج، ويزار المريض.

قلت: إن لقاء الجمعة في روحه الأصلية ذو جدوى محتومة من الناحية العلمية؛ لأن الخطيب يتحدث بلسان الدين، ويلقى هديه في ظلال القرآن الحكيم والحديث الشريف وسير السلف الصالح، فكل مشكلات المجتمع وأدواء الناس تعالج تحت مصباح القرآن وترصد من مجهر شريعة الإسلام، وقد فرض الإسلام خطبة الجمعة أسبوعيًا لغرض ثقافي هادف، فالمسلم العاقل إذا بدأ الصلاة في الخامسة عشرة من عمره مثلاً، فإنه سيستمع كل عام إلى خمسين خطبة دينية ثقافية، فإذا قضى عشر سنوات تالية فلن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره

حتى يكون قد أصغى إلى خمسمائة خطبة دينية، هذا غير ما لا يدخل في الإحصاء من خطب العيد ومجالس الوعظ في رمضان وغيره بالمسجد، وهى مما يحرص عليه الأئمة واعظين والمصلون موعوظين، وقد فرضت وزارات الأوقاف في أكثر بلاد الإسلام هذه الدروس الدينية كل يوم فرضًا! فأين أثر خمسمائة خطبة دينية، إذا فرضنا أن أحدًا لا يسمع غير الخطبة الإجبارية عند الصلاة الأسبوعية؟ أين أثر هذه الخطب وهى خمسمائة لدى الشاب المسلم في الخامسة والعشرين؟

لقد كان من المنتظر في مدى سنوات عشر أن يصبح السامع لهذه الخطب ملمًا بروح الشريعة الإسلامية، فاهمًا مزايا دينه؛ لأن الدين الإسلامي من البساطة والجنوح إلى الفطرة بحيث تتقبله الصدور السليمة بانشراح في مدى متقارب، ولقد كان المشرك الكافر يجلس بين يدى رسول الله ﷺ أو بين يدى تلاميذه الأفذاذ من أمثال أبى بكر وعمر وعلىّ ساعة من الزمن يستمع إلى أهداف الدين الجديد، فيطمئن قلبه إليه وينطق بالشهادتين على اقتناع، ويصير داعية طلق اللسان قوى الإيمان؟.

فكيف أصبحنا نرى المسلم يقضي من عمره خمسين عامًا يستمع فيها آلاف الخطب الدينية، ثم نراه بعد ذلك لا يلم بروح الدين، ولا

يستطيع أن يتحدث عن فضائل الإسلام، وبذلك تحجر الهدف الأول من إلقاء الخطبة الأسبوعية، وكادت الخطبة تصبح مظهرًا لا روح فيه؟!

كيف ضعف تأثير الوعظ المنبرى والبيان الديني في أكثر ما نسمع الآن؟! إننا نرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى عاملين متعارضين: عامل العيّ المفرط لدى متكلم يقتضب فيخل، وعامل الثرثرة الهاذرة لدى متكلم يفيض في الكلام دون تحديد، متماوتًا في صيغة ترتيلية لا يعرفها فن الإلقاء، فيطفئ بها ما كان ينبغي أن يضيء، ولا يزال يكرر ما يقول عامًا وراء عام دون أن يحدث نفسه بتغيير منهج، ودون أن يقدر تبعته في تثقيف السامعين، بحيث أصبح المؤذن العامي ينوب عنه إذا غاب، فلا يفقد السامعون شيئًا ذا بال؛ لأن الخطيب يقول ما يحفظ من كتاب، والمؤذن يقرأ من صفحات هذا الكتاب نفسه دون اختلاف!!

هذا هو الخطيب العييّ، أما الخطيب الثرثار فأمره أعجب، فقد وقر في نفسه أن جلجلة الصوت وانطلاق اللسان، وامتداد الزمن، هي وحدها وسائل التوفيق، فتراه يهدر بالقول المسهب في شتى الموضوعات دون تحديد؛ إذ ينتقل من الصلاة إلى الزكاة إلى الصوم إلى الحج ثم يترك العبادات ليكر على الزنى والربا والغيبة في انثيال، والسامع اليقظ في هذا الطوفان المُزبد يتطلب الجديد فلا يجد، أما

السامع الغافل فيرى الخطبة أحد الأركان الضرورية لصلاة الجمعة وسيلة لا غاية، وعليه أن يصبر لسماعها حتى يؤدى الركعتين فيفرغ من الفريضة، وبين الخطيب العييّ والخطيب الثرثار ضاعت مزية الخطبة، وأصبحنا نجد الأمية الدينية صارخة لدى المسلمين، وأكثرهم ممن يحرص على استماع الخطبة طول عمره أسبوعيًا دون أن يجد في حديث المسجد ما يقشع ظلامه، وينير ذهنه، وكأن الأمر لا يعدو كلمات تقال في مناسباتها دون أن تشرق بمعرفة أو تبصر بتوجيه.

كنت أستمع ذات مرة إلى خطيب جهير السمعة، طنان الدوي، في أحد مساجد القاهرة الكبيرة، وقد توقعت بادئ ذي بدء أن أجد لديه المثال الناضج للموعظة البصيرة، والقول المركز، والتحديد الهادف، ولكنى وجدته بدأ يحمد الله وثنى بالصلاة على رسول الله، فإذا انتهى إلى القولة الذائعة- أما بعد- تلا قول الله ﷻ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا

ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ (المؤمنون: ١ – ١٤)

وبدأ فأخذ يشرح في اقتضاب معنى فلاح المؤمنين، وكيف يخشعون في الصلاة بعد الحث عليها، وانتقل سريعًا إلى الإعراض عن اللغو، ثم إلى الزكاة وحكمتها، ثم إلى صيانة الفروج ومحاربة الزنى إلى حفظ الأمانة وذم الخيانة وأعاد القول ثانية في الصلاة حين وصل لقول الله:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (المؤمنون: ٩)

وجاءت آية الجنة فتحدث عن نعيمها وعن ميراث الفردوس والخلد فيه، ثم انتهى إلى خلق الإنسان من نطفة بعد السلالة، ثم مصيره إلى علقة فمضغة فعظام فلحم فخلق آخر!

فانظر كم طرق من الموضوعات حين ألم بالصلاة والزكاة ومجانبة اللغو وتحريم الزنى ودعا إلى الأمانة والمحافظة على الصلاة ثانية، ثم اقتضب حديث الخلق منذ الجنين إلى تمام التكوين! وماذا سيستفيد السامع من دقيقة تتحدث عن الصلاة ودقيقتين تتحدثان عن الزكاة، وهكذا دواليك!

أنا لا أمنع أن تفسر آية كريمة على منبر الجمعة، ولكن أوجب أن

تكون الآية الكريمة مستقلة بغرض واحد ليتسع المجال إلى شرح معناها وإظهار هدفها والاقتباس من نورها، فأنت مثلاً تحب أن تستمع من منبر الجمعة إلى تفسير آية ذات منحى محدد مثل قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ (الحجرات: ١١)

لأن الخطيب الموفق يحضر مقاله في مجال حيوي، ويجد من الوقت ما يسمح له بالإفاضة في حديث السخرية المذمومة بين الناس، داعيًا إلى مجانبة اللمز والتنابز، مستعينًا بما يرفده من حديث الرسول ﷺ وأقوال الأخلاقيين! فيروى ظمأ ويشبع نفوسًا، ويقدم ثمرًا مستطابًا إلى نفوس تتطلب الخير وتشتهيه، أما أن نتكلم في غير موضوع فوا أسفاه!

لا ننكر أن تقدم الزمن قد هيأ السبل لإنشاء كليات الدعوة ومعاهد الوعظ في كثير من بلاد الإسلام بحيث استطاعت هذه المعاهد أن تخرج أفواج الخطباء من المؤهلين، وكان الظن بهم أن يرتقوا إلى مكان الجودة الخطابية، وقد حقق بعضهم كثيرًا مما نرجوه دون جدال، ولكن نفرًا من هؤلاء يميلون إلى الدعة الهادئة، فلا يبذلون من نفوسهم

ما يشرفون به لدى السامعين، وكأن الذى تلقوه في معاهد التوجيه شيء والذى يقال في مضمار العمل الرسمي شيء آخر.

وإذا استطاعت معاهد الدعوة وكليات الوعظ أن تعطى الشهادة على التحصيل الجيد، والحفظ المتشعب، فلن تستطيع أن تعطى الشهادة على الإيمان الحافز والغيرة الملتهبة! فتلك من صنع الله، وهذا ما نرجوه أن يتوفر في الدعاة جميعًا بتوفيق الله.

عبد الرحيم بن نباته

اشتهر بالخطابة الدينية كثير من علماء الإسلام، ولكنّ ديوان ابن نباته الذى جمع خطبه الرائعة كان ذا حظوة بين الناس، وقد اهتم به ناقد كبير هو ابن الأثير، فأثنى عليه ثناء مستطابًا، وإذا ارتفعت الخطبة الدينية إلى مستوى النص الأدبي الرائع الذى يجذب انتباه ابن الأثير وأمثاله، فصاحبها إذن أديب كبير.

وقد أخذ الدكتور زكى مبارك على ابن نباته في الجزء الثاني من النثر الفني[(١)] أنه دائمًا يقف في حدود الأفكار السطحية، وهذا ظلم بيِّن؟ لأن مراجعة ما لدينا من آثار ابن نباته تدل على أنه ذو خيال وفكر! ولكن فكره فكر الخطيب الذى يضطر إلى مخاطبة الناس جميعًا، وأكثرهم من العامة، فلو أنه أوغل في العمق وغلغل في النظر ما استجاب إليه غير القليل من الأذكياء، والخطبة الدينية ذات عموم شامل، ولن يكون صاحبها موافقًا لمقتضى الحال البلاغي إلا إذا ملك قلوب السامعين أو أكثرهم، والعامة هم الأكثرية، فكيف لا يبادههم ابن نباته بما يفهمون، ولعل الدكتور مبارك قد راجع نفسه مراجعة ذاتية، حين قال في خاتمة بحثه:

(١) النثر الفنى، ج٢، ص١٦٥.

(ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباته أن يملك ألباب الجماهير بخطبه، وعرف كيف تساس العامة، وكيف يغرس في قلوبها بذور التقى والإباء، واستطاع أن يؤدى الأغراض المرجوّة من مثله في تعابير فصيحة، لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت مثالاً في براعة الإنشاء، وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق في مخاطبتها عيّ، والتدلي في إفهامها إفصاح، ولكل مقام مقال.

برز ابن نباته في عصر سيف الدولة الحمداني، وهو عصر الجهاد الحربى بين المسلمين والروم، ويتطلب خطيبًا يلهب الحماسة، ويشعل الحمية بين الجمهور، وقد عرف ابن نباته واجبه الخطابي، فنهض به على أحسن وجه، وصادف من التوفيق ما أصبح به مضرب المثل بين النظراء.

والرجل في أطواء نفسه مخلص ورع تقى، فكان يمتاح من بئر صافية ذات نبع دافق، وأنه يَبْلُغُ موضع التأثير في النفوس حتى يقول في منحى الجهاد والاستبسال.

(إن للجنة بابًا حدود تطهيره الأعمال، وتشييده إنفاق الأموال، وساحته زحف الرجال إلى الرجال، وطريقته غمغمة الأبطال، ومفتاحه الثبات في معترك القتال، فاستشعروا السكينة إذا كشفت الحرب نقابها، وأطار الإقدام عقابها، وأحرّ اللطام ضرابها، وأمرّ الحمام شرابها، ونزلتم

للجهاد منزلاً قد أشرعت إليه الجنة أبوابها، وطالعت الحور الحسان منه أحبابها، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خطابها، وصرخ الشيطان بطغام أعوانه، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه، وهوّل باحتشاد عبدة صلبانه، وضمن لهم ما هو محفز من ضمانه، وجاء الحق وبطل النفاق، وانسدت بجيش العدو الجهات والآفاق، فأخمدوا هناك بصواعق العزمات وهجه، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه، واضربوا ببيض الصفاح ثبجه، وأركبوا بذل الأرواح لججه، وانهبوا بالموت الصراح مهجه).

ومثل هذا الكلام المنمق المسجوع لا يكون ارتجالاً، ولكنه أعد إعدادًا، والخطيب الموفق لا يعد أفكاره فقط، ولكنه يعد ألفاظه، وتعبيراته، ويخلو إلى نفسه ليوشي حديثه بضروب التأثير من سجع وازدواج، كما يستعين بأدوات الخيال من تشخيص وتمثيل، والخطيب لم يشذ عن طابع عصره الفني حين راعى فنون البديع مراعاة داعية، ولكل عصر سمات، وبين أيدى الناس كتاب يعرف بخطب ابن نباته مدلس عليه، وليس له، إذ إن بعض الوصوليين أراد أن يستغل سمعة ابن نباته التاريخية، فوضع للعامة خطبًا رديئة عزاها لابن نباته كي تروج، والعامة المعاصرون لا يرتفعون إلى مستوى ابن نباته البياني، فزوّر لهم ما يألفون، وهو عمل لا يقرّه الضمير الأدبي، ولكننا نشير إليه آسفين.

أما العامة في عصر ابن نباته فكانوا يهيمون بأسجاعه وازدواجه؛ لأن لصلصلة الأسجاع ورنين الازدواج ما يخلب الأسماع، كما أن لتوالى الصور البيانية على معراج الخيال ما يؤثر في النفوس فتخضع لأفكار الخطيب خضوعًا يميل بها أنى مال، وقد كان ابن نباته واثقًا من إخلاصه، صادقًا في هديه، وأحلام المرء دليل على منزعه واتجاهه.

وقد روع صاحب (وفيات الأعيان) حلمًا تحدث عنه ابن نباته، فقال: «لما عملت خطبة المنام، وخطبت بها يوم الجمعة، رأيت ليلة السبت في منامي كأنى بظاهر (ميا فارقين) عند الجبانة، فقلت: ما هذا الجمع؟ فقال لي قائل: هذا النبي ﷺ ومعه أصحابه، فقصدت إليه أسلم عليه، فلما دنوت منه التفت فرآني، فقال: مرحبًا يا خطيب الخطباء، كيف تقول؟ وأومأ إلى القبور، فقلت: لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأسًا مرة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرَّة، وآلى عليهم الدهر ألية برة، ألا يجعل لهم إلى الدنيا كرة، كأنهم لم يكونوا للعيون قرَّة، ولم يعدوا في الأحياء مرة، أسكتهم الله الذى أنطقهم، وأبادهم الذى خلقهم، وسيجددهم كما أخلقهم، ويجمعهم كما فرقهم، يوم يعيد الله خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا، وأومأت بقولي: «يوم تكونون شهداء على الناس» إلى الصحابة، وبقولي «شهيدًا» إلى رسول الله:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠)

فقال لي: أحسنت، أحسنت، اُدْنُ، فدنوت، فأخذ وجهى فقبله!

ويخيل إليّ أن الخطيب كان يحفظ خطبة عن ظهر قلب، وكان مما يحفظ خطبته عن أهل المقابر، فحين سأله الرسول في منامه أجاب بما حفظ، وإلا فكيف استطاع أن يسجل ما قال، وهو منمق مسجوع بعد أن انتهى من الحلم، وقام من الرقاد!

ومن روائع ما قال ابن نباته في مجال التذكير يوم القيامة قوله[1]:

«أيها الناس، أقلقوا القلوب عن مراقدها، واعدلوا بالنفوس عن موارد شهوتها، وذللوا جوامحها، بذكر هجوم مماتها، وتخيلوا فضائحها يوم تعرف بسماتها، وترقبوا داعيًا من جو السماء تنشر به الرمم، وتحشر له الأمم، وتزول معه التهم، ويطول عنده الأسقام والندم، يا له داعيًا أسمع العظام البالية! ومناديًا جمع الأجسام المتلاشية، من حواصل الطيور، وبطون السباع، وقرار البحور، ومتون اليفاع، حتى استقام كل عضو في موضعه، وقام كل شلو من مصرعه! فنهضتم أيها الناس لميقات الكرة، بوجوه من هبوات الثرى مغبرة،

(١) خطب ابن نباته، ص ٦٩ وما بعدها.

والـوان مـن هـول مـا تـرى مصـفرة، حفـاة عـراة كمـا بـدأكم أول مـرة، يسمعكم الداعي وينفذكم البصر، قد ألجمكم العرق، وغشيكم القتر، ومـادت الأرض فهـي بمـا عليهـا ترجـف، وبسـت الجبـال، فهـي بريـاح القيامة تنسف، وشخصت الأبصار، فما ترى عين تطرف، وغـصَّ بأهـل السـماء والأرض الموقـف، فبينـا الخلائـق يتوكفـون[1] حقيقـة أنبائهـا وقوفًـا، والملـك علـى أرجائهـا صـفوفًا، إذ أحاطـت بهـم ظلمـات ذات شعب وغشيهم منها شواظ نحـاس ولهـب، وسـمعوا لهـا جرجـرة زفيـر مصطخب، يفصح عن شـدة تغـيظ وغضـب، فعنـد ذلـك جثـا القـائمون علـى الركـب، وأيقـن المجرمـون بالعطـب، وأشـفق الـبرآء مـن سـوء المنقلـب، وأطـرق البنـاء لسـلطان الرهـب، ونـودى: أيـن عبـد الله وأيـن أمته؟ أين المسوف نفسه بخديعته؟ أين المختطف بالموت علـى غرتـه، فعرف من بين الخلائـق بسـمته، وأحضـر لتصـفح صـحيفته، والموافقـة على ما أسلف مـن مدتـه، مطالبًـا بإقامـة حجتـه، مروعًـا بـين يـدى عـالم خفيه، بوقع خطاب كالصواعق، ولذع عتاب كالمقامع، وشـهادة كتـاب للفضائح جـامع، وصـحة حسـاب للمعـاذير قـاطع، فخـاب– والله– مـن كان على نفسه مسـرفًا، ولـم يجـد مـن خلطائـه منـيلاً ومسـعفًا بـل وجـد الحاكم له وعليه عدلاً منصفًا.

(١) يتوكفون الأخبار: أي ينتظرونها ويسألون عنها.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾

(الكهف: ٥٣)

وهذه الخطب وأمثالها في حاجة إلى ناقد أدبي يوازن بينها وبين خطب علي بن أبى طالب في نهج البلاغة ليهدي إلى نور مبين.

المحتويات

الموضوع الصفحة

المسجد في الإسلام
عبادة وثقافة

الجزء الثاني

للأستاذ الدكتور

محمـــد رجب البيومـــي

من كبار علماء الأزهر الشريف

(ت ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)

إشـــــراف

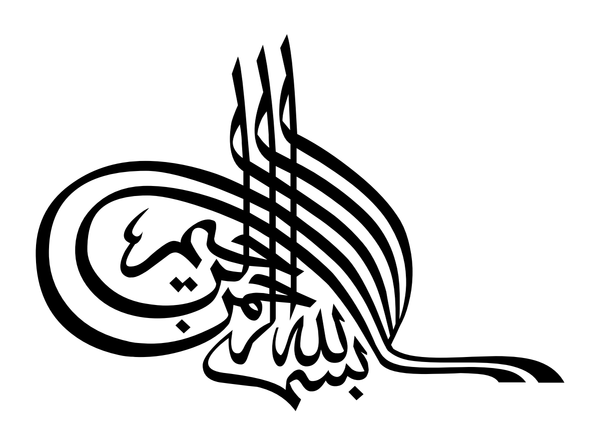
أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

البيومي، محمد رجب
المسجد في الإسلام عبادة وثقافة، ج٢
الأزهر الشريف ـ مجمع البحوث الإسلامية
١ـ واعظ المسجد .. مشاهد تاريخية
٢ـ الوعظ الديني
٣ـ قاص المسجد
١٤٦ص، ٢٠سم
العنوان: مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٢٧٤٥٩/ ٢٠١٧
الترقيم الدولى: ٢-٦٧-١-٥٠٠١-٩٧٧-٩٧٨



واعظ المسجد

مشاهد تاريخية

كانت مواسم العبادة في أيام الجمع، وشهور رمضان، وعهود الذكريات الدينية في ليالي العيد، وأول محرم، وأوقات العصر من رجب وشعبان محافل دينية في المسجد؛ إذ يتصدر الوعاظ في الحلقات الغاصَّة بالجماهير لهداية الناس وتذكيرهم بالرقائق، ولهم في كل بلدة أتباع وتلاميذ يلاحقونهم أينما شرحوا ووعظوا، وفيهم من يتأنق في ملبسه ومظهره ومن يخشوشن ويتقشف.

فأبو الحسين بن سمعون البغدادي (ت٣٩٧هـ) كان واعظًا جهيرًا، وكان من عادته أن يلبس أحسن الثياب، ويأكل أطيب الطعام، فقال له رجل: كيف هذا، وأنت تدعو الناس إلى الزهد في الدنيا والترك لها؟ فقال له: «إذا صلح حالك مع الله فالبس لين الثياب، وكُل أطيب الطعام"، أما زميله واعظ بغداد أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازي (ت٤٣٩هـ) فقد كان مخشوشنًا متقشفًا، يلبس المرقعات، ويصحب الفقراء في مبدأ أمره، ثم نَزَع إلى الأبهة وجلال المنظر، فحشد الناس خلفه، وصار له أتباع كثيرون[1].

---

(١) «الحضارة الإسلامية»، لآدم متز (٢، ص ٨٤)، ترجمة الدكتور أبو ريدة.

وكما نقلنا عن ابن جبير بعض مشاهد الخطابة والخطباء، نروى عنه بعض ما شاهده من مجالس الوعظ والواعظين، إذ كان- رحمه الله- ذا اهتمام بكل ما يسمع في المسجد من خطب ومواعظ، ومن يشاهد من خطباء وواعظين، وقد تحدث عن مجلس رائع شهده بالمسجد النبوي وقد زارته بعض زوجات الملوك العظام، وجلست من وراء الستر تسمع إلى وعظ رئيس الشافعية صدر الدين الأصفهاني في أوائل العام من المحرم (٥٨٠هـ)، وقد أَعَدَّ لرئيس العلماء كرسيًّا بإزاء الروضة المقدسة، فصعده، وحضر قراؤه أمامه، فابتدروا القراءة بنغمات عجيبة، وتلاحين مطربة مشجية، وهو يلحظ الروضة المقدسة فيعلن البكاء، ثم أخذ في خطبة من إنشائه سحرية البيان، وسلك في أساليب من الوعظ باللسانين اللسان العربي، واللسان الفارسي، وأنشد أبياتًا بديعة من قوله؛ منها هذا البيت، وكان يردده في كل فصل من ذكره ﷺ، ويشير إلى الروضة:

هاتيك روضته تفوح نسيمًا ∴ صلوا عليه وَسلِّمُوا تسليمًا

واعتذر من التقصير لهول هذا المقام، وقال: عجبًا للأعجم كيف ينطق عند أفصح العرب، وتمادى في وعظه إلى أن أطار النفوس خشية وَرِقَّة، وتهافت عليه الأعاجم معلنين التوبة، وقد طاشت ألبابهم، وذهلت عقولهم، فيلقون نواصيهم بين يديه، فيستدعى

جَلَمَيْن[1] (مقصين) ويجز الشعور ناصية ناصية، ويكسو عمامته المجزوز من الناصية؛ فتوضع عليه للحين عمامة أخرى من أحد قرائه، ممن عرف منزعه الكريم في ذلك، فبادر بعمامته، لاستجلاب الغرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم، فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى إلى أن خلع منها عدة، وجَزَّ نواصي كثيرة.

ثم ختم مجلسه بأن قال: يا معشر الحاضرين، قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله ﷻ، وهذه الليلة بحرم رسوله، ولا بد للواعظ من كديه، وأنا أسألكم حاجة إن ضمنتموها لي، أرقت لكم ماء وجهي في ذكرها، فأعلن الناس كلهم بالإسعاف، وشهيقهم قد علا، فقال حاجتي أن تكشفوا رءوسكم وتبسطوا أيديكم ضارعين لهذا النبي الكريم في أن يرضى عني، ويسترضى الله ﷻ، ثم أخذ في تعداد ذنوبه والاعتراف بها، فأطار الناس عمائمهم، وبسطوا أيديهم للنبي ﷺ، داعين له، باكين متضرعين، فما رأيت ليلة أكثر دموعًا، ولا أعظم خشوعًا من تلك الليلة»[2].

وعادة جز النواصي، وحلق الشعور عند الوعظ مشتهرة في التاريخ، وقد شاهدها ابن جبير مرة ثانية في بغداد، كما شاهدها في المدينة حيث

(١) «المعجم الوسيط»، باب: الجيم (١/ ١٣١).
(٢) «رحلة ابن جبير»: (ص ١٨٧).

حضر مجالس الوعظ التي يعمرها الإمام ابن الجوزي، ووصفها وصفًا بديعًا متعددًا، وقد تحدث عن عظمة ابن الجوزي بما بهر وأدهش، فقال[1]:

شاهدنا مجلس رجل، ليس من عمرو، ولا زيد، وفى جوف الفرا كل الصيد، آية الزمان، وقرة عين الإيمان، ورئيس الحنبلية، إمام الجماعة، وفارس الصناعة ... وبعدما أفاض كثيرًا في مثل هذه النعوت الباهرة قال: ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، أنه يصعد المنبر، يبتدئ القراء بالقرآن، وعددهم نُيِّف على العشرين قارئًا، فينتزع الاثنان منهم والثلاثة آية من القراءة يتلونها على نسق بتشويق وتطريب، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلًا مبتدرًا، وأفرغ في أهداف الأسماع من ألفاظه دررًا، وانتظم أوائل الآيات المفردات في أثناء خطبته فِقَرًا، وأتى بها على نسق القراءة لها، لا مقدمًا، ولا مؤخرًا، ثم أكمل الخطبة على قافيةِ آخرِ آية منها، فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف في تسمية ما قرأ القراء آيةً آيةً، لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلًا، ويورد الخطبة الغراء بها عجلًا؟ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون:

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٠٨.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل: ١٦)

فَحَدِّث ولا حرج عن البحر، وهيهات، ليس الخبر كالخبر، ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، طارت لها القلوب اشتياقًا، وذابت بها الأنفس احتراقًا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كُلٌّ يلقى ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعيًا له، ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هَوْلًا يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر، ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة الناجحة».

وأفاض الرَحَّالَةُ في وصف مجلس وعظ آخر لابن جبير لا يقل عنه روعة، وكان قد تحدث عن مجلس وعظي رائع للإمام رضى الدين القزويني رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، وقد وصف المجلس بما فيه ومن فيه وصفًا بالغًا روعته، والجديد في مجلس الإمام القزويني أنه بعد الانتهاء من درسه[1] دُفعت إليه عدة رقاع ذات أسئلة، فجمعها في يده، وجعل يجيب عنها رقعة رقعة، وينبذ بها إلى أن فرغ منها، وهو نظام تعرفه بعض الجامعات الآن، وقد ابتكره هذا الواعظ الكبير.

(١) «رحلة ابن جبير» (ص ٢٠٦).

هذه بعض المشاهد التاريخية لمجالس الوعظ الديني، ونريد الآن أن نحدث القارئ عن واعظ متواضع شهير رأيناه رأى العين، وشاهدنا مجالس وعظه بالجامع الأزهر، وقد انتقل إلى رحمة الله بعد أن ترك فراغًا قلَّ مَنْ يملأه، وقد توالت كراماته، وُبِني له مسجد خاص به بأعلى الدَّرَّاسة من القاهرة المعزية، ذلكم هو الداعية الشهير الشيخ صالح الجعفري- رضى الله عنه وأرضاه-، وسيرى القارئ أنى أسهبت كثيرًا في الحديث عنه بالقياس إلى من تحدثت عنهم من أساتذة المساجد في هذا الكتاب؛ وذلك لأن الرجل لم يترجم له أحد غيري، فلا مناص من أن أشبع الحديث عنه تمثيلًا واستشهادًا وخبرة، أما هؤلاء فكُتُبُ التاريخ تكفلت بتراجمهم، ولكل باحث أن يرجع إليها متى شاء.

الوعظ الديني

تُصَادفُ كلمة الوعظ الديني ثقلًا لدى بعض الناس؛ إذ توحى إليهم بادئ ذي بدء سيلًا من النصائح العامة التي يعرفها السامع قبل أن ينطق بها القائل؛ حتى أصبح مألوفًا لديك أن تسمع ممن توجه إليه بعض النصائح صيحة متبرمة يلخصها في قوله لا أريد وعظًا.

والوعظ الذى نتحدث عنه اليوم هو الوعظ الديني، وهو شيء آخر غير العلوم الدينية؛ فالشيخ الذى يشرح للعامة في المساجد مسائل الفقه والتشريع من عبادات ومعاملات ليس واعظًا في درسه التشريعي، بل مُعَلِّمًا، ولكنه إذا حثهم على الفضائل والآداب، وحَضَّهُم على التمسك بالمثل العليا، فهو داعية يعظ، وهو مَنْ نعنيه بالحديث.

لم يكن الوعظ قديمًا وظيفة رسمية، وإنما كان عملًا اختياريًّا يقوم به نفر ممن يعلمون واجب الإسلام في هداية النفوس، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وأذكر أن الاحتلال الأجنبي قد عمل على تنشيط التبشير بالمسيحية في بعض البلاد المصرية، فأحس علماء العصر بخطر التبشير، وهَبُّوا تلقائيًّا يذودون عن معتقدهم الإسلامي، وألفت الجمعيات الدينية للدعوة إلى الإسلام، وهداية العامة بالوعظ المباشر، وقد اشتهر من العلماء حينئذ طائفة مخلصة جعلت قيادتها إلى المرحوم الشيخ زكى الدين سند، ومن بينها رجال دعاة من أمثال عبد

الوهاب النجار، ومحمد عبد العزيز الخولى، ومحمود محمود رحمهم الله، وبعض الذين تخرجوا في مدرسة الإرشاد، وهى مدرسة أهلية قام بأمرها حينًا من الدهر صاحب «المنار» السيد محمد رشيد رضا، وكان اتجاه الدعاة جميعًا إلى العامة حيث كانوا مظنة الوقوع في حبال المبشرين، فأخذت خطب الجمعة، ودروس المساجد تُصَاغ على نمط سهل ميسر، وقارئ الدواوين المنبرية لذلك العهد يلمس روح الإخلاص دون نزاع، وإن أخذ على مؤلفيها سهولة الحديث وتشعب الموضوع دون تحديد، كما في خطب الشرنوبي، ومصطفى الحمامى وغيرهما.

ثم أُنشئ قسم الوعظ بالأزهر، وقام على توجيهه نفر من كبار العلماء، من أمثال الأساتذة: على محفوظ، ومحمد أحمد العدوى، وعبد ربه مفتاح، رحمهم الله، وكان مدعاة إنشائه لدى الحكومة أن يقوم الوعاظ بهداية الشعب خلقيًّا وإصلاحيًّا في ضوء القرآن الكريم، والسنة النبوية؛ لأن حوادث الثأر في بعض البلاد وشيوع السرقات في بعضها الآخر، مما دعا وزارة الداخلية أن تُجُنِّد نفرًا من رجال الدين لمكافحة الجريمة، والدعوة إلى أخلاق الإسلام، فالعامة هم المقصودون حينئذ بالتوجيه، ومراعاة لمقتضى الحال أخذ الوعاظ يصوغون أحاديثهم في أسلوب يناسب العامة، ويجمع أحاديث

الترغيب والترهيب، ولا مانع من تعدد الموضوعات في الموعظة الواحدة، وهو ما لا نزال نشكو منه إلى اليوم لدى قلة لم تراع ارتفاع المستويات العقلية وفقًا لتطورات الزمن، أما الكثرة فقد أخذت بأسباب التركيز والتحديد.

أردت بهده المقدمة التاريخية الموجزة أن أُبَيِّن أسباب الانخفاض الملموس في المستوى العلمي الذى يتجه إليه واعظ الأمس؛ إذ كان العامة وحدهم مسرح نشاطه، فكان مضطرًا إلى أن يقدم إليهم ما يهضمون ويتمثلون، وقد كان ذلك معقولًا مستساغًا فيما قبل الحرب العالمية الثانية، إذ كان المثقفون أو أكثرهم لا يرحبون بسماع الوعظ الديني، وكان بريق أوروبا يجذبهم إلى ثقافة الغرب والاكتفاء بها دون غيرها؛ إذ هي ثقافة الحضارة المزدهرة، والمدنية الزاهية بمخترعاتها العلمية، وتقدمها الصناعي، والفكري، والاجتماعي، فكيف يتركونها إلى مواعظ المساجد، وخطب المنابر، ولكن دمار أوروبا في الحرب العالمية الثانية بتأثير هذه الحضارة الخادعة، وبقنابل رؤسائها الأنانيين، وقذائف مفكريها المتنابذين، قد فتح العيون النائمة في بلاد الإسلام على ما جهلوه من خطر التمدن الأوروبي، وفساد المجتمع الغربي، وتقهقر الخُلُق الإنساني هناك إلى مستوى الوحوش المتصارعة في الغابات، والنمور الهائجة في الأدغال، فاتجهت النفوس إلى الإسلام

من جديد تلتمس في نوره الهداية، ومن معينه الارتواء، وكان الظن برجال الوعظ أن يُعِدُّوا للموقف عدته، فيخاطبوا العائدين خطاب المثقف المستنير.

ولا أكذب الحق حين أقول: إن من بين هؤلاء الأفاضل من حَلَّق في رسالته، وأبدع في توجيهه بما وعى من ثقافة، ودرس من مذاهب، وخَبَر من نفوس، فكان ذا لواء مرفوع، واسم ذائع، على حين ظل نفر آخر يخاطب الخاصة خطاب العامة، ويُدْعَى للمنابر الجهيرة في الصحافة والإذاعة والتليفزيون، فيقول عندها ما قاله في قرى الريف، ونجوع الصعيد، دون أن يقدر موقفه التوجيهي في عصر متعدد المذاهب، متباين التيارات، متضارب الأهواء.

ولا أكذب الحق مرة ثانية حين أقول: إن دراسات عليا قد أُعِدَّت لتكوين هؤلاء الدعاة، وإلمامهم بفنون جديدة في علوم التربية والنفس والاجتماع، وإن كتبًا خاصة بالدعوة والدعاة قد كتبت لهم على منوال معاصر يكشف عن طبيعة عملهم، ويغوص إلى أعماقه، ويطير في آفاقه، هذا حق لا مرية فيه، ولكن قليلًا من هؤلاء من انتفع بدراساته العليا وبثقافته الجديدة، فكان واعظ عصره، وداعية زمنه، وكثيرٌ من هؤلاء لم ينتفع؛ لأن الدراسات العليا وما يتبعها من الكتب، لم تصادف منه دراسات سابقة مركزة، تحيط بثقافة العصر ومتطلبات الأهواء،

وحسبك أن تعلم أن علم الكلام القديم بمسائله قد كان كل حصيلته العقلية في مضمار العقيدة، مضافًا إليه شذرات من فلسفات يونانية، عن الكون، والطبيعة، والخَلْق والإيجاد، وكلها غريبة تمامًا عن شبهات عصره التي تفد إلى المسلم من الصحف، والإذاعات، والكتب متحدثة عن إلحاد جديد ملأ الغرب، ووجد له الأذناب في المشرق، والواعظ المسيحي -وأقولها بكل أسف- في أوروبا أكثر إلمامًا بمنحرفات عصره من الواعظ الإسلامي، فهو على التوجيه أقدر، ولعلي أبرهن على ذلك بالمثال.

كتب الأستاذ عباس محمود العقاد مقالًا جيِّدًا تحت عنوان: «كيف يعظون» تحدث فيه عن واعظ أوروبي أعجبته ألمعيته المتوقدة في النقاش، وحسن تأتيه في الجدال، وإدراكه البصير لطبيعة من حوله من الناس، فقال العقاد ما ملخصه:

«في أثناء الحرب العالمية المدمرة، وقف بعض الواعظين يتحدث في مصنع أوروبي، فصاح به أحد العمال في تبرم: ما هذه الجرأة منك على الوعظ باسم إله المحبة والرحمة، وهذه الحرب الخبيثة تطحن الناس؟!

فأجاب الواعظ في هدوء صابر: إنك يا أخانا لقاس على الأقدار، فهبك في مكان القدر، فما عساك تصنع بالدنيا؟! لا أحسبك كنت

تخليها من الخطيئة؛ لأن النفس مُرِيدَة حرة، ولابد أن تخطئ وتصيب، وإلا كانت مجبورة مسيرة، وأنت إذا أردت لها شيئًا ملزمًا هدمت تكوينها النفسي باعتبارها نفسًا مُكَلَّفَة ذات حرية وتقدير، فإن لم تصنع هذا فماذا أنت صانع؟

فقال العامل ـ وكان على نصيب كبير من الإدراك الثقافي ـ: على أية حال لا أدع إنسانًا يألم في حياته لجريرة غيره، وذنب غير ذنبه فعاجله الواعظ يقول: يا لها من حياة سخيفة تلك التي تريدها، فماذا تنوى أن تصنع بالأمهات مثلًا، أتريد بأم أن يذهبوا بابنها للموت أو ابنتها للعار ثم تضحك بعد ذلك راضية؛ لأنها لا تحس الألم في ذاتها الشخصية، بل هو ألم موجه إلى الابن أو البنت؟ أتريد لها أن تقول: إن الذنب ذنب غيري فلا أكترث به؟ إن الدنيا حينئذ تخلو من أنبل العواطف وأرفع المشاعر، إذ تكون خلوًا من فضائل الأمهات والآباء والصديقين والشهداء.

هذا مثل جيد لواعظ بصير، وآية الجودة فيه أنه يخاطب العقل في نفس المستمع، ويُقدِّر الأحوال المحيطة به قبل أن يأتي ببرهان ليجيء رده مطفئًا كل ما يعتلج بالنفوس من حرارة الشك، ولن يصل إلى ذلك غير إنسان مرن تثقف بثقافة العصر، وكشف عن أعماق النفوس، ونحن في زمن لا ينجح فيه الواعظ المسلم نجاحًا معترفًا بتأثيره في المحيط الإسلامي إذا اقتصر على سَوْق الآيات الكريمة، والأحاديث

الشريفة مجردة عن حرارة القائل وبُعْدِ نظره، وصدق تفسيره، ولطف مدخله؛ لأن العقول مظلمة، ونريد لعلاجها من كتاب الله أن يظهر على حقيقته الربانية واضح الهدف، نَيِّر الإيحاء، كما كان يتقبله السلف، وقد خلصت النيات وصَفَت السرائر، فالواعظ مسئول عن موضع الاستشهاد ومناسبته، وتوجيهه، والتأكد من انطباقه على موضوعه دون افتعال في الربط أو اعتساف في البرهان.

هذه ناحية عقلية، نتركها إلى ناحية خلقية وهى جانب القدوة المثلى الذى يجب أن يعرف داعية الإسلام أنه من أخص الخصائص لرسالته؛ فالعلماء ورثة الأنبياء، وقد يبلغ العمل الواحد من التأثير ما لا تبلغه آلاف الأقوال، وأنا أعلم من الدعاة الكبار قومًا كانوا يؤثرون بالسلوك وحده دون أن يتصدروا للنصح والإرشاد.

وثقافة العصر بمدارسه وجامعاته وكتبه وإذاعاته تحتم على الواعظ المستنير أن يلمس عيوب الوعظ القديم فيتركها إلى ما يفيد، ولكن الواقع المؤلم غير ذلك، فأنت لا تزال تسمع نفرًا من الواعظين يغمرون الأسماع بالأقاصيص الواهية والروايات المصنوعة، ويحشدون من الإسرائيليات وأشباهها ما يغرق السذج في لجب لا نجاة من شره، ونحن لا ننكر أن الحرص على التشويق، وجذب الأسماع إلى المواعظ أمر مطلوب، ولكننا نريد بالتشويق المؤثر أن يتم

في ميدانه الطبيعي حين يرتفع الواعظ عن التسلية السطحية إلى التثقيف المُوجَّه، فهو ذو مصباح لا بد أن يُبَدِّد ظلام الشبهات، وغياهب النفوس، فإذا لم تستطع أشعة وعظه أن تهدي النفوس بغير الملفق من الأقاصيص فقد حاد عن الطريق، وإذا كان المدرس في حقل التربية والتعليم يتخذ من وسائل الإيضاح في درسه ما يمهد به سبيل المعرفة إلى عقول التلاميذ، فالواعظ مدرس في هديه، وعليه أن يهتم بوسائل الإيضاح النافعة كداعية أمين.

هذا والإيجاز لديَّ أبلغ من الإسهاب، إذ أَلِفَ نفر من الدعاة أن يقوموا الساعة والساعتين صائحين متكلمين، وكأن امتداد الزمن وحده وسيلة التأثير والإقناع مع أنه داعية الاستطراد من القائل، والملل من السامع، والسامعون طبقات مختلفة؛ منهم من يثابر على الفهم والاستماع، ومنهم من ينصرف إلى شجونه الداخلية، وإذا كان الإطناب مُملًا مع جودة المعنى وإصابة الغرض، فكيف به مع التفاهة والحشو والاستطراد؟!

لقد كان الإمام الحسن البصرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبلغ الدعاة في عصره، وكان يقابل خطب الحجاج بعبارات موجزة تحير الحَجَّاج وتوقعه موقع الاضطراب فلا يستطيع أن يجيب، وما كان الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزيد في وعظه عن فقرات يسيرة، تهب على المؤمنين رَوْحًا وريحانًا، وتصب على العصاة شواظًا من لهيب.

عاد الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذات صباح مع العائدين من تشييع جنازة لأحد

كبراء البصرة، فالتفت إلى أصحابه، ونظر طويلًا، فشخصوا إليه منتبهين، ثم سأل في تؤدة: لو رجع هذا الميت ثانية إلى الحياة أكان يحرص على الطاعات؟ فقال السامعون في صوت واحد: نعم، فحدق فيهم الحسن متفرسًا ثم قال- في تمهل-: أما نحن فقد رجعنا فلنحرص إذن!.

إن السؤال المقتضب الذى وجهه الداعية الكبير، والرد الموجز الذى تلقاه، ثم ما شفعه به من التعقيب، كل ذلك لم يستغرق أكثر من دقيقة، ولكنه ترك في النفس أبلغ ما يتركه واعظ جهير تحدث عن الموت ساعة كاملة دون انقطاع، وما تم ذلك إلا لحرص الحسن على انتهاز الفرصة المواتية، فسقط حديثه كما يسقط الغيث على المرعى الجديب، وليس الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحده إمام الوعظ البصير، بل شاركه أئمة وأعلام، فقد تحدث بعض الأدباء عن عمر بن ذَرٍّ الهمذاني ـ رحمه الله ـ حين يعظ، فقال: لقد خلت والله أن نُفخ في الصور وقام الناس لرب العالمين، فجعلت أَمُرُّ بيدي على وجهي كأني أذود عنها حرارة اللهيب يوم الميزان.

كيف ارتقى الحسن في إقناعه؟ وكيف اهتدى ابن ذَرٍّ في إبداعه؟ سؤالان إجابتهما ميسورة تتلخص في صدق القدوة، وبلاغة التأني، والبصر بالنفوس أما العلم وحده فما أكثره.

قاص المسجد

عرف المسجد من يقص به أحاديث السابقين؛ لأن كتاب الله ﷻ، وأحاديث رسوله ﷺ، يحفلان بالقصة، حيث هي موعظة وعبرة، يقول الله ﷻ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف: ١١١).

والواضح أن النفس البشرية تميل إلى القصة، وتحرص على سماعها، وروايتها؛ إذ بها من التشويق والفائدة، وسير السابقين، وروعة الفجاءة، وحسن السلوى، ما يجذب كل انتباه، والحديث العلمي يُنْسَى، كالقصيدة الشعرية، أما القصة فتدور على الألسنة دون انقطاع.

ورجال التاريخ يذكرون أن القصة قد عرفت في صدر الإسلام، إذ يروون عن ابن شهاب الزهري أن تميمًا الداري رضي الله عنه أول من قص في مسجد رسول الله ﷺ، وكان قد استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القصص، فأبى عليه، ثم استأذن عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد رحيل الفاروق، فأجابه، وأخذ يقص.

ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه وجهة نظره التي ترى أن قصص القرآن

معروف معلوم لا يحتاج إلى رواية، فالتعرض له من قبيل تحصيل الحاصل، أما قصص أهل الكتاب من اليهود والنصارى فموضع أخذ وَردٍّ، ولا يجوز أن نشغل به المسلمين، فتحدث بلبلة بين ما قد يتعارض من حدث أو قول مع ما جاء في كتاب الله ﷻ، ومثل الفاروق في عبقريته يعلم أن الوضع كثير، وأن أمثال كعب الأحبار ومن يتصدرون للرواية التاريخية عن قصص بدء الخلق، وبعثة الرسل، وتكوين الرياح والسحاب والرعد، يخطئون ويصيبون، فإغلاق الباب أولى وأرشد، ولعل وجهة نظر عثمان رضي الله عنه أن تميمًا الداريَّ رضي الله عنه مسلم صادق الإيمان، ومثله لا بد أن يميز بين الخطأ والصواب، والمعقول والبعيد عن التصور، فلا يسمع المسلمين إلا كل صائب سديد.

يقول الأستاذ أحمد أمين: «وصورة هذا القصص أن يجلس القاص في المسجد، وحوله الناس، فيذكرهم بالله، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصًا عن الأمم الأخرى، ونحو ذلك، لا يعتمد فيها على الصدق قدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب، قال الليث بن سعد ـ رحمه الله ـ «هما قصص العامة، وقصص الخاصة، أما قصص العامة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله

معاوية إذ وَلَّى رجلًا على القصص، فإذا سَلَّم من صلاة الصبح، جلس وذكر الله ﷻ، وحمده ومجده، وصلى على النبي ﷺ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه، وعلى المشركين كافة» وقد نما القصص بسرعة؛ لأنه يتفق وميول العامة، وأكثر القصاص من الكذب حتى رووا أن علي بن أبى طالب رضي الله عنه طردهم من المساجد، واستثنى الحسن البصرى لتحريه الصدق في قوله[1].

هذا ما قاله الأستاذ أحمد أمين، ويخيل إلىّ أن ما نقله عن الليث ابن سعد، يحتاج إلى بعض الإيضاح؛ لأن قوله عن قصص العامة أنه مكروه، يجعلنا ندل على علة الكراهة، فنذكر أن العامة تستهويها الغرائب، ولا ترتاح إلى الواقع قدر ما ترتاح إلى الخيال، وقد يلتبس الواقع بالخيال، فيتصور السامع أن كل ما جاء حق لا شك فيه، ومن هنا كانت الكراهة عند قوم والحرمة المانعة عند آخرين، وعلي بن أبى طالب كعمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - في منع هؤلاء، أما من تختاره الدولة فلابد أن يكون منفردًا بميزات عقلية تحول بينه وبين الشطط، فإذا كان كذلك فلا مانع من قصه، فإن ظهر غرضه في التعصب إلى وجهة غير وجهة الحق، فمؤاخذته واجبة.

(١) فجر الإسلام، ص ١٦٩.

وقد كتب الأستاذ جولد زيهر فصلًا عن القصاص في الإسلام، ذكر فيه أن بعضهم قد اشتهر بتفسير القرآن، ومن هنا جاءت الإسرائيليات الكثيرة؛ لأن القاص يستهوى الأسماع بما يروى من العجائب، وهو مدفوع إلى ترديد ما عرف من الإسرائيليات ليكون موضعه من سامعيه حبيبًا حميدًا، ولعل ما ازدحمت به بعض كتب التفسير من هذا اللون كانت مجالس القصاص في المساجد أكثر ينابيعه، وليس هؤلاء جميعًا على حد سواء، ففيهم المتحرز والمتساهل، وقد كان موسى الإسواري، وعمرو بن فائد الإسواري قصاصين بارعين.

ويقول الجاحظ عن الأول: «إن فصاحته بالعربية توازن فصاحته بالفارسية، وإنه كان يجلس المجلس المشهود، ويقعد العرب عن يمينه، والفرس عن شماله، ثم يقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها بالعربية للعرب، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأي اللسانين هو أبين».

يقول الجاحظ: «واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد، أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سَيَّار الإسواري».

أما عمرو بن فائد الإسواري فكان يفصل في التفسير، حتى إنه قص ستًّا وثلاثين سنة، فابتدأ بتفسير سورة البقرة، فما ختم القرآن حتى

مات، لأنه كان حافظًا للسير ووجوه التأويلات، فربما كان يفسر الآية الواحدة في عدة أسابيع[1].

والنفور من القصاص في المساجد شائع لدى الباحثين وعلته هذا الكذب المدخول على الحقائق، ومع هذا الكذب المفضوح فقد رزق الحظوة في القبول لدى العامة، حتى قال المسعودي- في مروج الذهب-: «وتفقد العامة في احتشادها وجموعها، فلا تراهم الدهر إلا مرقلين إلى قائد دبّ، وضارب بدف على سياسة قرد، أو متشوفين إلى اللهو، أو مختلفين إلى متعبد ممزق، أو مستمعين إلى قاص كذاب، أو مجتمعين حول مضروب، أو وقوفًا حول مصلوب ينعق بهم فيتبعون، ويصاح بهم فلا يرتدعون.

ونحن ننقل ذلك لأننا لا نزال نرى في عصرنا الراهن من يستهوى العامة بالأكاذيب الملفقة، ومن يظل يسرد القصص الخادع وكأنه حق لاشك فيه، مع أن الأولى بمجالس الوعظ أن تكون دروس أخلاق وسلوك، فإذا تعرض الواعظ لقصة ما، فليأخذ منها العبرة الخلقية والعظة السلوكية على أن تكون ثابتة صادقة إلا إذا كانت من قبيل الرمز على لسان الطيور والحيوانات، ولكل مقام مقال.

---

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢/ ١٠٤ عن قوله مقتبس من (جولد زيهر).

ولسنا نقول إن جميع القصاص من طراز منتقد، فقد كان منهم أفاضل المتحدثين وأئمة النابهين، وسنخص أحدهم بالحديث فيما يلى هذا الباب.

القاصُّ الورع

الحسن البصرى رضي الله عنه

تعرض الأستاذ أحمد أمين إلى قصاص المساجد، ونقل عن الغزالي ـ رحمه الله ـ رأيه فيهم، ثم خلص إلى الحسن البصرى رضي الله عنه فقال عنه[1]:

والحق أن الحسن البصرى كان قاصًا من نوع آخر، فلم يكن ينحو منحى الذين يعتمدون على الإسرائيليات، إنما كان يعتمد على التذكير بالآخرة ونحوها، ويستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث، فقد كان يجلس في آخر المسجد بالبصرة، وحوله الناس يسألونه في الفقه، وفى حوادث الفتن التي كانت في عهده، ويحدثهم بما صح عنده من حديث، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم، فمما أُثِرَ من قصصه قوله: «يا ابن آدم لا تُرْضِ أحدًا بسخط الله، ولا تطيعن أحدًا في معصية الله، ولا تحمدنّ أحدًا على فضل الله، ولا تلومن أحدًا فيما لم يؤتك الله، إن الله خلق الخلق فمضوا على ما خلقهم عليه، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه في رزقه فليزدد بحرصه في عمره، أو يغير لونه، أو يزد في أركانه أو نباته، يا ابن آدم لم تكن فكنت، وسألت فأُعْطِيتَ، وسُئِلْتَ فمنعت، فبئس ما صنعت».

(١) فجر الإسلام ص ١٩٩.

والحسن البصري ـ رحمه الله ـ ولد بالمدينة، وكان أبوه من سكان مدينة ميسان[1]، ثم سُبِيَ أثناء حملة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على العراق، فنقل إلى المدينة حيث غدا مولى لزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فولد الحسن ليجد المدينة أرجة بعبير الصحابة، وكان فيه منذ صغره نجابة وذكاء، فتتلمذ على أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولقى سبعين ممن شهدوا بدرًا فتحدث إليهم وروى عنهم، ويقول مؤرخوه: إنه حفظ القرآن وهو دون الرابعة عشرة من عمره، ومثل هذا العمر الصغير في زمن الحسن حيث لا فقيه منتظم يُقْرِئ الناس، إنما هو تلقى السورة والآية عن صحابي أو تابعي مع ما يفهم من تأويلها على وجهها الصحيح، مثل هذا العمر الذى استقصى القرآن حفظًا وفهمًا يدل على استعداد الناشئ وطابعه العلمي الأصيل.

شاهد الحسن الخلاف الحزبي بين الأمويين والشيعة والخوارج فكان يتألم لما يرى من دماء تراق في غير عدو، وتَطَوَّع في الفتوح الإسلامية حيث اشترك في حرب كابل ببلاد الأفغان ورجع من الجهاد ليشتغل إلى أمد قصير موظفًا عند الأمويين، ثم آثر الاعتزال والقيام بالوعظ والإرشاد في مسجد البصرة، إلا ما كان من ولاية القضاء مدة قصيرة أبى أن يأخذ عنها أجرًا، لأن إصدار الحكم الشرعي في الإسلام لا يباع.

(١) أحدى محافظات العراق في شرق البلاد على الحدود الإيرانية.

ولم يسكت الواعظ الكبير عما كان من مظالم الأمويين بعامة وما يشهد بعينه من قسوة الحجاج في البصرة بخاصة، ولكنه كان لبقًا كيِّسًا، لا يصادم بما يهدر الدم، بل يراعى المقتضى المناسب دون أن يؤثر السكوت كمن استكانوا إلى المناصب غائمين، ودون أن يجاهر بالثورة حيث لا أمل له في النجاح.

وقد اشتهر الحسن البصرى رضي الله عنه بالتصوف حين كان زهدًا إسلاميًا خالصًا يستمد أصوله من كتاب الله، وسنة الرسول ﷺ، وصنيع السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ، وقبل أن تتخلله مزاعم الثقافات الوافدة من الهند وفارس واليونان، فهو إذن ينحو المنحى الإسلامي النقي، ولو عرف المسلمون أن مذهبه هو المذهب السلفي المأثور، ما صاروا في التصوف هدفًا للثقافات الوافدة، وما ضل الكثير منهم فيما ادعوه من اتحاد وحلول ووحدة وجود ووحدة شهود وغير ذلك من ألفاظ تبحث عن أصولها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا تجد.

وهو في علم الكلام كما كان في التصوف يقف عند ما يوحى به النص القرآني بعيدًا عن التأويل، ولذلك اعتزله واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، ومن ألفوا لهم مذهبًا جديدًا تحت الاعتزال، وفى بعض كتب الكلام آراء تنسب إلى الحسن تعتبر دخيلة عليه، إذ لو

كانت هي آراءه ما اعتزل مجلسه المخالفون من تلاميذه، على أنه شاء أن يبعد بمجالس العلم في المسجد الجامع عن لجاجات علم الكلام، وأن يقتصر على الصريح الجلي من كتاب الله، وبعض الكاتبين يحاول أن يجعله الموجه الأول لرابعة العدوية في حبها الإلهي، ورابعة زاهدة عابدة، وهى سيدة فاضلة، سهلة العقيدة، ساذجة الفكرة، ومحاولة جعلها ذات مذهب صوفي يهدف إلى حب الله وحده دون خوف من نار، أو طمع في جنة مما لا يتلاءم مع مستواها، والذين ينسبون إليها ما يدل على ذلك ينسون فينسبون ما تخالفه؛ إذ أجمع الذين يؤرخون لها أنها قالت:

وزادي قليل ما أراه مبلغي ∴ أللزاد أبكى أم لطول مسافتي؟
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ∴ فأين رجائي فيك أين مخافتي؟

ولكن المغربين من المستشرقين يحاولون أن ينسبوا لها ما يجعلونه شبيهًا بمذهب آخر في دين آخر، ليكون هَمّ اطلاعهم الزائد من ناحية، وتحقيق مآربهم في إلغاء كل أثر للإسلام في الزهد النفسي والصفاء الروحي، وإذا كان الحسن موجهًا لها في قول بعض هؤلاء فأين هي أقوال الحسن في تهوين العقاب والثواب، وكل أقواله المحفوظة ترهيب ووعيد؟!

وأجمل ما يؤثر عن الحسن البصرى أقوال مأثورة رددها في

مجالس وعظه، ويُعد بعضها من جوامع الكلم، لأن نور النبوة يلوح في صفحاتها، ونستطيع أن نختار منها هذه الروائع البليغة:

١- اقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة، واعصوها، فإنكم لو أطعتموها نزعت بكم إلى شر غاية، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور.

٢- إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

٣- يا عجبًا لقوم قد أمروا بالزاد، وأذنوا بالرحيل، وأقام أولهم على آخرهم، فليت شعرى ما الذى ينتظرون؟.

٤- إن الله قد جعل الصوم مضمارًا لعباده، ليستبقوا إلى طاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، ولعمرى لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه، ومسيء بإساءته، فاجعلوا الدنيا كالقنطرة تجوزون عليها ولا تعمرونها.

٥- تلقى أحدهم أبيض بضًّا، يملخ في الباطل ملخًا، ينفض مذرويه، ويضرب أصدريه ويقول هأنذا فاعرفونى، قد عرفناك فمقتك الله ومقتك الصالحون.

٦- ابن آدم، نهارك ضيفك، فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك، وكذلك ليلك، إنما أنت أيها الإنسان عدد، فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك.

٧- المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان بأمر واحد، ووجه واحد، ونصيحة واحدة، وإنما يتبدل المنافق ليستأكل كل يوم، ولا يزال العبد بخير مادام له واعظ من نفسه، وكانت الفكرة من عمله، والمحاسبة من همته، ولايزال بشَرٍّ ما استعمل التسويف واتبع الهوى، وأكثر الغفلة، ورجح في الأماني.

لقد كان الأصوب في رأيي أن يوجه الباحثون اهتمامهم إلى حصر أقواله، وتحديد منحاها الخلقي، وطريقها السلوكي، وباعثها التربوي لتكون منهجًا إرشاديًا للإنسان المؤمن، أما محاولة الزج به في مجال التصوف الفلسفي ـ حيث لم يعرف في عصره ـ أو محاولة جعله رأس الاعتزال، إذ تفرع عنه مدرسة تدين له وإن خالفته، فذلك ما لا يسير مع الحق في طريق، وآفة بعض الباحثين أنه يكتب لا ليصل إلى الحق، بل ليظهر ثقافته المتشعبة العميقة ولن تكون الثقافة متشعبة عميقة في رأيه إلا إذا اتصلت بالهند والفرس واليونان في القديم، ودعك من تشعبها الخرافي في العصر الحديث.



بين المسجد والمدرسة الدينية

كانت الدروس بالمساجد تحدث جلبة ومحاورة وأخذًا وردًا، وفيها ما يجلب النقاش الحاد إذا كان الدرس يتحدث عن الفرق الدينية أو المذاهب الكلامية، وكل ذلك مما يعوق من أداء الصلوات على وجهها المطلوب خشوعًا، واطمئنانًا، حتى إن بعض المساجد في أول إنشائها خصصت أيامًا للتدريس، فالأزهر مثلًا في عهده الأول جُعِل لصلاة الجمعة وحدها وهو يوم عبادة وخصصت الأيام الباقية للتدريس دون صلاة، وهذا التحديد لم يحل المشكلة؛ لأن المساجد لو حذت حذو الأزهر جميعها، ما وجد المصلون مكانًا للصلاة، ولو تركت موزعة بين التدريس والصلاة لحدث من الضوضاء ما يمنع الخشوع، ولوجد المصلى نفسه مضطرًا إلى الالتفات إلى ما يرتفع حوله من أصوات، وخاصة إذا حمى النقاش ودارت رحى الاعتراض والدفع، ثم إن العلوم تطورت واتسعت وأصبح السماع وحده لا يغنى، فلا بد من تهيئة مكان للنفع التام.

والذين يتحدثون عن أولية إنشاء المدارس يجعلون غرضها دينيًّا لنصرة مذهب على مذهب، كما سنفصل ذلك في البحث التالي عند الحديث عمن اشتهر بإنشاء المدارس، ولكن ذلك لا يمنع أن تكون هناك مبررات أخرى لإنشاء هذه المدارس، وقد تجمعت الأسباب

لتحفز ذوى النظر إلى البحث عن أمكنة ثانية، لا على أنها تكون بديلة عن المساجد؛ لأن المساجد لم تنقطع عن تدريس العلم في وقت ما، ولكن على أنها تكون جدولًا آخر، يضاف إلى المسجد، فيساعد على انتشار الثقافة، وتنوير الأذهان.

والحق أن أوجه الخلاف بين المدرسة والمسجد في العهد الأول من الضيق بحيث يحار الإنسان، فلا يعرف أهو أمام مدرسة أو أمام مسجد؛ لأن المدرسة تكون على هيئة المسجد تقريبًا، ويعين لها المؤذن، ويقام بها منبر الخطابة، كما أن المسجد يجمع المدرس، والمكتبة، وأدوات النسخ.

وقد قال الدكتور أحمد شلبي بهذا الصدد ما نصه:

إن التمييز بين الاثنين: المدرسة والمسجد يكتنفه عند النظرة السريعة شيء غير قليل من الغموض، ومرجع ذلك أننا نجده مسجدًا يعين به مدرس، كما نجد المدارس يعين بها مؤذنون، أو تقام بها منابر للخطابة، ولكننا نرى أن هناك خواص للمدرسة لا تتخلف، وأهم هذه الخواص هو الإيوان، وهو الاسم الذى يرادف قاعة المحاضرات في التعبير الحديث، وما كانت المدرسة تخلو منه، فهو أبرز مرافقها وأهمها، ومن خواص المدرسة أيضًا المساكن التي تبنى ليعيش بها الطلاب، والمدرسون الذين ينتسبون إليها، وقد حفلت أغلب مدارس

المسلمين بهذه المساكن، وبما يتبعها من المرافق، كالمطبخ وحجرة الطعام وما شابهها.

ويقول ابن العجمي: لما ملك نور الدين مدينة حلب، وحوَّل مسجد السراحين إلى مدرسة، جدد فيها مساكن يأوي إليها الفقراء وإيوانًا، ثم بالإضافة إليها، كان المدرس معينًا من قبل صاحبها ليعلم بها، بخلاف المسجد الذى طالما جلس به مدرسون، دون أن يُعَيَّنُوا للتعليم فيه، ومن جهة التلاميذ فقد كان عددهم محدودًا غالبًا في المدارس دون المساجد، كما كان ينالهم دائمًا نصيب من الأوقاف التي توقف على المدارس.

والفرق في عصرنا الراهن واضح بين المدرسة والمسجد، ولكنه لم يكن كذلك فيما قبله من العصور، مما يجعل كلام الدكتور أحمد شلبي موضع تعليق، إذ ليس صحيحًا أن المدرسة قد اختصت بالإيوان والمساكن؛ لأن للمسجد أيضًا إيوانه الواسع الذى يزدحم فيه الطلاب، كما أن كثيرًا من المساجد تلحق بها مساكن لطلبة العلم، ولينظر الآن إلى جامع السلطان حسن مثلًا لنجد به الإيوان، وأماكن السكنى فهو مدرسة وهو جامع دون فرق وما الجامع الأزهر ببعيد، ونحن نرى إيوانه الواسع، ونشهد ما يضم إليه من أروقة كانت مساكن الطلاب منذ سنوات.

وقد كان الطالب الأزهري المغترب قبل أن تنشأ مدينة البعوث لا يعرف لنفسه مكانًا غير الأزهر، فهو يأتي الحلقة نهارًا، وينحرف قليلًا ليجد نفسه في الرواق، فيأكل وينام ويستريح وإذا كانت المدارس يعين لها المدرسون، فكذلك كانت المساجد يعين لها الأئمة وهم في واقع أمرهم مدرسون.

وشبيه بالمدرسة بالنسبة إلى المسجد ما يعرف بالخانقاه وهى مكان لطلب العلم والعبادة والسكن جميعًا وقد انتشرت الخوانق في العصرين الأيوبي والمملوكي على نحو واسع، ووجد من الكبراء من عملوا على إنشائها حسبة لوجه الله، ليجتمع من يريد الصلاة والعبادة، ومن يرغب في العلم والثقافة، وأكبر ميزة لها عن المسجد والمدرسة أن الأماكن الملحقة بها للسكنى منازل حقيقية، يختص كل من يأوى إليها بحجرة أو حجرتين، وفيهم من يتزوج ويسكن مع زوجته وأولاده، وفى الأوقاف الكثيرة ما يغنيه عن تبعات العيش ليظل متفرغًا للعبادة أو العلم أو هما معًا.

وقد ألحقت بالمساجد والمدارس مكتبات تضم ما يحتاجه الطلبة في شئون العلم، وأكثر ما بها من الكتب قد كتبه الطلاب سماعًا، إذ أُملي عليهم في الأكثر الغالب، وبعض الأساتذة لم يكن يشجع الإملاء، ولكنه كان يلقى الدرس دون أن يعين ممليًا، إذ يجلس على

مكان عال ليردد ما يقول فيسمعه القريب والبعيد، ولا يقدم من طلابه من يعقبه سريعًا ليكتب كل ما قال ثم يرجع إلى زملائه الذين يحذون حذوه؛ ليستدرك كل ما فاته من النقص، حتى يلتئم النص على وجه كامل لا ثغرة فيه، ومن هنا جاء الاختلاف في بعض المخطوطات، إذ ربما تركت نسخة ما دون مراجعة دقيقة، وربما زاد الطالب شيئًا من عنده يساعد على جلاء العبارة، وهى احتمالات قوية يعرفها الناشرون والمحققون.

وإذا كان نظام الملك صاحب اليد الطولى في إنشاء المدارس الدينية، فإليكم كلمة تطول بعض الشيء؛ لأن الرجل غير مشتهر لدى الكثيرين.

نظام الملك والمدارس الدينية

اكتملت في الوزير نظام الملك الطوسي مواهب عديدة فهو أولًا، عالم بارع تَفَقَّه في الشريعة الإسلامية، والحديث النبوي، ودرس اللغة والأدب، ولم يكن اطلاعه محدودًا يقتصر على المطارحة والمشاركة، بل عمد إلى اللباب الدسم في مختلف العلوم، فاكتنه سره، وكشف غامضه، وحسبك أنه تصدر للتدريس في حلقاته العامة، فنوقش وجودل، وأظهره الحوار على حقيقته عالمًا أصيلًا يحمل برهانه، ويملك إقناع معارضيه، وهو ثانيًا إداري حازم نظم شئون الملكّ، وجه الجيوش الغازية، ورسم الخطط الموفقة، وأعد المؤن والذخائر، وجعل لسلطانه هيبة مرهوبة، فأمره نافذ مسموع، وأعداؤه ينكمشون ويتضاءلون مشفقين من صرامته وسعة حيلته، مع ما لديه من عتاد صاعق، وبأس رهيب، وهو ثالثًا مصلح كبير قضى على الاختلافات المذهبية بين الطوائف الإسلامية، وأكثر من المدارس النظامية، ودعا إلى الوحدة المتماسكة بين المسلمين في عصره الذي تنوعت فيه الفرق وتعددت الخلافة من عباسية وعبيدية وأندلسية وبجهوده الممتازة رجعت للدين مكانته في القلوب، وللسلطان هيبته في النفوس.

كان أبو الحسن بن إسحاق بن العباس الطوسي من أبناء الدهاقين، وقد توفيت أمه وهو رضيع، فلاقى والده مشقة في تربيته وحضانته، إذ

كان يطوف به على المرضعات، ويسهر طيلة ليله في قضاء حوائجه، وما إن شب عن الطوق حتى دفع به إلى معلم مخلص يثقفه ويهذبه، فحفظ القرآن الكريم، وتفقه في الحديث الشريف، وشارك في علوم عصره، وكانت المعرفة لعهده مختلفة الينابيع متنوعة الجداول، فأخذ من كل فن بطرف، وأخلص إخلاصًا حميدًا في التحصيل حتي تألق نجمه، وذاع صيته، فاتصل بخدمة علي بن شاذان ، وأظهر لديه كفاية تامة وخبرة واعية وخلقًا كريمًا، فقدمه إلى الملك السلجوقي ألب أرسلان، ولم يلبث أن صار صاحبه الأثير، فتسنم الوزارة، وبلغ بها مرتبة سامية أتاحت له أن ينفذ آراءه الإصلاحية ، ويقوم بمجهود ممتاز في شتى الميادين.

كانت عصامية نظام الملك مفتاح تفوقه ونبوغه، فقد قرأ تواريخ الوزراء وذوي المكانات المرموقة في الدولة الإسلامية، فوجد الحظوة السابقة قد واتتهم عن طريق الدرس والتحصيل، فأكب على العلم يقتطف ثماره اليوانع، ولم يحصر أفقه في فرع خاص منه يتفرع إلى التعمق في مسائله والتبحر في أصوله، حتى يصبح أستاذه الملحوظ، ولكنه جعل من اطلاعاته المتنوعة نبراسًا يهديه إلى حل مشكلات عصره، وتفهم حوادث زمنه، ومعالجة ما قد يعضل من الأدواء، ومن هنا ربط علمه بالحياة ربطًا ساعد على فهمها ودراسة مجتمعها،

وعناصر التأثير فيها، وتكوين صورة خاصة لكل عظيم يتصدر ناحية من نواحيها الكثيرة، وكانت أخلاق الرجل سلمًا آخر لمجده، فبها تدرج في معارج الرقى، وانجذبت إليه الأفئدة والأهواء، وقد ورث عن عائلته صوفية شافة، فمال إلى الفقراء، وصاحب أهل الزهد والورع، ونأى في وزارته عن الترف والملاذ، ووجد في مطارحة العقول ومجالسة الفحول لذائذ مغرية، فحرص على التبصر والتأمل، وأبدى رأيه فيما يسمع ويقرأ، ولذلك عَمُرَ مجلسه بأئمة العلم وصدور الشريعة من أعلام الإسلام، وكان يبدى من تعظيمهم وتبجيلهم ما يدفعهم لزيارته والتردد عليه، بل إنه كان يزن كل عالم بميزان دقيق، فيعرف له مكانه الذى يجب أن يوضع فيه.

كان مجلس الوزير دائرة ثقافية متنوعة الأفانين، وحسبك أن تعلم أن إمام الحرمين أبا المعالي الجويني، وأبا القاسم القشيري، وحجة الإسلام الغزالي، وعبد السلام القزويني، وأبا عليّ القارمذي، وغيرهم من أئمة الفضل، كانوا شموس مجالسه وبدور آفاقه، وكانت صوفيته السليمة النبيلة تدفعه إلى المفاضلة بينهم على أساس من الورع والتقوى، فهو يستشف أسرار النفوس، ويصل إلى الأغوار الكامنة من معادن الناس ونياتهم، فليست سعة العلم وحدها أساس المفاضلة في رأيه، ولكنه يجمع إليها ما توحى به الدلائل المختلفة من عظمة الخلق

وقوة الإخلاص، وكأنى به وقد أدرك أن العلم لا يبلغ قمته العالية إلا إذا امتزج بدماء صاحبه، فأورثه ترفعًا كريمًا عن الرغبات الزائلة، وتساميا رفيعًا عن مجاملة الناس ومحاسنتهم لعلة ذاتية أو نفع مادى.

قال بعض جلسائه: كان نظام الملك إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبو القاسم يقوم لهما ولا يفارق مكانه، وإذا دخل عليه واعظ خراسان أبو على القارمذي قام إليه وأجلسه مكانه، وقعد بين يديه، فسألناه عن مبالغته في الاحتفاء بالواعظ وحده احتفاء لم ينله سواه، فقال: إن الجويني، والقشيري وأمثالهما إذا دخلوا عليَّ يقولون لي: أنت كذا وكذا، ويبالغون في الثناء بما يطربني من المديح، أما أبو على فيذكر لي عيوب نفسي، وما أقع فيه من الظلم، فأنكسر وأتراجع وأستشعر الهيبة والخشوع، فهذا الرجل الذى يهمل الثناء، ويحتشد للنقد، ويكترث لصاحبه، إنسان عميق الإدراك، واسع النظرة، ولا ريب أنه جاهد نفسه جهادًا شاقًّا حتى سما بها فوق النزوات الأنانية التي تتعشق الإطراء العريض، وذلك وحده فضل عجيب يقترن بالحب والإجلال.

ونحن- وقد عرفنا حقيقة نظام الملك- لا نعجب إذا وجدناه يحمل بين جنبيه قلبًا رقيقًا، فيأتي من الأعمال ما ينبئ عن رحمة وحنان، كان يأكل ذات يوم على مائدته، ومعه لفيف من أعيان الدولة، وجماعة من الفقراء المعوزين كدأبه في الجمع بين الطائفتين فشاهد

والـي خرسـان يجلس جـوار فقيـر مقطـوع اليـد، والـوالي متـأفف مـن جواره، ضائق بمكانه، فقام نظام الملك من فـوره وجلس جـوار الفقيـر يحادثه، ويمد يده في طبقه وبذلك ألقى على الـوالي المتعـاظم درسًـا في المروءة يفوق كل زجر وتأنيب!!

وكانت حـوادث عصره وملابسات زمنـه تسـاعده علـى أداء رسـالته في السياسـة والتعلـيم، فقـد تسـنم الـوزارة في خلافـة المقتـدي بـالله العباسـي، وسـلطنة ألـب أرسـلان وملكشـاه السـلجوقييْن، والخليفـة العباسي والسلطان السلجوقي معًا يهدفان إلى الخيـر، ويسـاعدان علـى الإصلاح، فإذا نهض الـوزير آنئـذ بسياسـته الإصـلاحية لـم يـر معارضًـا يقف في طريقه، وبذلك يسير في نهج سهل تلاشت عقباته وتجافت عنـه العراقيل.

كان المقتدي بالله خليفة قوى النفس عظيم الهمة، أصلح كثيرًا مـن الأحوال الاجتماعية ببغداد، فحطم دور الفساد وطرد المغنيـات، ومنـع الملاحين أن يحملوا الرجال مع النساء واستأصل الأبـراج العاليـة كـيلا تكون مباءة لكشـف الأسـرار والاطـلاع علـى المحصـنات في الخـدور، ولذلك صادفت إصلاحات نظام الملك ارتياحًا من نفسـه، فخلـع عليـه خلعة سـنية وقـدر الـوزير الكفـء تقـديرًا كـان مـدعاة العمـل والنشـاط، وكذلك كان سـلطانه السـلجوقي ألـب أرسـلان فيمـا يقـول ابـن الأثيـر:

نبيلًا عالي الهمة، بارًّا بالرعية، صديقًا للفقراء والمعوزين، وقد ورث عنه ابنه ملكشاه من بعده ما يزينه من النبل والشجاعة والهمة والطموح، ونظام الملك وزيرهما المختار يتصرف في الأمور كما يشاء، وقد تعاون معهما تعاونًا صادقًا في الغزو الإسلامي المظفر، فقد أغار الروم على أملاك الدولة العباسية، وأفزعوا المسلمين بما فعلوا من إجرام ونهب، ثم زحفوا على آسيا الصغرى، وامتدت أطماعهم إلى بغداد، وبعث ملك الروم إلى السلطان رسالة تنبئ عن الاستخفاف به، فأخذ الأهبة الشديدة، وسار بجنوده إلى لقائه، ونظام الملك من خلفه يرسم الخطة، ويُعدُّ الذخيرة، وقد قسم السلطان جيشه إلى أربع فرق، تقدم بإحداهن وترك ما بقى كمينًا أطبق من الخلف والجانبين، فوقعت الهزيمة الماحقة بالروم، وتركوا مغانم كثيرة من مال وذخائر، ورجعت للإسلام مكانته الشَمَّاء.

وبإرادة نظام الملك وتدبيره الحصيف، اتسع نفوذ ملكشاه، فخطب له من حدود الصين شرقًا إلى آخر بلاد الشام غربًا، وعَمَّ البلاد الرخاء، فشقت القنوات ونشطت الزراعة والتجارة، وقد سار ملكشاه بجنوده حتى بلغ حدود القسطنطينية، وقَرَّرَ ألف دينار على ملوكها، ووضع في الجهات التي فتحها من بلاد الروم خمسين منبرًا إسلاميًّا وجلجل الأذان الإسلامي في الآفاق يحمل الرسالة المحمدية، ويدوى بعظمة الإسلام.

لم يكن هذا النصر ليتاح في عهد وزير خامل يفكر في نزواته وأهوائه، ولكن قوة نظام الملك قد جعلت من الدولة السلجوقية دولة مغاز وفتوح، ولن يتم لدولة عظمة بغير ذخيرتها الحربية، وقوتها المجاهدة، وهذا ما فطن إليه الوزير العظيم، فأعد الجيش القوى، وهيأ السلاح الماحق، وكسب النصر الوضاء، ولو تأخر عهد الوزير العظيم حتى ظهرت قوات التتار المتوحشة لألقى عليها بشكيمته درسًا قاسيًا، ولما استطاعت أن تمزق الدولة السلجوقية، تمزيقًا تفتت له الأكباد، ولكن القدر الذى شاء لنظام الملك أن يمثل دوره قبل اندلاع هذه النار المشتعلة وقد هيأ للتتار ظروفًا مواتية، أدّوا بها رسالتهم المروعة في الاستئصال والتدمير ولو سلك الخلف سبيل السلف ما استشرى الخطب وطَمَّ الفساد.

هذا في ميدان الحروب!! أما في ميدان الثقافة، فقد رأى نظام الملك ما يغمر العامة من جهل بقواعد الدين، وحَزَّ في نفسه أن يتلاعب بعض الناس من ذوى الأطماع السياسية بعقائد باطلة ينسبونها إلى الإسلام، ويدفعون العامة إليها ليأخذوا منهم قوة مُظَاهِرة تساعدهم على الاستقرار السياسي!!

حَزَّ ذلك في نفس الوزير فأنشأ المدارس المتعددة في العراق وإيران وأفغانستان، وقد حشد لها أئمة الفقه وأعلام الشريعة، فكان من

أساتذتها إمام الشافعية أبو إسحاق الشيرازي، وحجة الإسلام الغزالي، وأبو نصر ابن الصَبَّاغ، وأبو بكر الشاشي، وعرفت فيما بعد بالمدارس النظامية، وكان للطلبة بيوت يأوون إليها، وخزائن واقية تحفظ ملابسهم وكتبهم، ورواتب تجرى عليهم كيلا يقطعهم طلب الرزق عن التحصيل وقد أباح للجمهور أن يسهم مع الطلاب في النقاش والاستماع، وأخذت أضواء المعارف تشع وتتكاثر حتى نشأ جيل جديد ممتاز يدرس الشريعة الصافية، ويَرِدُ إلى الإسلام في منابعه النقية.

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه المدارس المباركة أساسًا للنهضة العلمية التي ازدهرت في القرن الخامس الهجري وما وليه من قرون، وإليها يرجع الفضل في القضاء على البدع والخرافات التي عششت في العقول المظلمة، ورجعت على الإسلام بأوخم العواقب وقد ألقى فيها نظام الملك بنفسه بعض الدروس في الحديث والتفسير، ولم يدع لنفسه رسوخًا في العلم وتمكنًا في الرواية، بل تواضع فقال: إنه لم يبلغ درجة العلماء والمحدثين ولكنه يرغب في أن يحسب في عداد رواة الحديث، لينال بذلك تشريفًا عند الله والناس.

ولقد كان إكثاره من المدارس النظامية مدعاة لخطأ وقع فيه الحافظ الذهبي حين قرر أن نظام الملك أول من أنشأ المدارس في الإسلام وقد تدارك العلامتان السبكي والسيوطي هذا الخطأ، فذكرا أن

المدارس الخاصة بالتعليم قد أنشئت في الإسلام قبل أن يولد نظام الملك بعشرات الأعوام، كالمدرسة البيهقية بنيسابور وغيرها، ولكن النظام أَكْثَرَ من المدارس إكثارًا حميدًا، وكان وحده أول من أجرى بها المعاليم ـ النفقات ـ للطلاب والمدرسين، ومع هذا التصحيح المقنع فقد تلقف بعض المغرضين رواية الذهبي وتبعه جمع من المستشرقين يعز عليهم أن يسبق تاريخ الإسلام في إنشاء المدارس، فهم يرجعون بها دائمًا في أبحاثهم المختلفة عن التربية الإسلامية إلى نظام الملك الطوسي، عن هوى واضح، وغرض مريب.

كانت المدارس النظامية تدعو دعوة صريحة إلى القضاء على الخلاف بين أتباع الدين الواحد، فقد كان بعض المعتزلة والأشاعرة والرافضة يحتربون في حومة خاسرة، وكل فريق يكيل للآخر تهمًا تصل إلى الكفر والمروق، كما أن بعض رجال الفقه من شافعية وأحناف وحنابلة ومالكية قد طاف بهم طائف التعصب، فأصبح الفقيه المتعصب يبحث عن أوجه الخلاف البعيدة، فإذا قرأ فتوى لزميل يخالف مذهبه بذل جهده في تزييفها، حتى لتتعدد الفتوى الواحدة بتعدد الفقهاء، وهناك مع ذلك كله جماعة المتصوفة الذين يقفون مع الفقهاء في عراك ترجع خسارته إلى الدين، وتلك ويلات أثيمة أَرَّقَت نظام الملك، فعمل على تبديدها بإنارة العقول وإضاءة الأذهان، فصافى أهل

الإنصاف من كل الفرق، وصاحب المخلصين من رجالها، وحشدهم في مجالسه، ودعاهم إلى الوحدة لصيانة الإسلام في عصر يتجمع فيه الفرنج ويتحرشون بالمسلمين، وقد تنازع ساسة الإسلام وتعددت مذاهبهم المغرضة، فلا أقل من أن يتحد العلماء فيرأبوا صدعًا واسعًا يوشك أن يعصف بالبناء.

قال عبد السلام بن يوسف القزويني شيخ المعتزلة في عصره: دخلت على الوزير الخطير نظام الملك، وكان عنده أبو محمد التميمي، وعالم أشعري، فقلت له: يأيها الصدر، لقد اجتمع عندك رءوس أهل النار!! فقال النظام: وكيف؟ فقلت: أنا معتزلي، والتميمي مشبه، وذاك أشعري، وبعضنا يكفر بعضًا، فضحك النظام.

وإذا كان القزويني قد ساق حديثه مساق الفكاهة، فهو بلا شك ينبئ عن حقيقة أليمة تضطرم لها الصدور، إذ يصور ما تنفجر به مجالس العلم من قذائف ملتهبة تتناثر شظاياها المحرقة في الوطن الإسلامي، فتصيبه بالتصدع والانهيار ولولا ما بذله النظام من الجهود في سبيل الوحدة المخلصة بإقامة المدارس للعلم الإسلامي الحق لتفاقم الشر وامتد اللهيب في كل مكان.

وقد زار النظام بغداد عاصمة الخلافة فأراد أن يضرب المثل بنفسه في الدعوة إلى الوحدة الدينية، ونبذ الخلاف المذهبي، فزار مشهد

الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق ودعا له بالخير، وأتبعه بزيارة قبري الإمامين أبي حنيفة وابن حنبل ودعا لهما، ثم زار قبر معروف الكرخي، وهو من أئمة التصوف، ودخل المدرسة النظامية وسمع الناس منه قسطًا من الحديث، وأملى قسطًا آخر.

وقد خطا الرجل خطوة ثانية في سبيل الوحدة المرموقة، فأبطل لعن الرافضة والأشاعرة من فوق المنابر، وقد كان الوزير عميد الملك الكندرى قد حَسَّن للسلطان طغرلبك لعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف إليه لعن الأشاعرة ورأى نظام الملك في ذلك فحشًا بالغًا، فأبطله مقتديًا بعمر بن عبد العزيز ومن سار على طريقته من أعلام السُّنَّة المعتدلين، وبهذه الأعمال الجليلة ساعد النظام مساعدة فعالة على تقريب وجهات النظر، وسار في طريق الوحدة الدينية سيرًا حميدًا، إذ أطفأ الأحقاد وأثلج الصدور.

وقد كان المذهب الشافعي يدرس وحده بالمدارس النظامية لكثرة من بها من فقهاء الشافعية، وليس في هذا تعصب لمذهب خاص، ولكن اجتماع الطلاب على مذهب معين أدعى إلى سد أبواب الخلاف في عصر تفاقمت فيه حدة الجدل المذهبي، بدليل أن الوزير العالم قد بنى ضريحًا للإمام أبي حنيفة، وأقام مدرسة خاصة لتدريس مذهبه الجليل، فلو أن مذهب الشافعي قصد لذاته دون تقدير لغيره، ما أنشأ النظام

مدرسة حنفية، ولكن الجو الذى سمح للخلاف السياسي أن يتسربل بالمذهب الديني قد دعا إلى سلوك منهج واحد لتلاميذ مخلصين يؤمل فيهم أن يكونوا رسل الوحدة الدينية عن قريب.

وقد قدر للرجل أن يلقى مصرعه شهيدًا على يد أحد الإسماعيلية بتحريض الحسن بن الصباح، إذ كان هؤلاء يدعون إلى الانقضاض على الدولة العباسية، وقد انتشروا في هضاب فارس انتشارًا ذريعًا يعصف بالاستقرار، ولقيت دعوتهم آذانا صاغية في بلاد تألف المذهبية من قديم، ورآها الحسن بن الصباح حقلًا خصيبًا يجنى به آماله ورغائبه، ومع أن الحسن كان زميل النظام في دراسته التعليمية بطوس، ومع ما بذله النظام له من مساعدة كبيرة حين قدم عليه في وزارته يلتمس المعونة، ومع الصداقة التي كانت بينه وبين صهر نظام الملك حاكم قلعة «ألموت»، وانتفاع الحسن بها انتفاعًا وجهه وجهة شخصية مريبة، مع ذلك كله فقد دبت عقاربه نحو الوزير، وعزم على أن يغتاله خفية، إذ كانت عين النظام بصيرة تراقب ما يقوم به صاحبه من التدمير والفتنة، وقد عزم على قص أجنحته وانهيار طغيانه عزمًا لا يقبل المفاوضة والتراجع، ولكن القدر قد سبقه في طعنة ماكرة من يد ديلمي سخره الحسن لتنفيذ رغبته الجانية وقد سلط عليه أشعته الأخاذة فجذبه إلى الجريمة منقادًا لتأثيره السحري الرهيب.

هذا هو سر الاغتيال الآثم، كما سجلته الروايات الصحيحة، وكما يتفق ومنطق الحوادث المتتابعة، ولن نلتفت إلى ما رواه ابن الأثير في الكامل، ونقله عنه الأستاذ محمد الخضري بك من أن مصرع الوزير كان بتحريض ملكشاه وتدبيره، إذ رأى وزيره أن يقبض على ناصية الأمر بيده، ويستطيل عليه، فيقول في معرض الإجابة عن تهديد صدر إليه من السلطان: «إن دواتي مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب!!» لن نلتفت إلى ذلك، لأن نظام الملك كان في حياته السياسية ناعم الملمس، حصيف التدبير، ومن كانت له حنكته البالغة، وتعمقه النافذ، وحلمه الواسع، لا يجيب هذه الإجابة الرعناء تلك التي لا تصدر إلا من شاب مغرور لم تعركه حوادث الدهر وتصقله تجارب الأيام، بل إن أسلوب النظام الهادئ اللين كان يقتلع الجبال بقوته، فكيف ينقلب الرزين الحصيف في شبابه إلى أرعن أحمق في شيخوخته؟! وقد استفاد من عمره الطويل ما شد أزره، وامتد بآفاقه، وإن من يقرأ كتابه العظيم «سياسة نامه» يجد من الخبرات والمعارف، ويطالع من الحيل والتدبير، ما يدل على مرونة سهلة، ولباقة أريبة.

ومؤلف الكتاب ـ بعد ـ سياسي من ألبق طراز، وقد أتيح له أن يكتب في أصول السياسة، كما يمثل أدوارها المتناقضة، ليجمع بين التجربة العملية والأصول النظرية في آن واحد ونحن لا ندرى أنعجب

بالكاتب السياسي أم بالوزير السياسي على أن التوفيق بين القول والعمل أمر يتعسر في أكثر الأحيان ولكن كان ذلولًا سمحًا عند النظام، فقضى حياته مبارك الغدوات، مأمون العثار.

ومهما يكن من شيء فَقَدْ فَقَدَ التاريخ بمصرعه بطلًا جاد العزيمة، قوى الإيمان، يستشعر خشية الله دون سواه، وكان إذا سمع الأذان أمسك عما هو فيه، ولا يبدأ بشيء قبل الصلاة، ومع ما كان فيه من الجاه المديد والنفوذ الطائل فقد كان يذكر الآخرة دائمًا، ويستعين على تحقيق آماله بالعبادة والتقرب إلى الله.

يقول نظام الملك: «وكنت في مطلع حياتي أتمنى أن تكون لي قرية، ومسجد أعبد الله فيه، ثم تمنيت أن تكون لي قطعة أرض أنتفع بريعها، ومسجد أعبد الله فيه، ثم تمنيت أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه».

وهكذا تتضاءل آماله من قرية إلى قطعة أرض إلى رغيف ويجنح إلى التصوف في إحدى فترات شباب، ثم تنبعث همته العالية فيقدر رسالة المسلم في الحياة، ويعلم أنها رسالة البعث والقوة والإنقاذ، وإذ ذاك يخطو خطواته الثابتة في دنيا المجد، فيصبح وزير دولة، ورجل عقيدة، وبطل تاريخ.

جامع القرويين

من أقدم معاهد العلم في الدنيا، وقريع الأزهر في نشاطه العلمي، لم يبنه مَلِكٌ أو حكومة، ولكن امرأة من فضليات المسلمات ورثت مالًا كثيرًا من أبيها، فأحبت أن تنشئ مسجدًا للعلم والعبادة معًا، هي أم المؤمنين فاطمة بنت محمد الفهري وقد نذرت لله أن تصوم طيلة بناء المسجد، فلما تَمَّ كما تشتهى تناولت الإفطار في المغرب في ملأ من الناس، حيث وزعت الصدقات، وتلقت التهنئات، وكان ذلك في عام ٢٤٥هـ.

وقد توالت دول وملوك على المغرب، وخضع لسلطان الأندلس تارة، واستقل تارات، وجامع القرويين بفاس ناهض بأداء رسالته العلمية، وكلما تصدع بعض مبانيه أخذ العامة يجمعون من المال الحلال ما ينهض بتعميره وتشييده، كما اهتم به السلطان أبو عنان فارس المريني فألحق به المدارس، وأمده بخزانات الكتب، واتسع به إلى حيث يشمل بيوت الطلبة وأماكن الوضوء، وزَيَّنَهَ بالشجر والزخرفة المعمارية، وكان من توفيقه أن جعل به خزانة كبرى للمصاحف وحدها، إذ أَعَدَّ نفرًا من ذوى الخطوط الممتازة لينهضوا بنسخ القرآن على ورق مصقول، وبخط أنيق مشكول، ثم بالغ في الاهتمام بالمدارس الملحقة به، وجعل من المكان الفسيح أمامه حديقة ذات أشجار وثمار.

وفى هذه السنوات المتتابعة ظهر من علماء القرويين من ملأوا الدنيا وشغلوا الأذهان، وكانت الرحلة دائمة بين الشرق والغرب، حيث يفد علماء الأندلس إلى المغرب في رحلاتهم إلى المشرق، ويفد المشارقة إلى المغرب طمعًا في اكتشاف المجهول من العلم، وجامع القرويين مضيف يستقبل ويودع، ويطول القول لو أخذنا نسرد أسماء من سطعت نجومهم في سماء هذا الجامع، ولكننا نقول: إن مذهب مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يجد من يحرص على إحيائه تأليفًا ودرسًا وشرحًا أكثر مما وجد من علماء جامع القرويين، وكانت مؤلفاتهم الفقهية ذات ذيوع بين فقهاء المذهب المالكي في المشرق والمغرب، وكتاب «الديباج المذهب» لابن فرحون يكشف عن هذه الحقيقة بما يسجل من تراجم المغاربة المالكيين، وأكثرهم ممن نبغوا في جامع القرويين.

ويلي الاهتمام بالفقه في هذا الجامع الاهتمام بالقراءات، إذ كان لتلاميذها مدرسة خاصة ملحقة بالمسجد، يؤمها المبتدئون أولًا، فإذا تضلعوا من فنهم انتقلوا إلى ما يشبه الدراسة العليا بالجامع، أما علوم التفسير والحديث واللغة والنحو والبلاغة فقد حظيت بجهود مباركة ولها أساتذتها المرموقون.

وقد يظن بعض الناس أن العلوم الفلسفية قد غبنت في جامع القرويين، لوجود الطابع النقلي في كثير مما صدر من مؤلفات علمائه،

ولكن الواقع المدون هو أن كبار ذوى الثقافة العقلية من نبغاء الأندلس قد رحلوا إلى جامع القرويين وجعلوا يشرحون كتبهم الفلسفية دون تحرج، وفيهم من تعمقوا في الطب والرياضيات والفلك والصيدلة والنبات، وهذه حقيقة أفاض في تسجيلها المؤرخ المغربي الأستاذ عبد الله كنون الحسيني عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة فقال:

«ومنذ انضمام الأندلس إلى المغرب جعل الاحتكاك بأهل الجزيرة يفعل فعله في توجيه الأنظار إلى الأخذ بأسباب العلوم الفلسفية؛ فمن رسل الثقافة العلمية من أهل الأندلس للمغرب أبو بكر ابن باجه الفيلسوف والعالم الطبيعي والرياضي المشهور، وسنخصه بترجمة في كتاب آخر، وأبو العلاء بن زهر الطبيب البارع المدقق في شتى الأمراض، وابنه أبو مروان صاحب كتاب «التيسير في المداواة والتدبير»، وأبو بكر بن طفيل الفيلسوف الشهير، وأبو الوليد بن رشد.

وقد ترك هؤلاء تلاميذ من أبناء المغرب يحذون حذوهم في الفلسفة، والطب، والرياضيات؛ منهم العلامة أبو الياسمين، وابن البناء العدوى الرياضي، وابن أبى الربيع، وأبو القاسم الغول، وابن حميدة، وعبد الرحمن العيابي، وعبد القادر ابن شقرون، وكلهم من أفاضل المتعمقين في هذا المجال.

وكانت الدراسة بالجامع لا تتقيد بوقت معين، بل تبتدئ من الفجر

حتى غروب الشمس، ولكل أستاذ حلقته العلمية وتلاميذه الذين يختارونه بإرادتهم، وعيب هذه الطريقة أن بعض الطلاب يظل في نطاق علوم خاصة اختار أساتذتها بنفسه دون أن يدرس سواها، فربما تبحر في علوم الفقه، حين لا يزال محتاجا إلى مبادئ النحو، ولكن العالم لا يستقل بمكانته في المسجد إلا إذا ألم بجوانب الثقافة الإسلامية من علوم لغة، وعلوم لسان.

وقد ابتليت مساجد الإسلام في عهود الاستعمار بمن يقومون حائلًا دون أداء رسالتها، وأصيب جامع القرويين بشَرٍّ مستطير من الاستعمار الفرنسي، بل إن ما واجه جامع القرويين من الكيد كان أقوى وأفدح، إذ حَرَّم الدخلاءُ على أبناء الجامع أي منصب، كما رفضوا أن يمدوه بعون حكومي، وقد عبر عن ذلك المسيو كوليز مندوب الحماية الفرنسية فقال:

«عند إمضاء عقد الحماية وجدنا أنفسنا أمام حالة واقعة، إذ وجدنا أمامنا بفاس جامعة القرويين التي زودت دول الإسلام الأفريقية طوال عشرة قرون بقادة الفكر، كما وجدنا أيضًا في الحواضر والبوادى عددًا كبيرًا من الكتاتيب القرآنية يمدها السلطان أو الأوقاف بما تحتاج إليه، نعم وجدنا أنفسنا أمام مجموعة زاهرة بديعة من المدارس كبرى وصغرى تعمل تحت ظل الأحياء الحضرية أو تحت الخيام، لقد

سلطت الحماية حربها على هذه المنظمات الثقافية المغربية فأغلقت عددًا كبيرًا من هذه المدارس التي بقيت من آثار هذا التعليم القديم، كما صَبَّت عداءها المستمر على جامعة القرويين وفروعها في مراكش ومكناس والرباط وطنجة ووجدة، وعلى كل المؤدبين القرآنيين.

وكما خرج الاستعمار الإنجليزي خائبًا من بلاد الإسلام فقد خرج الاستعمار الفرنسي دون أن يقدر على تحطيم التعليم الإسلامي، وظلت جامعة القرويين بفروعها في الأقاليم مصدر إزعاج دائم للعدوان حتى برز من تلاميذها مَنْ تعاونوا على دحره، فرجع للبلاد استقلالها الشريف.

ولا يزال جامع القرويين بالمغرب مصباح هداية، وزميلًا قويًا لمساجد التعليم في عواصم الإسلام، ورسالته العلمية مستمدة من وحي الله وقرآنه، فلن يخبو لها مدى الحياة شعاع.

***

عبد الله الهبطي الصوفي الداعية

كان علماء المغرب في الأكثر العام لا يعكفون على جامع واحد يأخذون منه العلم، ولكنهم يعدون المغرب كله بلدًا واحدًا، حتى لتجد العالم الواحد منهم في الزيتونة والمهدية والقيروان وفاس وغيرها، لأن الكثير من علماء هذا الوطن كانوا متصوفة، ومن شأن الصوفي أن يزور مريديه في شتى البلاد، ومكانه الأول هو المسجد، وقد اعترف مؤرخو أوروبا بما كان للتصوف المغربي من أثر في نشر الإسلام بالربوع الأفريقية، إذ كان الصوفي من التيجانية أو القادرية أو الشاذلية أو السنوسية، يؤم البلدة ليس معه أحد غير إيمانه، فيقبل عليه الوثنيون ويستمعون إليه، فيشرح لهم هدى الإسلام ويبنى مسجدًا، وتصبح القبيلة وقد شرح الله صدرها للدين الحنيف.

والعالم الصوفي الداعية عبد الله الهبطي أحد هؤلاء الذين رزقوا شفافية وإيمانًا، وقد دَرَسَ الشريعة الإسلامية في مصادرها وعلى أيدى خيرة علمائها، ولد بطنجة، ودرس بها المبادئ الأولى للعلوم، ثم قام بالرحلة إلى فاس، فانتظم طالبًا بجامع القرويين، وكان ذكاؤه بارزًا على حداثة سنه، إذ جذب أنظار أساتذته بما كان يوجه من سؤال، أو يرد على جواب، وحين انتهى من دراسة علوم الشريعة في القرويين تاقت نفسه إلى التصوف العملي، فاهتدى إلى شيخ يجمع بين العلم

والذوق والشعر، فشد من أزره، وبشره أنه سيكون ذا شأن في العلماء ورجال الحقيقة، وكانت هذه البشارة قوة دافعة لعبد الله فارتحل بعد وفاة شيخه أبي عبد الله التازي إلى مجلس الشيخ الغزواني، وكان ممن جمع الفقه والتصوف، فرُوِّي من حياضه، وصادف عقبات كثيرة؛ لأن المعارضة كانت على أشدها بين رجال التصوف وعلماء الفقه كما هو شائع في كثير من الأزمنة والبلاد، ولكن الشيخ الهبطي كان ذا عزيمة، فقد صمم على أن يدعو القبائل لله، كما يقول عنه بعض مترجميه في هذا الصدد.

ومن جملة مساعي الشيخ لإنجاح دعوته أنه كان يتصل بأعيان كل قبيلة يصل إليها، ويعقد معهم جلسات طويلة، ويجمع الناس حوله، فيسألهم عن قضايا الدين والدنيا معًا، ويسألهم كيف يطبقون أركان الإسلام، ويناقشهم في الطهارة وأحكام الحيض والنفاس والعدة وما إلى ذلك، ثم لا يغادر مكانًا حتى يأخذ العهد من الأعيان والوجهاء على التزام الجادة وإقامة الصلاة في أوقاتها، وعدم استعمال الربا في التجارة، وكان لا يكتفى بالعهد الشفوى، بل يكتب وثيقة خطية بالالتزام من نسختين، يأخذ معه واحدة، وتبقى الأخرى عند أعيان الجماعة[1].

(١) مجلة دعوة الحق (جمادى الأولى ١٣٩٩هـ).

هـذا سـلوك عملـي جيـد في الإصـلاح أتقنـه الشـيخ الهبطـي إتقانًـا مثمرًا، ومن خصائصه في ذلك أنه كـان يتوجـه إلـى المسـجد مباشـرة إذا نزل حيًّا أو ألـم بمدينـة، ثـم يجـالس النـاس ويسـأل عـن الأحـوال، فـإذا وجد انتشـار الخمـر مثلًا، ركـز علـى محاربتهـا، ودعـا إلـى الله، وجمـع حوله فريقًا مخلصًا لأوامر الإسلام ونواهيـه، ولا يـزال يلـح علـى تـرك هذه المعصية، حتى يؤلـف رأيًا عامًّا يستنكر شـرب الخمـر وتجارتهـا، ويعلـن التوبـة، عنهـا ثـم يـدعو تجارهـا إلـى الطاعـة، ويـأمرهم بإراقـة الشراب، وما يترك البلدة إلا حين يتخلص من جريمة الإدمـان، وتنتهـى حركته بنجاح.

وقد دعاه النجاح المبـدئي إلـى الاسـتمرار في نهجـه، فَشَـنَّ الحـرب علـى التـبرج والاختلاط والمغـالاة في نفقـات المـآتم والأفـراح، وكـان الوشم منتشرًا في قبائل المغاربة لدرجـة تسـبب التشـويه، فأخـذ الهبطـي يحارب هذا التقليد، ويرى أن خلقة الله لا تشوه بأساليب منكـرة ليسـت جمالًا، بل تباعد عن الجمال، وأخذ ينظم القصـائد والأراجيـز السـهلة، التي يسهل حفظها، داعيًا إلى ما يحب ومنفرًا عمـا يكـره ويـأمر تلاميـذه بحفظها وترديدها في المساجد والمجتمعات العامة، ليكون لهـا صـداها المؤثر، وكان لها رواتها المحافظون، ونحن نعرف أن الـذاكرة المغربيـة سريعة الحفظ والاختزان، ولا نزال نرى بين المغاربة الآن من يحفظون

كتب الصحاح بأسانيدها وهؤلاء أحفاد أولئك، فراجت منظومات الهبطي رواجًا ذائعًا، وأحدثت أثرها.

وفي أوائل حياته بدأ الاستعمار البرتغالي يزحف على البلاد، حتى اضطرت قبائل كثيرة إلى الجلاء نازحة لأماكن نائية، فرأى الهبطي أن يقوم بدوره في محاربة الاستعمار، فجعل يجمع الناس ويرسل الرسائل لمن يستكن إلى وعود البرتغاليين محذرًا من خديعتهم الباغية، وجعل هدفه الأول بعد أن انتصر على البدع والمآثم أن يوقظ الحفائظ، ويدعو إلى الجهاد، ويحذر من افتراق الشمل، وكانت رسائله المتوالية تقرأ في المساجد العامة، وقد علل الغزو الاستعماري للبلاد بكثرة ما يقترف فيها من المعاصي، وبالبعد عن تعاليم الإسلام في اتخاذ القوة وإعداد السلاح، ومنابذة الأعداء بالعداء، وتفشي المنكرات، وكان التوحيد الخالص أهم ما وجه إليه الهبطي همته؛ لأنه لمس عند الدجاجلة ما يباعد بين بعض العامة وعقيدة الإسلام الخالصة، فتكونت من هؤلاء جماعة من الدساسين، حاولوا الوقيعة به؛ فتعرض لكثير من البلاء، إذ سُجِنَ وعُذِّب وشاهد ما يشاهده أولو العزم من الشدة، فما وهن أو استكان، ثم صلحت الأيام معه، فرجع إلى عزه داعيًا مرشدًا.

وقد ألفت كتب كثيرة حول الهبطي، فيها ما يشيد بآرائه وما ينكرها والمنكرون هم الذين لا يتجهون وجهته في التوحيد، لأن كثرة

المؤلفات في علم الكلام، وتعدد الفرق الكلامية، قد جعل لكل رأى مخالفًا ولا يعدم العلماء من حسدة العاملين أن يعارضوهم بما لا يتفقون فيه مع بعض الآراء المدونة، ولكن الزبد يذهب جفاء، وتبقى الحقائق الناصعة، وأكبر عيب في هذا اللجاج أنه يضع العامة في حيرة، لأن المؤمن الساذج لا يصبر على تناطح الآراء، وتصادم الأدلة، ولكنه يضطر إلى الإذعان لمن يجد عنده جلبة الصوت وضخامة الرنين، وكثرة الأتباع، وإن كان مرجوح الرأي غير راجحه، وكم رأينا في سجل الأيام من باطل رُفِع، وحق وُضِع، حتى ذهب الجيل المغرض، وجاءت أجيال أخرى تناقش في حياد، وتنصف في تؤدة فيتبدد الزيف، ويحق الله الحق.

وقد أنشأ الهبطي معهدًا علميًّا خاصًّا بالجبل الأشهب سمَّاه معهد المواهب، وجعله موزعًا بين دراسة الشريعة ودراسة علم الحقيقة، حيث يبدأ الطالب بالفقه استيعابًا وتحصيلًا مستندًا إلى كتاب الله والمأثور من الحديث، ثم ينتقل إلى دراسة الحقيقة في صفائها الروحي دراسة تعتمد على المجاهدة والصبر، وأنا أرى أن التصوف لن يكون بالتخرج من معهد أو مدرسة لأنه ليس أمرًا جماعيًّا يتهيأ له كل إنسان، ولكنه استعداد شخصي عند ذوى الأذواق، فهو كالشعر مثلا لا يستطيع الإنسان أن يكون

شاعرًا لأنه حفظ دواوين الشعراء، ولكنه يصبح شاعرًا لما لديه من موهبة ينميها الحفظ والاجتهاد، وقد عاش الشيخ الهبطي بين سنتي ٨٩٠هـ - ٩٦٣هـ، وقد أدى رسالته الطيبة، وترك الكتب الحافلة، والتاريخ الطيب، وما عند الله أوفى وأتم.

مسجد الزيتونة

لا يكـاد يختلـف مسـجد الزيتونـة بتـونس عـن جـامع القـرويين في مشربه العلمي، وسلوك طلابه وأساتذته، وما يقرءون من علوم وفنـون، ويدرسون من متون وشروح وحواش وتقريرات.

وفي مجال القول عن نشأته يذكر المؤرخون أن حسـان بـن النعمـان قد أقام المسـجد بـالزيتون في عـام ٨٤هـ، ولكـنهم يسـتبعدون أن يكـون هذا المسجد هو ما يعرف اليوم بمسجد الزيتونة، لأن البكـرى قـد نـص صراحة على أن جامع الزيتونة قد بني على يـدي عبيـد الله بـن الحبـاب سنة ١١٤هـ، فيكون بذلك أقدم من القرويين والأزهر والنجف، ولكـن النويري يذكر أن المسجد قد بني في عهـد بنـي الأغلـب، إذ شـرع أحمـد ابن محمد بن الأغلب في بنائه سنة ٢٤٨هـ، وعرف حينئذ باسم الزيتونة وبالنظر إلى هذه الأقوال المتضاربة نرى أن حسان بـن النعمـان، وعبيـد الله بن الحباب، وأحمد بن الأغلب قد بنوا مساجد بتونس ولكن ما مـن المسـاجد الثلاثـة قـد كتـب لـه أن يكـون جـامع الزيتونـة؟ لا نجـد إجابـة محددة، ولذلك ذهب الثلاثة جميعًا بفضل الإنشاء دون تـرجيح لواحـد معين.

غير أن الثابت أن مسجد الزيتونـة قـد اشـتهر رسـميًّا بطلابـه وعلمائـه منـذ عهـد السـلطان يحيـى بـن زكريـا، إذ كانـت مجـالس العلـم قبـل ذلـك

العهد اختيارية لا تدل على التزام معين بأستاذ محدد، وطلاب يؤلفون ويعكفون على درسه في مادة معينة.

وإذا كان العلماء يرحلون ويعودون مشرقًا ومغربًا، فإن نظم الدراسة بالمساجد كانت متقاربة، ونحن نعلم أن أول صوت للإصلاح الديني في تونس كان على يد المصلح العالم الوزير خير الدين التونسي، وقد وقف طويلًا عند الحركة التعليمية بمسجد الزيتونة، وحاول إصلاحها وفقًا لما يتشربه من مبادئ الإصلاح.

يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح في العصر الحديث متحدثًا عن الحركة العلمية بتونس[١]:

وعلى رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة، وهو صورة مصغرة من الأزهر في ذلك العهد، تُقْرَأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وعقائد، وعلوم اللغة من نحو وصرف وبيان، وفى كتب مقررة لها متون وشروح وحواش، ويقضى الوقت في تفهم تعبيراتهم، وإيراد الاعتراضات عنها، والإجابة عليها، فالعلم شكل علم لا علم، والناجح في الامتحان الذى يستحق أن يُسمَّى عالمًا أقدرهم على الجدل، وحفظ المصطلحات الشكلية، أما الجميع فسواء في عدم التحصيل إذا مسوا الحياة الخارجية

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ١٤٨.

فالمناقشة عنيفة، في أن شرب الدخان حلال أو حرام، والغيبة أشد حرمة أم سماع الآلات الموسيقية وخيال الظل تجوز رؤيته أو لا تجوز.

وقد أمر خير الدين بإصلاح الدراسة بالزيتونة، وألف لجنة برئاسته تضم كبار العلماء، ومَنْ كان يعرف في هذا الزمن بوزير القلم، وترك لكل عضو أن يرسم خطة وفق تصوره، ثم يعرضها على اللجنة لتختار ما يروقها من اقتراحاته، وما زالت تعقد اجتماعاتها حتى صدر قانون الإصلاح سنة ١٣٩٢هـ فعُين للمسجد نائبان عن الدولة يرقبان تطبيق القانون، وعين نائب ثالث عن مستشار المعارف، وكان العلامة الشيخ عمر بن الشيخ أحد أعضاء اللجنة، ثم اختير مهيمنًا عامًّا على تنفيذ قانون الإصلاح، فانتقلت الدراسة بالزيتونة من عمل ارتجالي إلى برنامج منهجي قدر المستطاع.

وقد عثرت على مقال جيد للأستاذ محمد الخضر حسين يتحدث فيه عن أستاذه عمر الشيخ، وعن دروسه بمسجد الزيتونة، فرأيت أن آخذ منه الطابع العام للدراسة العلمية في الزيتونة بعد صدور القانون، لأن العلامة الأستاذ عمر الشيخ كان عضوًا بارزًا في اللجنة، ثم مهيمنًا عامًّا على الدراسة، وطبيعي أن ينحو في دروسه المنحى الذى يشير به

القانون الإصلاحي، وهو ما وضحه تلميذه الأستاذ محمد الخضر حسين حين قال[1]:

«درس الأستاذ كتبًا عالية في علوم شتى، تدريس بحث وتحقيق، منها الشرح المطول على متن التلخيص، وشرح الأشموني على الخلاصة، وكتاب مغنى اللبيب، وشرح المحلى على جمع الجوامع، وشرح السعد على العقائد النسفية، وشرح الزرقاني على المختصر الخليلي، ودرس كتاب المواقف بشرح السيد، ولم يكن من الكتب التي تدرس لذلك العهد.

أما أسلوب الأستاذ في التعليم فمن أنفع الطرق، كان يقرر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتضح المراد منها، ثم يأخذ في سرد عبارات الشرح، وما تمس الحاجة إليه من الحواشي والكتب التي بحثت الموضوع لاسيما الكتب التي استمد منها شارح الكتاب، ويتبعها بالبيان جملة جملة، ولا يغادر عويصة، أو عقدة، إلا فتح مغلقها، وأوضح مجملها، بحيث يتعلم الطالب من درسه كيف يلتقط جواهر المعاني من أقوال المؤلفين زيادة عما يستفيده من العلم، فالأستاذ لم يأخذ في درسه بطريقة الإملاء، كما يصنع كثير من كبراء الأساتذة إلا أن له مزية التحقيق

(١) مجلة الهداية الإسلامية (جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥هـ).



والكشف عن أسرارها بوجه يدلك عما له من سعة العارضة، والغوص في أعماق الباحث إلى أبعد غاية.

ويظهر من كلام الأستاذ الخضر أن هناك طريقتين للشيوخ في التدريس، طريقة الإملاء وهى أسهل الطرق، لأن المدرس يقرأ المتن ويملى خلاصة ما جمعه حوله من الشروح والحواشي والتقريرات، وطريقة الشرح المطلق، حين يقرأ الأستاذ النص والعبارة، ويتولى شرحها وإخراج المحترزات وتوجيه ما قد يوجد من اعتراض مع محاولة الرد الموجه، ومهما يكن من شيء فكلتا الطريقتين في حاجة إلى استكمال.

وقد زار الأستاذ الإمام محمد عبده مسجد الزيتونة وألقى فيه درسا رائعًا ينقد طريقة التدريس، ومواد العلوم السائدة في عصره، وسنخص كلام الإمام بتحليل كاشف في غير هذا الكتاب.

محمد الخضر حسين

درس الأستاذ الأكبر في مسجد الزيتونة، ونال أرقى شهاداته، ثم رحل إلى مصر فتدرج في المناصب الدينية العلمية حتى صار شيخًا للأزهر، وهو أكبر منصب ديني في البلاد، وإذا كان الإمام المناضل مفخرة من مفاخر الزيتونة فإننا نتخذه مثالًا رائعًا لمن أنجبهم هذا المعهد الجليل، وسنلخص بعض ما كتبناه عن حياته في الجزء الأول من كتاب «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»[1].

ولد الأستاذ في قرية من قرى الجزائر على حدود القطر التونسي، وفى أسرة تعتز بعراقة النسب وتفخر بمن أنجبت من العلماء والأدباء، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره التحق بجامع الزيتونة طالبًا، وأكب على التحصيل والفهم حتى نال الشهادة العالمية عن جدارة، وتهيأ للإفادة كاتبًا ومدرسًا وقاضيًّا.

كان الشيخ الخضر علمًا بارزًا بين أقرانه، وقد لمس ما حوله من اضطهاد استعماري للدين، وابتزاز لخير البلاد، فأنشأ مجلة «السعادة العظمى» لتنبه الأذهان إلى خطر الاحتلال وتكشف عن تخلف

(١) من ص ٦٤ – ٨٧ نشر مجمع البحوث الإسلامية.

المسلمين في عهدهم الراهن في مجتمع يقول الأستاذ أحمد أمين[1] في وصفه:

«جزء كبير من السكان بدو لا يعرفون من الإسلام غير الشهادتين، ولا يصل إليهم شيء من علم إلا في بعض أماكن أنشأ فيها الصوفية زوايا تُعَلِّم الناس شيئًا من الدين؛ وللجاليات الأجنبية، من فرنسية، وإيطالية، وإنجليزية، مدارس تعلم أبناءها وقليلًا من أبناء البلاد اللغات والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة، فإذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد إلى أيديهم وأما إدارة البلاد ففوضى لأن الحاكم حاكم بأمره».

لم يقنع الأستاذ محمد الخضر حسين بما أسند إليه من الوظائف المرموقة بتونس، وهى وظائف تضمن العيش الرغيد، وتُوَفِّر أعباء السعي، إذ رأى الأجنبي يحاول أن يطمس روح الإسلام في تونس، كما يرغب في نبذ اللغة العربية واستبدال العامية بها والناس نائمون لا يكادون يستيقظون لذلك أنشأ الشاب الناهض مجلة «السعادة العظمى» لتفضح أساليب الدخلاء، وكان ذا مذهب سياسي واضح، فهو يعتقد أن فساد الأمم الإسلامية يرجع في أصح أسبابه إلى انصراف المسلمين

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ١٤٩.

عن هدى الشريعة الإسلامية، كما يرى أن السيطرة الأوروبية لم تملك زمام الأمور في الشرق إلا حين اعتصمت بالعلم، واستضاءت بالعقل، وأن الشلل الفكري لم تتركز أصوله في الشرق إلا حين استطاع المستعمرون أن يشوهوا وجه الإسلام بما حاكوا حوله من الأراجيف.

كانت مهمة المجلة خطيرة حقًّا، وكان أثرها رائعًا، إذ أزعجت السلطات الفرنسية، فقدمت الأستاذ الخضر إلى المحاكمة، وأصدر القضاء الظالم حكمه بإعدامه، حتى اضطر إلى الفرار إلى الآستانة، واهمًا أن مجال الإصلاح بها أوسع، ولكنه وجد عاصمة الخلافة تموج بالفتن والدسائس، فَولَّى وجهه إلى دمشق ليقوم بتدريس علوم العربية في المدرسة السلطانية، ولينشر ما يستطيع نشره من مبادئ الحرية، ثم سافر إلى ألمانيا واتصل بأعلام الإسلام من محاربي الاستعمار، مثل محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وعبد الحميد سعيد، فأخذوا يتدارسون وسائل الإنقاذ، ثم عاد إلى دمشق، فأزعجه انتصار فرنسا في الحرب العالمية الأولى؛ لأن أعوانها في تونس يتربصون به الدوائر، وينتهزون الفرص المواتية لاعتقاله كي ينفذ فيه حكم الإعدام، ولكن الله شاء للرجل المناضل أن يستقر في مصر، وأن تحتضنه هذه البلاد الكريمة مرحبة مهنئة، وقد وقف المسئولون على نضاله الباسل، فأنزلوه أكرم منزل بين المجاهدين.

وما كاد الأستاذ يجد نفسه في مصر حتى عُيِّن بدار الكتب المصرية، وامتدت صلاته بأحرار الأمة ونبغائها، فعرفوا مكانه، وعين أستاذًا بكلية أصول الدين بالأزهر وعضوًا بمجمع اللغة العربية ورئيسًا لتحرير مجلة «نور الإسلام» ثم واصل جهاده آمنًا فأنشأ جماعة الهداية الإسلامية ورأس تحرير مجلتها، وانتشر صيته الأدبى حين نقض كتاب الشعر الجاهلى وكتاب الإسلام وأصول الحكم، وقال كلمة الحق الساطعة فيما انتشر من ضباب، وبذلك عد قلمه من أقوى الأقلام في سجل النقد الهادف، والبحث الأمين.

لقد كان علم الأستاذ طريقه إلى الأستاذية بجامعة الأزهر وإلى المجمع اللغوي بين صفوة الباحثين من كبار الأساتذة، وله في ساحات المجمع وفى صفحات مجلته آراء علمية أخذت مجال النقاش بين المحافظين والمجددين، فكان صوته مسموعا رنانًا مع أصوات حسين والى وأحمد الإسكندري وعلى الجارم وعبد القادر المغربي ومحمد رضا الشبيبي وحسن حسنى عبد الوهاب من أئمة البحث العلمي، وذوى الإخلاص الأدبي، وقد اشترك في معارك لاقت حسمها الظافر على يده، وله في مسائل الاشتقاق والتعريف وجموع التكسير والفصيح والدخيل صولات ترجو أن تجد من يكب على دراستها ليحدد مناخها الفكري على وجه وضيء.

أما مشيخته الكبرى للأزهر الشريف، فقد كانت دليلًا على أن الله ﷻ لا يتخلى عن رجاله المناضلين، إذ يأبى عدله الرحيم أن يترك هذه الجهود المضنية في السياسة والدين والتشريع والنقد تضيع بددًا دون تقدير فجاء اختيار الخضر دليلًا على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأحدث تعيينه في منصبه الكبير فرحة هائلة بين أهل العلم، ورأى الأزهر لعهده حلقة ذهبية في سلسلة حلقاته التي تضم المراغي، ومصطفى عبد الرازق، وعبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، وعبد الرحمن تاج، من ذوى الفضل المشهود، والمكان المحمود، وطفق الزائرون يتقاطرون على مكتبه سائلين عن مشكلات العلم ومعضلات الحياة، فيرون الرد الشافي، والحجة البالغة، ومازال الرجل موضع التقدير حتى انتقل إلى جوار ربه فسعد بثواب ما أسلف من كفاح والعاقبة للمتقين.

جوامع النجف الأشرف

ونقول جوامع؛ لأن الجامع قد أخذ يربو ويمتد، وألحقت به المدارس على هيئته، وتعددت بتوالي الزمن، وهو الآن في الاصطلاح الحديث «جامعة النجف الأشرف».

وقد بدأ تأسيس جامع النجف في القرن الثاني من الهجرة، إذ عثر على قبر الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ في عهد هارون الرشيد، فأمر بإنشاء مسجد له جعل يجذب المسلمين إلى زيارته، وفيهم من طابت له الإقامة بجواره، والتدريس في صحنه، وهكذا أصبح نواة لجامعة علمية ذات طلاب وأساتذة.

وقد ظلت الدروس بالمسجد اختيارية وعلى أبعاد لا تحدد بزمن خاص، حتى منتصف القرن الخامس الهجري حين وفد من بغداد الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، العالم المتبحر ذو التآليف الكثيرة، والموسوعات الضافية، فاختار جامع النجف مقامًا لراحته، ومدرسة لطلابه، وجذب إليه الطلاب من كل صوب، حتى أنشأ علماء كبارًا جلسوا مجلسه من بعده وواصلوا درسه، فاتصلت حلقات التدريس عامًا بعد عام، واضطر المريدون من رجال المذهب الشيعي أن يوسعوا من مساحة الجامع حتى اكتمل عمرانه في القرن الثالث عشر من الهجرة.

ونبغ من أساتذته العالمان الكبيران السيد محمد مهدي بحر العلوم، والشيخ جعفر كاشف الغطاء، وكان لهما من النفوذ الروحي ما عَجَّلَ ببناء المدارس والمساكن في رحاب الجامع ومن حوله حتى كاد يصبح مدينة.

يقول الأستاذ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه بالنجف الأشرف من مقال نشره تحت عنوان «جامعة النجف الأشرف»: «ومن هذا العهد الأخير كثرت البنايات لسكنى الطلاب المهاجرين إليها من مختلف البلاد النائية، التي تسمى بالمدارس، وهى أشبه ما تكون بالأقسام الداخلية، ويبلغ الموجود منها قرابة ثلاثين مدرسة ما بين كبيرة وصغيرة، بعد أن كانت بناية صحن الحرم العلوى هي المأوى الكبير لهم من أبعد العهود، وفى النجف اليوم «سنة ١٣٨٠هـ» حوالى خمسة آلاف طالب من مختلف الأقطار الإسلامية، وتقوم المرجعية العامة بتعيين جرايات شهرية لكل طالب، وتعتمد في مواردها المالية على الحقوق الشرعية التي يدفعها المؤمنون في مختلف الأقطار، وليس للمرجعية أي مورد حكومي، ولا علاقة لها بالحكومات على اختلافها في شئونها الخاصة والعامة مادية وغيرها»[١].

(١) مجلة الأزهر، ص ٦٠٤ من المجلد الثاني والثلاثين سنة ١٣٨٠هـ.

والدراسة بالنجف الأشرف بعد تنظيمه تنتظم ثلاث مراحل، تعرف المرحلة الأولى بمرحلة «المقدمات»، وفيها يدرس الطالب علوم النحو والصرف والبلاغة والمنطق في كتبها الذائعة في الأزهر الشريف مثل شروح ألفية ابن مالك، وشرح قطر الندى لابن هشام، والشمسية في المنطق، وللطالب الحرية في هذه المرحلة في اختيار الكتاب الذى يدرسه، والعالم الذى يجلس إليه، وله حرية النقاش والنقد، وعلى المدرس أن يكون واسع الصدر، مرحبًا بكل حوار، وقد تنضم إلى دروس هذه المرحلة حصص للعروض والقافية وعلم الكلام والعلوم الرياضية وفق رغبة الطالب وبقدر استعداده.

أما المرحلة الثانية فتعرف بمرحلة «السطوح»، ولعل المقصود بها مرحلة الدراسة المستوعبة دون تغلغل في الدقائق، إذ يلم الطالب بالكتب الاستدلالية في علم الفقه، والحكمة والفلسفة الإلهية، والتفسير والحديث وعلم الرجال وقد رأى المشرفون على التعليم بالجامع أن هذه المرحلة في حاجة إلى دقة تنظيم، وجدية استماع وتفهيم، فرأوا أن تتحول إلى كلية تسمى «كلية الفقه» تكون كغيرها من الكليات العلمية ذات مناهج وامتحانات ودرجات، مع إضافة ما يسمى بالعلوم الحديثة، مثل التربية وعلم النفس والفقه المقارن.

وتأتي المرحلة الثالثة وهى تعادل مرحلة الدراسات العليا في

الجامعات المعاصرة، حيث يحضر الطلاب دروس الكبار من أئمة المجتهدين في الفقه والأصول، ولها دورات متعاقبة على شكل جماعي ليكون النقاش بمحضر الكثير من العدد، ولا يكون العالم فقيهًا متمكنًا إلا إذا كان مبرزًا في هذه المرحلة الدقيقة، ونال درجتها العلمية بتفوق مشهود.

ومكتبات الجامع كثيرة، منها المكتبات العامة التي لا تنسب إلى غير المسجد، ومنها المكتبات التي أهداها كبار الباحثين كمكتبة آل كاشف الغطاء.

ومن الملاحظ أن الدراسة في جامع النجف بلغتين اثنتين هما اللغة العربية، واللغة الفارسية، لأن أبناء الشيعة في إيران وأفغانستان والهند وباكستان يفدون إلى النجف دون أن يعرفوا غير الفارسية، وفيهم من يحذق العربية تعليمًا ودرسًا حتى يصير كأحد أبنائها، وتمده قراءة القرآن بذخيرة وفيرة من البلاغة العالية، وفيهم من يقتصر على الفارسية وحدها، ولطلابها بالنجف كتاب يسمى «جامع المقدمات»، وبمراجعة ما يدرس في النجف نرى أن كتب الحواشي لا تزال تسيطر على وجوِّه، فشروح التفتازاني والجرجاني البلاغية، وشروح الألفية النحوية، وشروح كتاب الإشارات لابن سينا، والتجريد للحِلِّي، كل ذلك مما يدرس بالجامع، وذلك لا يمنع الاطلاع على المؤلفات



الحديثة لكبار المعاصرين، والاهتمام بما يحمل الثمر المستطاب.

ولطلاب النجف ولع بالشعر العربي يستظهرون أكثر قصائده، وقد برز منهم شعراء يملأون ساحة العراق شعرا رائعًا. وفيهم من تجاوز الرافدين إلى شتى بقاع العربية كالشبيبي والدجيلي والحبوبي والحلي، وإذا كان المحرم واحتفل القوم بذكرى الحسين، فإن قصائد الرثاء الحارة ترن في النجف الأشرف رنين النصال في الأكباد لشدة تأثيرها، ولذع حرارتها، ولو قُدِّرَ لها أن تجمع في مجلدات لكانت موضع الدهش والإعجاب، وأكثر هذه القصائد مما ينحو منحى الفحول، ويذكر بمراثي الكميت والشريف الرضى ومهيار، وكلهم من شعراء الشيعة الكبار ذوى البيان المجلجل، والصدى الرنان.

محمد رضا الشبيبي

اخترت العلامة الشاعر المكين الشيخ محمد رضا الشبيبي ليكون ممثلًا للنجف الأشرف، لأن اختيار شاعر كبير، جهير المكانة، رنان الاسم، يدل على أن التبحر في علوم الشريعة واللغة لا يمنع صاحبه من التحليق في عوالم الخيال، والاستجابة إلى هواتف العاطفة، والتمتع بالحاسة الموسيقية ذات الإيحاء الصادح، وقد كان الشبيبي زميلًا للزهاوي والرصافي في زعامة الشعر بوادي الرافدين، ولكنه نأى عن شططهما الفكري، فلم يجنح إلى سفسطة ذات شطط، ولم يسرف في ادعاء الرقى بمحاربة ما رسخت جذوره من تقاليد التصون والاحتشام، كما أنه لم يكن شاعر المناسبة الطارئة، يقول في كل حادثة تشغل الذهن، ولكنه يعرف للشعر سبحاته العالية وآفاقه البعيدة، كما أنه رزق تعمقًا ضليعًا أورث شعره دسامة وغورًا، فأنت معه أمام شاعر مفكر ذي أبعاد وأغوار، وحسبه أنه كان يغني أولا لنفسه، يغني لينفس عن شعور يتملكه ولا يعنيه إن كان هذا الشعور صدى للناس، فهو شائع مشترك، أو خاصًا به، فهو أحد مميزاته المتفردة، وكنت أود أن أفيض في مثل هذه المعاني كما يسمح امتدادها المنبسط، ولكن المقام مقام تعريف وإلماع.

تربى الأستاذ في مسجد النجف الأشرف، وتملأ من علومه، وقاد

حركة الإصلاح الديني في هذا الجامع الكبير، وطارت له شهرة في الإصلاح الهادف، وآراء قوية في سياسة الوطن، فتهادته المناصب الرفيعة، إذ كان وزيرًا للدولة خمس مرات، ورئيسًا لمجلس الأعيان، ورئيسًا لمجلس النواب، ومشاركًا لَسِنًا في كل معارك الإصلاح، ولم تمنعه زعامته السياسية أن يكون علمًا من أعلام الفكر يكتب البحوث العلمية العويصة، ويؤلف الكتب الأدبية الرصينة، وينظم القصائد العالية الدقيقة، ويرأس مجمع اللغة العربية في بلده، ويشارك في المجامع الأخرى بمصر وسوريا، ولجهاده الحافل الآهل في سبيل اللغة والدين والأدب كرمته جامعة القاهرة، فمنحته الدكتوراه الفخرية في الأدب والتاريخ، وأقامت له عواصم البلاد العربية حفلات التكريم.

يقول الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات مشيرًا إلى نشأته الزاهرة:

كان جده شبيب الذى ينسب إليه من أعلام الفقهاء المحدثين في عصره، وقد ورَّث بنيه الميل إلى علوم الدين وما يعين عليها من وسائل فتهيأ محمد رضا لتلقى الأمانة بحفظ القرآن، وتعلم الخط على مُقْرئة صالحة، ثم طلب علوم اللسان والعقل على طائفة من خيرة العلماء العرب والفرس، وكان ميله الغالب إلى علوم المنطق والفلسفة والأدب، فقرأ فيها أمهات الكتب، وجمع منها نوادر المخطوطات، وكان منهج التعليم في النجف على النمط القديم، يلازم الطالب أستاذًا

بعينه، في علم بعينه، حتى يخرجه فيه، ويجيزه به، إلا أن هناك مجالس كانت تعقد في أروقة النجف يغشاها كثير من الطلاب ليستمعوا إلى محاضرات في الفقه والأصول يلقيها أئمة العصر كمجلس الأصول للملا كاظم الخراساني، ومجلس الفقه لفتح الله شيخ الشريعة.

وكان من بين هؤلاء فقيدنا الشيخ الشبيبي، فلما استحار شبابه، وبرزت شخصيته تحركت في نفسه نوازع القيادة الأصيلة في بيوت العلم بالنجف، وعلماء الشيعة في العراق وإيران، ظلوا في جميع العهود قوامين على الناس، لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإشارة من مجتهد، أو مقالة من عالم[1].

وقد ترك العلامة الباحث النجفي مؤلفات شهيرة منها تاريخ الفلسفة منذ أقدم عصورها، وأدب النظر في المناظرة، وفلاسفة اليهود في الإسلام، وتذكرة ما عثر عليه من الكتب النادرة، والمسألة العراقية، وتاريخ النجف، والمأنوس من لغة القاموس، ومؤرخ العراق ابن القوطي، وأدب المغاربة الأندلسيين في أصوله المصرية، وتراثنا السلفي، هذه هي الكتب، أما البحوث الجيدة التي نشر بعضها في المجلات، وألقى بعضها الآخر في مؤتمرات المجامع اللغوية وأندية الأدب، فيضيق المجال عن سردها، وهى تدل على ثقافة واسعة،

(١) مجلة مجمع اللغة العربية- الجزء الثاني والعشرون ص ١٩٠.

وعقل نفاذ، وعكوف على العمل الجاد بعيدًا عن الصخب والضوضاء، وكان للشبيبي صبر ملح على البحث حتى ليجهد نفسه الليالي ذوات العدد ليتأكد من نسبة رأي إلى صاحبه، حتى لا يسجله منسوبا إليه دون احتياط تام، وله في ذلك موازنات صامتة في ترجيح رواية على رواية، وتزكية مؤرخ على مؤرخ، مما هو ديدن الأئمة الأثبات.

ونترك شعره الفلسفي والسياسي إلى باقة ناضرة من شعره الاجتماعي الذى يصور خلقًا عامًّا في الناس، ويرسم عيبًا أليمًا يحتاج المفكرون إلى التنبيه إليه لينأى عنه ذوو الهمة من الفضلاء، وذلك حيث قال:

فتنة الناس وقين الفتنا	باطل الحمد ومكذوب الثنا
رب جهم حولا قمرا	وقبيح صيراه حسنا
أيها المصلح من أخلاقنا	أيها المصلح، الداء هنا
كلنا يطلب ما ليس له	كلنا يطلبه حتى أنا
ربما تعجبنا مخضرة	أربع في الأصل كانت دمنا
لم تزل ويحك يا عصر أفق	عصر ألفاظ كبار وكنى
حكم الناس على الناس بما	سمعوا عنهم وغضوا الأعينا
فاستحالت وأنا من بعضهم	أذنى عينا، وعينى أذنا
أخطأ الحق فريق يائس	لم يلومونا، ولاموا الزمنا
إننا نجنى على أنفسنا	حين نجنى، ثم ندعو من جنى
خسرت صفقتكم في معشر	شروا المال وباعوا الوطنا
أو عصوه، ولو ابتاعوا به	هذه الدنيا، لقلت ثمنا!
إنني ذاك العراقي الذي	ذكر الشام وناجى اليمنا
إنني أعتد نجدا روضتي	وأرى جنة عدنا

هذا هو محمد رضا الشبيبى تلميذ النجف الأشرف صغيرا، وأحد أعلامه العظام كبيرًا، ونوجز الحديث عنه لنحفظ له مكانته، ولندل عليه من يريد أن يترسم سلوك النابهين.

الجامـــع الأزهـــر

تاريخ الأزهر في حاجة إلى كتاب برأسه، بل إن كل ناحية من نواحيه العلمية والسياسية والإرشادية والاجتماعية في حاجة إلى كتاب خاص، ولابد أن يتفرغ جماعة من الباحثين لكتابة علمية تضيء شتى هذه الجوانب، بمناسبة الاحتفال بعيده الألفى، ونحن هنا سنتحدث عنه بالقدر الذى لا يخرج عن الطابع العام لهذا الكتاب.

أنشئ الجامع الأزهر في العصر الفاطمي ليكون رمز التوجيه الديني والسياسي للدولة الجديدة، لأن الفاطميين ذوو مذهب ديني لا تعرفه البلاد، ولابد أن يقوم بنشره فئة ممتازة من الدعاة، ولابد أن يكون المسجد منارة هذا المذهب، وإذا كانت الدولة الفاطمية تعتز بنسبتها إلى السيدة فاطمة الزهراء- رضى الله عنهما- فقد اشتق اسم الأزهر من مادتها ليكون واضح الدلالة في انتمائه إلى دوحة رسول الله ﷺ.

وقد أنشأه جوهر الصقلي بأمر من المعز لدين الله، ثم أضاف إليه الحاكم بأمر الله عدة أبنية زادت من اتساعه وجلاله، ولئن عطل في عهد الدولة الأيوبية، فإن عناية الله أدركته في عهد سلاطين المماليك، فحمل لواء الثقافة الإسلامية حين لم تجد لها ملجأ غيره، لأن سقوط بغداد شرقًا، وضياع الأندلس غربًا قد جعل القاهرة مصبًّا للعلماء من الشرق والغرب، فاتخذوا الأزهر موئلًا يرعاهم سقفه، ويطعمهم ماله،

ويطمئنهم أمنه، وانتشرت الموسوعات الثقافية في العصر المملوكي على أيدى العلماء من كبار الأزهريين لتكون تعويضًا عما فقد من الكتب حين داهم التتار بغداد، فأغرقوا مكتبتها في الفرات ودجلة، وحين سلط الحريق على مكاتب غرناطة وقرطبة فأصبحت أثرًا بعد عين، ولكن الأزهر قد استدرك وأعان، فكان أجمل عوض عما ضاع.

كان الأزهر كعبة الفاطميين الدينية، إذ هو مكان الصلاة والدرس والاحتفاء بالمواسم الدينية، وكان منبره الأصيل مذياع الخليفة يتسنمه هاديًا، ومبشرًا ومنذرًا، وحين عزمت الدولة على أن يكون الأزهر جامعة كبرى للتعليم، بدأ الدرس به أبو حنيفة النعمان القيرواني قاضي المعز لدين الله، فأخذ يقرأ بعض مصنفاته على العلية من الناس، ثم شاركه في الأستاذية يعقوب بن كلس الوزير الفاطمي، ولكنه لم يشأ أن يجعل الدروس مقصورة على القاضي والوزير، بل بدأ بالخطوة العملية التي حددت رسالة الأزهر الجامعية، فبعد أن كان يتخذ من رمضان موسمًا لإلقاء دروسه التي يحضرها كبار الفقهاء والقضاة استأذن العزيز في تعيين جماعة من المدرسين للتعليم بالأزهر فأوجد حلقات متنوعة لدراسة الدين واللغة والنحو والمنطق والقراءات والفلك، وأصبح الأزهر، على يد ابن كلس، كلية ذات مواد وأساتذة وطلاب، وإذا كان يعقوب بن كلس هو أول من وضع الحجر التعليمي

للطلاب بتعيين المدرسين وتحضير المناهج، فإننا سنكشف بعض جهده في حديث خاص إذ إن ألسنة النقد تناولته رجمًا بالغيب، ولا أقل من أن نرفع عنه ما لحقه من ظلم، وهو صاحب الفكرة الثقافية وبادئ الخطوات الفكرية الأولى في تاريخ الأزهر المجيد.

كانت الدراسة بالأزهر للعصر الفاطمي خاصة وعامة، خاصة لمن التحق من الطلاب، وعامة لمن يريد الثقافة من الجمهور، فللأولين أمكنتهم وأزمنتهم وأساتذتهم في تحديد لا يقبل اللبس، وللآخرين حلقات عامة يؤمها من يرغب الاستماع دون حرص على الاستمرار، ومن أطرف ما يسجل أن النساء كانت ذات حلقات تعليمية في الأزهر الفاطمي، ومعنى ذلك أن تعليم البنات كان هدفًا من أهداف الأزهر منذ إنشائه، فليست كليات البنات الإسلامية بالأزهر اليوم شيئًا جديدًا ولكنها ذات سلف بعيد.

وإذا كان الأزهر قد تُرِكَ مهملًا في العصر الأيوبي فإن العصر المملوكي قد رد إلى الجامع العريق اعتباره على يد الظاهر بيبرس حين أمر بإعادة الخطبة، وتهيئة الطلاب والمدرسين، فوقف الأموال وأنشأ الأروقة والعمارات، ومنح الطلبة هبات شهرية مجزية، ولم يقتصر التدريس على علوم الشريعة واللغة، بل وجدت حلقات للفلسفة والرياضيات وعلوم الطبيعة، وأكثر مؤلفى العصر المملوكي من علماء

الأزهر، وكثير من الطلاب قد وفدوا من خارج مصر، فاتسع لهم صدر الأزهر الرحيب.

وكان الله ﷻ قد جعل النحس والسعد متعاقبين، إذ إن العهد المملوكي قد كان يمنًا وبركة على الأزهر والإسلام، فأعقبه العصر العثماني، فكان المدرسون والطلاب يملأون الحلقات حسبة لوجه الله دون انتظار معونة ما من الدولة، وإذا كانت التركية هي لسان الحاكمين وأداة القانون ولغة المراسيم، فإن الأزهر قد تكفل بصيانة العربية، والحفاظ عليها، ولولا ثباته في هذا الليل المدلهم لضاع التراث الإسلامي بنصه العربي، فليحفظ التاريخ للأزهر جهده الباسل في سبيل العربية حين فقدت النصير.

وجاء الغزو الفرنسي، فكان الأزهر بعلمائه وطلابه موضع المقاومة للاحتلال، وعلقت المشانق لتغتال من كبار علمائه من حفظ التاريخ أسماءهم غير ناس، وفى عصر محمد علي وما تلاه بدأ الأزهر يأخذ دوره العلمي، ويشرئب لإصلاح تلاحقت ومضاته خفوتًا وإشراقًا، حتى استطاع الأستاذ الإمام محمد عبده أن يجهر بدعوة الإصلاح، فتألف مجلس أعلى للأزهر، ووضع قانون لمواد الدراسة، ودرجات العلماء، ورواتبهم، ولأعمال الامتحان، ثم ألحق بالأزهر معاهد التعليم في مساجد دمياط ودسوق وطنطا والإسكندرية.

وهكذا تفرعت السبل بالأزهر، فأصبح نهرًا ذا روافد دافقة، وأخذ يتطلع إلى نظام مستتب رشيد، وسار الزمن، فجاء الإمام محمد مصطفى المراغي لينشئ الكليات ويكثر المعاهد، ويرتفع بالمستوى المادي والثقافي بالأزهر والأزهريين، ومازالت خطوات الإصلاح تتتابع حتى أصبح الجامع جامعة تضم قرابة ثمانين كلية، وأصبحت القرى ذات معاهد ابتدائية وثانوية، وتفصيل ذلك مما يتعذر في هذا النطاق، ولكنه واضح ملموس لا جدال فيه.

وجامع الأزهر في ساحته الممتدة يحفل بالوافدين كل لحظة، إذ تقام فيه الصلوات، وتشرح للطلاب الدروس المنتظمة في كلية الدراسات العربية والإسلامية، وغير المنتظمة لمن يحبون سماع العلم من رجال الوعظ وأئمة المساجد، وهو بهذه المثابة جامعة رسمية من ناحية، وجامعة أهلية من ناحية ثانية، وما تقول في مكان لا يسكت فيه لسان عن ترتيل قرآن، ولا تنقطع فيه أذن عن سماع وعظ وتوجيه.

إن الذى جعل العتيق مثابة ∴ جعل الكناني المبارك كوثرا
العلم فيه مناهلا ومجانيًا ∴ يأتي له النزاع يبغون القرى

مساجد مضطهدة

مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي أوضح من أن يشار إليها بحديث، فهو ملتقى الأرض بالسماء لدى من يتوجه إلى الله بقلب مؤمن، وفيه يشعر المسلم بحقيقته المؤمنة، إذ يكون في أحسن أحواله النفسية، وإن جاز له أن يفكر في بعض المحظورات استجابة لدواعي الضعف الإنساني في لحظة من اللحظات، فإن هذا التفكير المنحرف لا يخطر بباله بالمسجد، لأن ما يوحيه هذا المكان الطاهر من السمو الخلقي يربأ بكل وافد إليه أن ينحدر إلى ما يغضب الله، لذلك كان المسجد موضع طهارة خلقية، قبل أن يكون موضع طهارة حسية بالوضوء، بل إن الوضوء في صميمه تهيئة نفسية للنظافة الخلقية بعد أن نظفت اليد والوجه والقدم، فالمتوضئ قبل أن يقدم على الصلاة يحس بأثر هذه النظافة النفسية في كيانه؛ إذ اتخذ بالوضوء سلاحًا باترًا يقهر الشر ويُرديه.

وإذا كان المسجد في المجتمع العربي الذى يمثل الأكثرية في الوطن، له هذه المنزلة العالية في النفوس، فإن المسجد في المجتمع الذى يضم الأقلية في بلاد الغرب وغيرها من الأمم التي لا تدين جمهرتها بالإسلام، يمثل دورًا أكبر وأشد تأثيرًا من دور المسجد ببلاد الإسلام؛ لأنه الملتقى الوحيد لأبناء الإسلام الذين يشعرون في آفاقه

بشدة ارتباطهم بدينهم الحنيف، وهو بهذه الصلة الفريدة ذو تأثير يمتد إلى كل المناحي الإنسانية في حياة المسلم، فهو موضع التقائه بصفوة أصدقائه ممن استقاموا على طريق الحق، وهو ناد حافل بالتوجيه الديني، والانتماء السياسي، والبث النفسي، كما أنه رباط الوحدة بين قوم يحتاجون إلى الالتئام المتعاون كي يشد بعضهم بعضًا، هذا إلى جانب الاحتفال بالمناسبات السارة الجامعة لذوى الميل المشترك؛ بل بالمناسبات الخاصة حين تشارك فيها الجماعة أحد أفرادها في النعماء والبأساء معًا، ومن أعظم مزايا المسجد في هذا الموطن أنه موئل الضيف الغريب حين يحل لأول مرة في البلد النازح، فما يكاد المسلم يضع قدمه في عاصمة من عواصم البلاد النائية حتى يسأل عن المسجد، ليتعرف بمن يمدونه بالنصيحة والعون، ويثبتون قدمه على الطريق، فيهيئون له سبل الإقامة المطردة على وجه مريح، فإذا أوذى أخ أو جماعة، فإن إخوانه جميعًا من ورائه، وما هي إلا لحظات ينتقل فيها إلى المسجد حتى يجد المؤازر الناصح والمساعد الحريص.

وقد أنشئت المساجد في ربوع المعمورة على نحو يبعث على الغبطة، ولكن بعض الذين في قلوبهم مرض من المتعصبين المفرطين يسوؤهم أن تؤدى المساجد رسالتها المسالمة، فأخذوا يتربصون بها الشرور، ويضعون أمامها العراقيل، ومن هؤلاء من يفهم الدين على غير

وجهـه؛ إذ يـرى أن محاربـة أبنـاء الديانـة الأخـرى برهـان علـى إخـلاص لعقيدته، مع أن مبادئ الأديان كلها تدعو إلى الرفق والتسامح والتعاون، ومن يشذ عن هذه المبادئ إنما يخالف الصريح من تعاليم عقيدتـه، وهـو بلاء ينذر بالفجائع الدامية، وقد تعرضت بعـض المسـاجد مـن أجلـه إلـى مآزق محرجة قد تصـل إلـى حـد الكـوارث، حيـن تسـيل الـدماء، وتُزْهَـق الأرواح، ويضيق المجال عن الإحاطة ببعض ما ارتكب في هذا المجـال، ولكننا نكتفـى بأمثلـة ثلاثـة، نـرى في مثـالين منهمـا قسـوة التجـبر وفظاعـة الاسـتبداد، وفى مثـال ثالـث مظهـر الاحتيـال الخـادع في محاربـة العمـل المثمر الذى لا يجلب شرًّا لأحد، حين ترتفع كلمة الله في بيت من بيوتـه، أمـا هـذه المسـاجد الثلاثـة فمسـجد بـابر بالهنـد، والمسـجد الإبراهيمـي بالخليل، ومسجد فالديرول بألمانيا، ولا أريد أن أسهب فأوجع، ولكنني أوجز ما استطعت.

١- مسجد بابر بالهند

نـذكر هـذه الضـجة العنيفـة التـي تسـببت في اسـتقالة الـوزارة بالهنـد بسـبب مـا اعتزمـه الهنـدوس مـن هـدم هـذا المسـجد، وإقامـة معبـد هندوسـي مكانـه، ومـا كـان لهـذه الضـجة التـي سـالت بسـببها الـدماء وزُهِقَـت مئـات الأرواح أن تحـدث، لـو خلـت النفـوس مـن التعصـب المقيت.

أنشأ هذا المسجد الفاتحُ التتريُّ الكبير ظهير الدين محمد بابر، الذى فتح الهند وملكها بعد حروب تكللت بالنصر، وارتفعت مئذنته حوالى سنة ٩٣٥هـ، وصار أكبر مسجد أثرى بناه مؤسس الدولة التيمورية بالهند، وظلت الشعائر تقام فيه عدة قرون، حتى ظهرت الفتنة بين الهندوس والمسلمين، وتعصبت الأكثرية على الأقلية، فأوصد المسجد بدعوى أنه أقيم منذ سبعة قرون على أنقاض معبد هندوسي وتحمس القوم لهذه الدعوى، فصمموا على هدمه وإقامة المعبد الهندوسي مكانه، وتلك دعوى لا مثيل لها في أي بلد من بلاد الله؛ لأن الذى يحاول أن يبحث عن أي أثر في مدى عدة قرون تبلغ السبعة لا بد أن يجده قد تنقل من مالك إلى مالك، ففي أي منطق يجوز لإنسان أو جماعة في القرن العشرين أن تطالب بمكان قد نسب إليها قبل سبعة قرون على وجه الظن لا على وجه التحقيق؟! لأن أكثر المعابد الهندية كانت ذات بناء متواضع لا يثبت على الأيام، وقد كتب الأثريون تاريخ هذه المعابد على سبيل الظن لا على سبيل التحقيق.

فمشكلة المسجد مفتعلة، جعلها المتطرفون من الهندوس وسيلة لإراقة الدماء دون حق، وقد انتصرت لها الأحزاب السياسية في الهند، لا لأنها حق في ذاتها، بل لاحتواء أصوات العامة في الانتخابات السياسية، وقد واجه هذه المشكلة رئيس الوزارة السابق «برتاب سيبخ» بحزم،

فاتخذ موقف الحياد حين أحال قضية المسجد إلى المحكمة العليا في الهند لتفصل في القضية على ضوء الحجج والوثائق التاريخية، وهذا إجراء منصف ما كان يجوز الاعتراض عليه لو سلمت النفوس من الأحقاد، ولكن ما كاد رئيس الوزراء يصدر قراره بإحالة القضية إلى المحكمة العليا حتى ثار عليه أكثر أعضاء الحكومة، واستقال سبعة من الوزراء احتجاجًا على مسلك نزيه قام به رئيس محايد لم يتعصب للمسلمين، ولكن حاول وضع الأمر في ميزان العدالة النزيهة، وقد حظى زعيم المنشقين على رئيس الوزراء بشعبية كبيرة، فنال ثقة الأحزاب الهندوكية، وعلى رأسها حزب المؤتمر الذى يتزعمه «راجيف غاندى» فسقطت وزارة «برتاب» لأنه اتجه بالقضية إلى القضاء.

والعجيب أن بعض الساسة أصدر منشورات تقول: إنه لا ينادى بهدم مسجد «بابر» فقط، بل بهدم المساجد التي نشأت في الدولة منذ حكم «بابر التيموري»، ولم نجد في بلاد الإسلام من يستنكر هذا الغضب المقيت، بل وجدنا من يرمون المسلمين بالتعصب، لأنهم يتمسكون بمساجدهم، وتهمة التطرف في موضوع هذا المسجد بالذات يجب أن توجه إلى الهندوس الذين افتعلوا الفتنة، وتحمسوا لهدم المسجد الإسلامي بغيًا دون حق، ولكن الباطل يصير حقًّا عند من يسرهم أن تهدم مساجد الله على رءوس الأشهاد.

٢- المسجد الإبراهيمي بالخليل

شُيِّدَ المسجد الإبراهيمي بمدينة الخليل الفلسطينية في العصر الأموي، على الطراز المعروف في ذلك العهد، وهو بناء حسن المنظر يحوط به سور مرتفع يتخلله بابان، أحدهما في الجنوب والآخر في الغرب، وله منارتان عاليتان طول الواحدة سبعة أمتار، وفى داخله صحن مكشوف كصحن الأزهر الشريف، مع أبنية متجاورة في الداخل تشبه الأروقة الملحقة ببعض مساجد القاهرة وقد ظل المسجد إسلاميًّا خالصًا لا ينازع في إسلاميته أحد، حتى جاءت محنة حزيران سنة ١٩٦٧م، فظهرت فجأة دعوة صهيونية تدعو إلى استرداد المسجد الإبراهيمي؛ لأنه يهودي النشأة، فهو موئل جدهم إبراهيم، وقد دفن فيه يعقوب وسارة ويوسف وإسحاق، وتلك افتراءات تكذبها مصادر اليهود نفسها؛ لأن التوراة قد ذكرت أن إبراهيم عليه السلام قد اشترى قطعة أرض لتدفن فيها زوجته، ولم تقل التوراة إنه أقام بها معبدًا، ومقابر الأنبياء من أولاد إبراهيم عليه السلام لم تجمع في مكان واحد، ولم يأت دليل مشتهر على انفرادها بموضع خاص أما أن إبراهيم عليه السلام جد موسى بن عمران نبي اليهودية، فهو أيضًا جد العرب ووالد إسماعيل عليه السلام العربي كما هو والد إسحاق العبري فلماذا يصر اليهود على اختصاصهم به وقد ظهر قبل اليهودية بأكثر من ستمائة عام، والله عز وجل يقول:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ (آل عمران: ٦٧).

وما قاله القرآن يقوله جمهرة المؤرخين شرقًا وغربًا.

وقد اقتحم الصهيونيون حرم المسجد، وحددوا فيه مكانًا فسيحًا لإقامة صلواتهم، وجعلوا زاوية صغيرة منه لصلاة المسلمين في أوقات محددة فقط، بينما يظل بصفة دائمة مجالًا لصلوات اليهود، وقد دُمِّر فيه كل ما يدل على إسلاميته الواضحة من آيات قرآنية، ومنبر ومحراب مع ما كان يحفل به من المصاحف والكتب الإسلامية، التي استبدلت بنسخ حديثة من نسخ التوراة، وقد أهدرت كرامة المسجد حين جلبت له زجاجات الخمور؛ ليشربها حراس «الكنيس» على زعمهم في أماكن العبادة وفناء المسجد، ولا أدرى كيف يتفق وجود نسخ التوراة والتلمود مع زجاجات الخمر ومظاهر اللهو والطرب.

هذا وقد جاهد الشعب الفلسطيني في مقاومة هذا الاعتداء الصارخ، وما زلنا نذكر الجريمة البشعة التي دنست المسجد الإبراهيمي الشريف في أكتوبر سنة ١٩٨٩م حين قام الجنود الإسرائيليون بتمزيق نسخ القرآن بالمسجد، وأطلقوا النار على المصلين فأصيب منهم في هذه النازلة سبعة وأربعون مواطنًا، وقامت إسرائيل باعتقال سبعة وستين شخصًا ممن تصدوا لمقاومة الاعتداء

على الحرم الإبراهيمي، ثم صدرت كتب إسرائيلية تثبت الحق التاريخي لليهود في المسجد، كما نقلت نسخة قديمة خطية للتوراة إلى المسجد، على زعم أنها كانت في الأصل بالمسجد الإبراهيمي ثم اختفت منه عدة قرون ولم يقل أحد كيف اختفت؟ وفى أي مكان كان هذا الاختفاء، وكيف وجدت فجأة، ومن أي موضع وإذا كانت أقدم نسخة في زعمهم الآن هي نسخة المسجد الإبراهيمي، فكيف قالوا من قبل إن أقدم نسخة هي نسخة المسجد الأقصى بالقدس؟ ذلك تخبط يدل على المراوغة والاحتيال.

٣- مسجد ((فالديرول)) بألمانيا:

تكثر في ألمانيا المساجد، وهى تُبْنَى في الأحياء الراقية ويقوم على تشييدها كبار المهندسين الذين يتمتعون بالذوق المعمارى، ويحاولون أن يحيطوا البناء بالخضرة الزاهية، والسياج الجميل، وتُشَدَّ هذه المساجد بتبرعات المسلمين من الأتراك والمغاربة والأفارقة واليوغسلافيين والمصريين من الذين يسكنون هذه الديار مع إخوانهم الذين اعتنقوا الإسلام من الألمان؛ لأن هذا الدين القيم فد وجد طريقه إلى قلوب الكثيرين بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ أقبل الألمان على قراءة ترجمات القرآن فانجذبوا إلى هديه الكريم.

أما مسجد «فالديرول» فله مشكلة خاصة ترددت في الصحف

هنـاك، واهـتم بهـا الجمهـور اهتمامًـا شـديدًا لمـا صـحب بنـاء مـن اعتراضـات لا مـبرر لهـا، حـين جمعـت الجاليـة التركيـة بالمدينـة مبلغًـا كبيرًا لبنـاء المسـجد، ولا حـرج في ذلـك قانونيًّـا، لأن الدسـتور الألمـاني يكفل للمواطنين جميعًا ممارسة عباداتهم كما يشاءون، وقد تـم البنـاء على أحسن ما يتصور المشاهد من الإبداع والأناقة، ولكـن المهنـدس المعمـاري بالمدينـة أمـر بإيقـاف البنـاء، حـين رأى مئذنـة عاليـة تأخـذ وضعها الطبيعي مدعيًّا أن المساجد في جميع البلاد بألمانيا ـ وتبلغ أكثر من ألف مسجد ـ ليس بها مآذن باستثناء عشرة مساجد فقـط هـي التـي يرتفـع فيهـا صـوت الأذان مـن أعلـى مكـان بالمدينـة، ولابـد أن يكـون مسـجد «فالـديرول» في رأيـه خاليًـا مـن المئذنـة، التـي تشـوه المنظـر الجمالي للمدينة، حين تنفرد ناهضـة على ارتفـاع ستة وعشـرين مـترًا، وهـى حجـة باطلـة مـن أساسـها؛ لأن مدخنـة المصـنع الكبيـر ترتفـع في المدينة كما ترتفع المئذنة، وترسل من الدخان ما يعكر الجو، ولـم يقـل هذا المهندس: إن المدخنـة تخـل بالوضـع الجمـالي في بلـده، وممـا زاد الأمـر بلبلـة أن بعـض المتعصـبين ممـن رأوا في إقامـة المسـجد إسـاءة لمشاعرهم الخاصة، قد أيدوا المهندس واستغلوا ما يقوله عن المئذنة، وكأنـه حـق عـادل، وحـين تـأزم الوضـع رأى المسـلمون أن يطـالبوا بتعويض قدره ثمانمائة ألف مارك ألماني للجالية التركيـة؛ لأنهـا لـم تقـم

المسجد إلا بعد تصريح ببنائه، وفى بعض الاجتماعات الخاصة رأى المنكرون لتشييد المئذنة أنهم لا يستطيعون أن يمنعوا إقامة المسجد بحكم الدستور الألماني إذا نجحوا في منع المئذنة وحدها، وأنه سيؤدى رسالته في المدينة، وهى رسالة ذات توجيه ديني؛ لأن مكتبته حافلة بالكتب الداعية إلى الإسلام. ويتوافد عليها القارئون من المسلمين وسواهم لاسيما من طوائف البروتستانت التي تنجذب إلى قراءة الموضوعات الدينية، وترى في بساطة العقيدة الإسلامية ما يتواءم واتجاهاتها الثقافية، وقد انتهى الأمر إلى أن ترتفع المئذنة، ولكن في حيز أقل مما قدر لها، وقد تكلف بناؤها خمسين ألف مارك، وأدى المسجد رسالته، وشاء الله أن تكون الضجة التي صاحبت بناءه عامل انتباه إليه، فأصبح مزارًا كبيرًا لزائري المدينة، ومحلًا للتعارف الإسلامي بين الوافدين من شتى ربوع الإسلام.

وبعد

فقد كان المظنون أن تكون لبيوت الله في شتى الأديان حرمة تنأى بها عن الاضطهاد والكيد، ولكن الذين يفهمون الدين على أنه تعصب على دين آخر قد جعلوا من بعض هذه البيوت الطاهرة مذابح رجال، ومجازر شباب، ويزعمون بعد ذلك أنهم يجاهدون في سبيل دينهم الذى يعتنقونه، وكل الأديان تبرأ من الجرائم الفاحشة، والبغي المريع.

درس في تفسير القرآن بالأزهر
بحضرة جلالة الملك عبد العزيز رحمه اللّه

مجالس العلم التي يشهدها العلية من الملوك والرؤساء في حاجة إلى تدوين؛ لأنها في كثيرها الغالب تضم أغلى الثمار الفكرية، إذ يتصدر للخوض في دقائقها الغزيرة أكبر العلماء الرسميين في عصره، وكان السلف من مدوني أخبار الخلفاء والملوك يحرصون على تسجيل فرائد مختارة من دور هذه المجالس، ولكن مؤرخي اليوم لا يكادون يفسحون لها بعض الصفحات فيما يكتبون، وهى بعد ما هي!!

وسأعرض اليوم للحديث عن مشهد علمي باهر حضره ملك عظيم من ملوك الشرق والإسلام، وتكلم فيه فضيلة شيخ الأزهر بالمسجد الجامع في مشهد زاخر جمع الصفوة المختارة من رجال السياسة والعلم والأدب، وكان المجلس من جلالة الوقار واكتمال الهيبة وعظمة الخشوع ودسامة المادة ومنزلة السامعين بالمحل الأرفع بين مجالس العلم، ولا نكاد نشهد نظيره إلا على أبعاد مترامية في الزمن بحيث يصبح حديث الناس جميعًا يتلهفون على حضوره قبل انعقاده ويستعيدون أنباءه حين يصبح ذكرى في ضمير الزمن، ويا لها من ذكرى تجمع العلم والأدب والشرف وتعبق على الناس بأنفس الطيوب، وأطيب العبير.

لقد زار عاهل المملكة العربية السعودية المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في أوائل صفر سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م الديار المصرية، فخرجت الأمة لاستقباله حكومة وشعبا وأقيمت لمقدمه الزينات المتلألئة ابتهاجًا بمقدم بطل إسلامي عمل على حراسة مقدسات الدين الإسلامي وإقامة شرعه ووطَّد الأمن ومَهَّدَ الراحة في بلاد يقدسها المسلمون، وتهوى إليها أفئدتهم الظامئة في اشتياق وحنين.

وقد خَفَّ ملك الدولة المصرية ووزراء حكومته، وعلية دولته، إلى مدينة السويس لاستقبال الزائر العظيم، مع رفقته الكرام من أهل بيته ورجال مملكته، فكانت لحظات سعيدة، خلدت وحدة الإسلام وعزة العرب أجمل تخليد، وأقيم سرادق فخم بالسويس أَمَّتَه طوائف الشعب المصري سعيدة برؤية الزائر الكبير محوطًا بأصحاب السمو من أنجاله وإخوته وأفراد حاشيته، ثم حان موعد الذهاب إلى القاهرة، فنهض العاهل إلى القطار الملكي الخاص بين دوى المدافع وهتاف المرحبين، وقد وصفت الصحف المصرية جميعها ما كان من روعة الاستقبال وصفًا يجب أن يكون مصدرًا من مصادر التاريخ الأخوي الوثيق بين مصر والسعودية، فوصفت كيف أخذ القطار السعيد يمر على القرى قرية قرية ليجد مئات المحتشدين، يرحبون هاتفين، حتى وصل إلى محطة الإسماعيلية، فرأى الضيوف من زحام الحشود، وروعة المتدافعين، ما فاق كل وصف، ثم تابع القطار سيره إلى

الزقازيق، وقد حانت صلاة الظهر فهب الجميع لأدائها جماعة في خشوع مهيب، وأخذ القطار يتابع مروره على المحطات الرئيسية، وفى كل مدينة حشود وأعلام وهتاف.

ولا تسل عن لحظات الوصول إلى القاهرة، فقد كانت من أمتع مشاهد الاحتفاء بما وضع من نظام، وتدفق من أناس، وظهر من حب وإجلال، حتى استقر الركب بعابدين، وأقيمت حفلة اللقاء الرسمي، مليئة بالعلماء والسفراء والوزراء، في يوم مجموع له الناس، وقد أنشد فيها شاعر الأقطار العربية خليل مطران قصيدة من عيون شعره، وتابعه شاعر الأزهر الأستاذ محمد الأسمر فأنشد قصيدة أخرى في استقبال الضيف الكبير، كما أذكر أن شاعر السعودية الأستاذ الكبير أحمد بن إبراهيم الغزاوي قد نشر بجريدة الأهرام قصيدة رائعة تستلهم جلال هذا المشهد الأخوي الرائع بين البلدين الشقيقين، وكل ذلك مدون محفوظ، فأين المحللون؟.

ليس هدفنا في هذا الباب أن نتابع وصف هذه الزيارة، ولكننا نمهد للحديث عن مجلس علمي رائع، شهده جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بساحة الجامع الأزهر الشريف حيث توجه بموكبه الحافل إلى صلاة الجمعة مع ملك مصر والسودان وكبار رجال السياسة والفكر والدين.

وقد قُدِّر لي أن أكون أحد شهود هذا المشهد العلمي الوقور، إذ كنت حينئذ طالبًا بكلية اللغة العربية، وقد هرعت إلى المسجد قبل الموعد بزمن طويل لأجد مكانًا يضمني بين آلاف الحشود المتقاطرة، فما استطعت الحصول على موضعي إلا بعناء طال مداه، واشتدت حيرتي، فلله ماذا يصنع القادمون بعدي، وقد بَكَّرْت فما استطعت الجلوس إلا بعناء أي عناء.

لقد كان من المقرر أن يصل الركب الملكى قبل ميعاد الخطبة بساعة كاملة ليستمع الحاضرون إلى درس من دروس التفسير القرآنى يلقيه فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان درسًا فريدًا في منحاه، فريدًا في مزاياه، فريدًا في مرماه، وقد حاز إعجاب الصفوة من ذوي الفكر العالي، ولكنه ارتفع عن مستوى بعض العامة ممن يحسبون دروس العلماء للملوك خطابة منبرية ذات شقشقة وصليل فماذا قال الشيخ؟ وفى أي اتجاه سار؟.

كان الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق ذا نزعة فكرية سامية تجنح به إلى معالي الأمور في كل مسلك من مسالك حياته العلمية والعملية معًا، وقد صاحبته هذه النزعة المحمودة حين اختار قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾

(الفتح: ١ – ٣)

والطرافة النادرة في هذا الاختيار أنه لم يقدم تفسيرًا من إنشائه الخاص، وما أيسره عليه لو أراد، ولكنه شاء أن يقدم مجلسًا مأثورًا في تفسير هذه الآية قام بإعداد مادته العالم الشهير جلال الدين السيوطي في منتصف القرن التاسع الهجري، وقد ألقاه الجلال في مشهد حافل بجامع شيخون حضره كبار العلماء وأئمة الفقهاء والقضاة في زمنه برئاسة شيخ الإسلام حينئذ علم الدين البلقينى وقد مَهَّدَ له الشيخ مصطفى عبد الرازق بمقدمة قال فيها:

«لقد رأيت من المناسب لهذه الفرصة السعيدة أن أحيي أثرًا كان مفقودًا ـ لأن النص كان مخطوطًا في نسخة واحدة عثر عليها الشيخ الأكبر من آثار عالم أزهري جليل له في خدمة العلوم الإسلامية نصيب موفور، ومن يُمْن الطالع أن هذا الدرس في تفسير آية كريمة وعد الله فيها نبيه فتحًا مبينًا، ونصرًا عزيزًا، وهذا التصدير على صغر حجمه يفيد الباحثين في تطور الدراسات الإسلامية وأساليبها، وفى الطرق التي كانت تعتمد عليها مدارس المسلمين في إجازة طلابها وتخريجهم» ا.هـ

وقبل أن يقدم الشيخ الأكبر نص الجلال السيوطي مَهَّد له بتلخيص

دقيق يضم جميع عناصره العلمية خالصة من تشابك الجدل العلمي وتعقيد الاعتراض النظرى، فألقى بذلك ضوءًا ساطعًا على ما سيذيعه من نصوص الجلال، ومن الطريف مرة ثانية أن الجلال بدأ درسه بمقدمة جليلة استعارها من كلام الإمام الشافعي في الرسالة، فكانت براعة استهلال تفوق الوصف لدى الدارسين المتأملين، وكأن السامعين قد ألموا في درس واحد بثلاثة أشياء جيدة هي مقدمة الإمام الشافعي، وتفسير الجلال السيوطي، وتصدير فضيلة شيخ الأزهر، ويا لها من فوائد باهرة تمثل عصورًا مختلفة وعقولًا متميزة، وقد قدمت فيما لا يزيد على ساعة واحدة، وهى ساعة مباركة حقًا إذ حفلت بكل رائع ممتاز.

بدأ السيوطي تفسيره بذكر المراجع التي اعتمد عليها، فقال: «إني طالعت الكشاف وتفسير الإمام الرازي، وتفسير ابن العربي، والبحر لأبى حيان، وأسباب النزول للواحدي، وتفسير السجاوندى، وينبوع الحياة لابن ظفر، والصحاح للجوهري، ثم بدأ الدرس بمقدمة الشافعي للرسالة، ثم صلى على الرسول ﷺ وآله، وترضى عن الصحابة والأئمة، منتقلا إلى النص القرآني من مقدمة سورة الفتح، فحدد مناطق البحث قائلًا:

«الكلام على هذه الآية من جهات، الأولى: سبب النزول ومكانه

وزمنه، الثانية: علم اللغة، الثالثة: علم الإعراب، الرابعة: علم المعاني، الخامسة علم التفسير».

وإذا كان لي من تعليق على منهج السيوطي فإنى أذكر أنه كان متمشيًّا مع أحدث المناهج العلمية المعاصرة، حين بدأ بذكر المراجع، ثم ثنى بتحديد عناصر البحث، فهو لم يسر في تيهاء مبهمة، تتقاذفه الشعاب، ولكنه أقام المعالم وحدد الاتجاه فأمن العثار.

وفى الحديث عن سبب النزول نقل قول الواحدي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه لما نزل قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ (الأحقاف: ٩)

قال المشركون كيف ندخل في دينك وأنت لا تدرى ما يفعل بك، فنزل قول الله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ (الفتح: ١ – ٢)

ثم حدد موضع نزول الآية بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، مستندًا إلى قول أنس بن مالك رضي الله عنه:

ولم يسهب المفسر في هذا العنصر، بل تجاوزه سريعًا إلى ما يتعلق باللغة، إذ سرد معاني مختلفة للفتح، مستشهدًا على كل معنى بنص

صريح، فالفتح يطلق على النصر، وعلى الحكم، وعلى الماء يجرى من عين أو غيرها، والمبين من أبان الشىء أي أوضحه أو استبان أي ظهر، والبيان الفصاحة، ومبين اسم ماء، والمغفرة من الغفر، وهو الستر، ومن غفرت المتاع، أي جعلته في الوعاء، وقد توسع بعض الشيء في هذه المادة، ثم تعرض إلى معاني النعمة والهداية والصراط والاستقامة والنصر، بما يرجع إليه دون حاجة إلى تدوينه، وكان مشبعًا كل الإشباع حين تحدث عن الهدى في قوله تعالى:

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ (الفتح: ٢)

حيث قال: الهدى يطلق على أمور:

أحدها: خلق الاهتداء، ومنه:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦)

الثاني: الدلالة بلطف، ومنه:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى: ٥٢)

الثالث: التقدم، ومنه هوادي الخيل تقدمها.

الرابع: التبيين، ومنه:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ (فصلت: ١٧)

كذا قيل، قال السيوطي: ويظهر لي أن هذا متحد مع الثاني.

الخامس: الإلهام، ومنه:

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ (طه: ٥٠)

السادس: الدعاء، ومنه:

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ (الرعد: ٧)

أي داع.

أما ما يتعلق بالإعراب فقد تحدث المفسر عن معنى اللام في قوله تعالى:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ (الفتح: ٢)

فنقل عن الكشاف أنها للتعليل متسائلًا عن جعل فتح مكة علة للمغفرة، ومعقبًا بإضافة علل أخرى للغفران، مثل إتمام النعمة والهداية للصراط والنصر، ثم عَرَّج على رأي من قال إن اللام للعاقبة، شارحًا وجهة نظره، كما ذكر رأيًا يقول إنها للقسم معترضًا عليه باعتراض ظاهر جلي، ومن العجيب أن أبا حيان قد تمحل لصحته أقوالا ضعيفة التوجيه، وقد ذكرها الشيخ في درسه معقبًا عليها بتوهينها القاطع، فأنت هنا تسمع آراء الزمخشري، والفخر الرازي، وأبي حيان في وضوح ساطع يمنع الالتباس.

وحين انتقل إلى الكلام عن المعاني أجاد في عرض دقائق بلاغية

تتطلب التأمل، فتحدث عن الالتفات البلاغي في صدر الآية، مفصلًا مكانته العلمية مع دقة التحديد، ولطف الإيجاز، كما وضَحَّ إسناد العزة إلى النصر في قول الله ﷻ:

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ (الفتح: ٣)

فذكر مجازه، إذ العزيز حقيقة هو المنصور، ثم بَيَّنَ السر البلاغي في إعادة لفظ الجلالة في:

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ (الفتح: ٣)

إذ تضمنت الآية بعدًا واضحًا عما عطف عليه، وليكون المبدأ مسندًا إلى الاسم الظاهر، وكذلك المنتهى.

وظاهر أن كل هذه المعاني تتطلب من يقظة الذهن، وسرعة التدبر ما يسهل الإلمام بها دون استعادة، ولعل هذه أصعب مناطق الدرس؛ لأن الجلال قد انتقل بعد ذلك إلى ما يتعلق بالتفسير، فشرح المراد بالفتح في الآية، أهو فتح مكة كما اختاره الرازي وأبو حيان، أم صلح الحديبية كما قال غيرهما، أم فتح خيبر كما قال مجاهد، أم فتح الله بالإسلام والنبوة والدعوة كما قال الضحاك، أم الوعد بدخول مكة من قابل للطواف، وقد كان، وكل من هذه الخمسة محتمل وإن رجح بعضها بعضا، فإذا ترك تفسير الفتح إلى قوله تعالى:

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (الفتح: ٢)

فقد أبان رأي ابن عباس في أن المراد ما تقدم قبل النبوة وما تأخر بعدها، وألمح إلى من قال ما وقع وما لم يقع، وهو قريب من الأول إن لم يكن عينه، ولا أدرى لم أتى به كرأي جديد، كما ذكر رأي سفيان، في أن ما تأخر هو ما لا يعلمه ورأي من قال إنه تأكيد للمبالغة كما تقول أحبك من عرفك ومن لم يعرفك، ثم انتقل إلى قوله:

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ (الفتح: ٢)

موضحًا المراد بالنعمة، أهي النبوة، أم الحكمة أم فتح مكة وما بعدها أو دخول الجنة؟ وكل ذلك محتمل.

أما التفسير الإشاري فلم يذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق، وحسنًا فعل، لأن جلالة الملك عبد العزيز، - رحمه الله- كان لا يميل إليه وهو - بَعْدُ - اجتهاد شخصي مرجعه الذوق الخاص ولا تجد مستنده من دليل صريح أو نص صحيح، ولعل النسخة المخطوطة التي وقعت للأستاذ الأكبر كانت خالية منه.

وإذا كانت مسائل هذا الدرس الدسم في حاجة إلى بسط شاف، فإن مما سهل استيعابها على آلاف السامعين وفيهم خاصة الخاصة، وعامة العامة، هو ما تقدم به الشيخ الأكبر من تصدير كاشف ينقل لغة

العصر المملوكي إلى طريقة العصر الحديث، محتفظًا بدسم المادة وإيجاز التأويل.

هذا ملخص موجز لحقائق ذلك الدرس التاريخي الحافل، وقد نقلته محطات الإذاعة إلى آلاف المستمعين في مختلف ديار الإسلام، وخرجت الصحف اليومية بالقاهرة تحمل شذرات منه، وتنقل صورًا شمسية كثيرة للمستمعين وفى طليعتهم رجال الحكم وشيوخ العلم مما كان له صداه المجلجل حينئذ في شتى الربوع.

ولعل من الأوفق أن أختم كلامي بهذه المقدمة الدقيقة التي افتتح بها الإمام الشافعي كتابه ثم اختارها الجلال مستهلا لدرسه، ليخرج القارئ باستفادة شافية تحوى لباب ما قيل، وناهيك بالشافعي قوة إيمان ودقة بيان، قال - رحمه الله-: «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون.

الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدى ماضي نعمه بأدائها، نعمة حادثة يجب عليه شكره بها، ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته، فهو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه، أحمده حمدًا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به، وأستهديه بهداه الذى لا يضل من أنعم به عليه، وأستغفره لما أزلفت وأخرت، استغفار من يقر بعبوديته

ويعلم أنه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله كما صلى على إبراهيم وآل إبراهيم إنه حميد مجيد».

وبعد فما أجدرنا أن نختم حديثنا عن هذا المشهد الحافل بقول القائل:

وذكرني حسن الزمان وطيبه ∴ مجالس قوم يملأون المجالسا

(الدروس الدينية في رمضان)

(الإمام المراغي فارس الحلبة)

كانت المساجد منذ نشأة الإسلام مدارس عامة تُلْقىَ فيها المواعظ ويُتْلَى فيها القرآن بقراءاته المتعددة تعليمًا وتثقيفًا، وقد نشأت المذاهب الفقهية في حلقات هذه المساجد، فسجلت مجدًا علميًّا رائعًا، قبل أن تنشأ المدارس لتقوم بدورها في دراسة العلوم على نحو منضبط منظم، وفى مصر كانت مساجد عمرو بن العاص وابن طولون والأزهر وغيرها مدارس ذات جداول وأساتذة ومواد، كما عرف عصر المماليك بتولية كبار العلماء خطبة الجمعة بمرسوم سلطاني، وكان كبار الفقهاء يعدون الخطبة الأسبوعية والدرس الديني موضع اعتزاز ومباهاة، حتى جاء العصر العثماني فانطفأ بريق العلم، ورفعت الدولة يدها عن التعليم، فكانت المساجد لا تجد إلا المتطوعين ممن يحملون أمانة العلم تؤدى للعامة والخاصة ابتغاء وجه الله، حتى تبدل الحال في هذا العصر، فازدهرت الدروس الدينية بالمساجد ازدهارًا حميدًا، ورأينا كبار العلماء يتطوعون بإلقاء الدروس في شهر رمضان ولهم جمهورهم الغفير في كل مسجد، وأذكر أن الشيخ محمد بخيت المطيعي المفتي الأسبق كان يلقي درس العصر في رمضان بالمسجد الحسيني، وكان الشيخ يوسف الدجوي يلقى درس العشاء بالجامع

الأزهر، وكان الشيخ السمالوطي يلقى درسه قبيل الفجر في المسجد الزينبي وثلاثتهم أعضاء في جماعة كبار العلماء بالأزهر، وفى الناس من يتابع هذه الدروس الثلاثة فينتقل من مسجد إلى مسجد حتى يحصل على أكثر ما يستطيع من العلم المتاح، لذلك كان رمضان لدى الناس شهر العلم كما هو شهر القرآن وكانت فرحة الصائمين بدروسه تعادل فرحتهم بصومه، واعتقاد المثوبة في الاستماع مما يحفزهم على المواصلة دون انقطاع.

ولكن هذه الدروس الدينية قد بلغت أوجها الرفيع في عهد الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي، حيث كانت دروسه مطمع الأنظار، إذ يحضرها جلالة الملك فاروق ورئيس الوزراء، وكبار الصفوة من العلماء والمثقفين، ومن العامة أيضًا، وكنت ترى السجاد مفروشًا خارج المسجد إلى مدى فسيح، وقد ازدحم الناس في محيطه حين ضاق بهم المسجد وصوت الميكروفون يدوي بأداء الإمام، والإذاعات العربية في عواصمها المختلفة تنقل الحديث الديني كما تنقله إذاعة مصر، والجرائد اليومية تنشر ملخصًا وافيًّا لما قيل، أما المجلات الدينية فتنشر النص بأكمله! وقد جُمِعَ كثير من هذه الدروس في كتاب قيم أصدرته دار الهلال وتعددت طبعاته مرات!

وكيلا يظن بي القارئ إسرافًا فيما أدونه، فإنني أنقل إليه ما كتبه

الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى حول هذه الدروس بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦هـ (ص٦٤٢) حيث قال من مقال مستفيض ننقل منه ببعض التصرف:

«إن السنة الكريمة التي سنها حضرة صاحب الجلالة الملك الفاروق في الاستماع إلى الدروس الدينية تعتبر بحق حدثًا جللًا في العالم الإسلامي الحديث، وسيكون من آثارها المباشرة يقظة العاطفة الإسلامية في نفوس الأمم الآخذة بهذا الدين، والرغبة في استجلاء روحه الصحيحة وأصوله العالمية القويمة، ولما كان هذا لا يمكن أن يكون إلا من طريق التناسب العقلي، والترابط العلمي بين الناس فسيثمر هذا الجهد انقلابًا في وسائل الفهم، وطريقة تجلية الأغراض الإسلامية.

وقد قام الإمام المراغي بما اعتبر تجديدًا باهرًا في حسن الأداء وجمال البيان، وجلال الموضوع، إذ جال في نواح شتى مما يهم النفوس من أسرار الدين، وأصوله العلمية، وفيما له صلة بالعالم الإنساني، ومراميه الأدبية، فبَيَّن فضيلته الأسباب الداعية إلى ما كان من انفصام وحدة المسلمين، ووقوع الشقاق بينهم، فعلى المسلمين أن يدركوا ما تعنيه هذه النزعة الشريفة، وأن هذه الدعوة إن لم تثمر ثمرتها اليوم فستتحقق غدا».

ولعل القراء على ذكر من مقال لي سبق أن نشرته مجلة الهلال، أرد فيه على كاتب فاضل ظن أن أحاديث المراغي كانت للدعاية الحزبية، فأثبت له نقيض ما قال، وقلت: إن من حسن الحظ في بيان الحقيقة، أن الأحاديث دونت بكاملها في مجلة الأزهر في حين إلقائها، وليس بها ما يشم منه رائحة التحزب، والتفسير منتشر ذائع! وهو الوثيقة التي تمحق الاتهام.

ولعل مما ينطق بالحجة البيضاء في هذا الصدد أن الإمام في درسه الذى ألقاه في رمضان سنة ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٣م مفسرًا قول الله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(النساء:٥٩)

قد قال: «إن معنى أولي الأمر أنهم أهل البينة من العلماء والفقهاء والأمراء الذين يمثلون الأمة الإسلامية تمثيلًا صحيحًا بعيدًا عن الهوى والغرض، وعن سائر المؤثرات، ويمثلون طوائفها المختلفة فهم أصحاب الكفاية في الرأي والتشريع، وأهل الدراية بمصالح الأمة وما يوافقها!» هذا ما قاله الإمام على مسمع من جلالة الملك وحاشيته ووزرائه! فلم يقل إن ولي الأمر هو الملك أو رئيس الوزراء! بل جعل الطاعة لأعلام الأمة الذين يمثلون كيانها، وهم بعد أصحاب الكفاية في الرأي والتشريع.

لم يشأ الإمام المراغي أن تكون الدروس الدينية في مسجد الأزهر وحده، بل رأى أن تُلْقَى هذه الدروس في المساجد المختلفة بالقاهرة والإسكندرية، ليكون لساكني الأحياء الشهيرة حظهم من الاحتفاء حين يجدون جلالة الملك ووجهاء الدولة يقصدون مسجدهم الذى يعتزون بإقامة الشعائر به، وكان صدى هذا التوجيه الشعبي النبيل، أن أهالي كل مسجد، قد أقاموا مظاهر الاحتفال الباهرة ليلة الدرس الديني، فأضاءوا الثريات الكهربائية حتى أصبح الليل نهارًا يأتلق بالشمس، ونصبوا الأبسطة، والسجاجيد في نواحي المسجد الأربع، وخيوط الكهرباء تمتد من الأعلى فتلقي أثرًا من الارتياح النفسي لدى كل ناظر، وقد حرص أكثر الحاضرين على أن يصحبوا أولادهم في أكمل زينة، ولا يوجد حرس ملكي يمنع من أراد الدخول إذ كان الفراغ متسعًا، أما وقد ضاق المسجد الرحيب عن قاصديه، ففي الخارج متسع لمن يجلس مطمئنًا فوق البسط والسجاجيد، وأستشهد الآن بالدروس الدينية التي ألقيت في رمضان سنة ١٣٥٦هـ حيث بُدئ الدرس الأول مساء الخميس في الثامن من الشهر الكريم بمسجد البوصيري بمدينة الإسكندرية، وتلاه الدرس الثاني بمدينة القاهرة في مساء يوم الجمعة السادس عشر من رمضان بالمسجد الحسيني الشريف، وجاء الدرس الثالث مساء يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان بمسجد أبي العلاء بالقاهرة، ثم الدرس الرابع في مساء الخميس التاسع والعشرين

من رمضان بمسجد السلطان الحنفي بالقاهرة، وهذا نمط من عام واحد تتابعت بعده الأعوام لتتكرر نماذج هذه الدروس في مساجد شتى، ولو تتبعناها بالتفصيل لتشعب الحديث!

وإذا كان الإمام المراغي حريصًا على الوحدة الإسلامية بين شتى الدول الإسلامية، فقد دعا إلى نبذ مسائل الخلاف المذهبي دعوة صريحة، وأعلن أن الأصول العامة هي مجال الاتفاق، وأما الفروع فأمرها سهل، إذ لكل وجهة هو موليها، ولكن قومًا ممن تضيق عقولهم عن استيعاب هذه البديهيات، قد جنحوا للخلاف وأفسحت لهم الصحف الهابطة مجال اللجاج، دون أن يعرف القائمون على تحريرها مناط الخلاف، وموضع الشقاق، لذلك تأثر طلاب الأزهر إذ ضاقت صدورهم بما يروج من الإفك، واتجهت وفود من كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية إلى مقر المشيخة تعلن تأييدها المطلق لما يدعو إليه الشيخ الأكبر وتستنكر أن يقوم مسلم بهذا العبث المريض، وقد نشرت مجلة الأزهر إذ ذاك بعض كلمات كبار الأساتذة التي ألقيت في لقاء الأستاذ الإمام معلنة خالص الابتهاج بالبيان المشرق الذى استفاد منه كل سامع، وكان الرجل الكبير متواضعًا كل التواضع حين قال ردًّا على ما سمع: «أما الدروس الدينية فإني أعتقد أن إخلاصكم لي، ومحبتكم إياي أكبرت من شأنها عندكم بأكثر مما تستحق، فهذه

الدروس كانت شرحًا لبعض الآيات الكريمة قصدت به أن يكون في المستوى الذى يفهمه الجمهور، لا في المستوى الذى يستفيد منه العلماء، فإذا قابله الجمهور بالحمد والاطمئنان والرغبة في الزيادة فإني أصدق ذلك وأحمد الله عليه، وعلى أنهم أفادوا منه، أما إذا سمعت منكم أن هذه الدروس كانت محل إفادة العلماء فهو ما أحمله على الظن، وعلى محمل إخلاصكم ومحبتكم لي، وأحمد الله على ذلك أيضًا».

وقال الإمام في وفد آخر:

«أعتقد أننا في بداية الطريق، وأقول لكم: إن القيام بنشر دين الله لا يكفي فيه المجهود الفردي، وإنما يحتاج إلى تضافر جهود المسلمين، وأولى الرأي جميعًا، وإنه ليسرني منكم هذا الشعور الذى جعلني أعتقد أن مهمة نشر الدين تحل المحل اللائق بها، وأنها آخذة في الازدياد.

أما أثر هذه الدروس فيما جَدَّ بعدها من كتب التفسير الحديث، فواضح ملحوظ؛ لأن قراءة ما كتبه الأساتذة محمد عبد الله دراز، ومحمد متولى الشعراوي، والجبالي، توحي بتأثير الإمام في خطواته الاجتماعية، ونظراته الأسلوبية، وإذا كان هؤلاء قد توسعوا في منحاهم الفكري فذلك لا يُغْفِل أثر البذرة في نماء الشجرة، ومما يعلى قدر هذه الدروس أنها كانت بلسان عربي مبين لم تلوثه العامية التي يصطنعها بعض الواعظين في التفسير بدعوى أنها تساعد على جلاء المعنى

وتقريبه للقراء، والشيخ الشعراوي قد ألف هذا النمط في درسه الإذاعي ولكنه فيما طبع من أجزاء التفسير قد ارتقى بالأسلوب إلى مستوى عال- رحمه الله-.

أما إلقاء الإمام فكان كالجدول المنساب رقراقًا هادئًا شفافًا بما يحمل من اجتهاد وتحليل، وسأنقل للقارئ نموذجين من تفسيره، يوضح أولهما منحاه البياني في تقريب الصورة الأدبية إلى الأذهان دون اصطناع لمصطلحات البلاغة التي تضر هنا أكثر مما تنفع! لقد وقف الأستاذ عند قوله تعالى:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحديد: ٢٠)

فقال ببعض التصرف:

«في الدنيا لعب ولهو يتفكه الناس بهما، وأكثر ما يكون الأول للصبيان، وأكثر ما يكون الثاني- وهو الزينة- للنساء ومَنْ في حكمهن من الرجال، وفيها تفاخر بالأنساب والمقدرة وغيرهما من الصفات، وفيها مباراة في الإكثار من المال والولد والجيوش وكل هذا عرضة للتبدل والزوال، ويغلب أن تقع الحسرات بعد اللهو والملذات، وقد

ضرب الله مثلًا للدنيا في سرعة تقضيها وقلة جدواها، وفى بهجتها عند إقبالها، وعبوسها عند إدبارها، فقال إنها كالنبات يستوى على سوقه ويخضر، ويُعْجَب به الزراع، ثم يجف ويصفر ويصير هشيمًا وحطامًا، متكسرًا، ففي الطور الأول جمال وسحر وفتنة للناظرين، وبهجة للنفس والعين، وأنس لا يُقْدَر قدره، لكن هذا الطور لا يدوم بل ينقضي بسرعة ويحل الطور الثاني، وفيه يزول الجمال والسحر والفتنة ثم لا يبقى من الأعواد البديعة غير حطام لا تستريح له النفس، وتذروه الرياح، وقد قال سعيد بن جبير: «الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، أما إذا دعتك إلى رضوان الله فنعم المتاع»... ثم انتقل الأستاذ الإمام إلى ما بعد هذا النص ليبرز ترابطه العضوي بما قبله فأتى بالجديد الطريف، ولا استطيع أن أنقل هنا ما قال!

أما النموذج الثاني فأنقل بعضه للدلالة الاجتماعية التي يحرص على إيضاحها، فقد شرح قول الله ﷻ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾

(الفرقان: ٦٧)

فتوسع توسعًا شافيًا في الرد على من يحرمون الطيبات.

واستشهد بنصوص صريحة من محكم الكتاب، والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ثم قال: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده،

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ما شئت واشرب ما شئت، والبس ما شئت إذا أخطأك اثنان، السرف والمخيلة»، والمخيلة هي الخيلاء والكبر، فقد نهى الله عن ترك الطيبات تنسكًا وعبادة، وطلب عدم تجاوز الحد إلى الإسراف، وفى الرجوع إلى الهدي المحمدي تبصرة ونور وضياء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل، وقد لبس الإزار والرداء والجبة ولبس فروة مكفوفة بالسندس، وكان له جبة طيلسانية خسروانية لَيِنّة، وكان له بردان أخضران وكساء أحمر، وكان يحب في الطعام الحلوى، وقد أكل الضأن، والدجاج، والجزور، وأكل الشواء، والرطب، والتمر، وشرب اللبن خالصًا ومشوبًا وشرب نقيع التمر، وكان لا يشرب إلا النظيف العذب، ويحب البارد الحلو.

هذا هدي القرآن والهدي المحمدي في تناول الطيبات، فمن تركها زهدًا وعبادة فلا حق له، ومن بخل على نفسه وعلى غيره وعلى عشيرته فلا حق له، ومن اتبع القوام فهو من عباد الرحمن».

وبعض الذين تحدثوا عن هذه الدروس التوجيهية الهادفة، ذكروا أنها قبس من روح الإمام محمد عبده حيث كانت دروسه الرائعة في تفسير كتاب الله بالرواق العباسي تجديدًا صريحًا في تناول كتاب الله والبحث عن هديه الإصلاحي، وتجديد الرسالة الإسلامية في إنقاذ

البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، مع البعد عن المماحكات اللفظية، والاعتراضات الجدلية التي تغشى ضياء الوحي القرآني لدى كثير من المفسرين فتحجبه عن العقول، وهذا حق لا شك فيه، والإمام المراغي تلميذ الإمام محمد عبده، وحامل راية الإصلاح الديني من بعده، إذ بلغ بالأزهر مبلغًا ارتفع به إلى مستوى الجامعات المعاصرة حين دعا إلى إنشاء الكليات، وتطوير مناهج التعليم الديني، وهو - رحمه الله - يعترف بأثر الإمام محمد عبده، وقوة تأثير دروسه الدينية، وأفكاره التوجيهية، يقول الإمام المراغي عن أستاذه الكبير ودروسه القرآنية الهادية: «كانت دروس الشيخ كالغيث، أما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه، وأما البلد الخبيث فقد خرج نباته نكدًا، وكانت دروسه مثلًا عاليًا في طريقة الإلقاء والتفهيم، وفى العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى أعماق القلوب، وكانت دائرة معارف يجد فيها اللغوي حاجته والفقيه رغبته، والمتكلم بغيته، ويجد علماء الاجتماع بها تطبيق أي القرآن على معارفهم وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل، ومحركة للجامد، وكانت عاصفة قوية، هَزَّت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أورقت، أما الشجيرات الضعيفة والحشائش الدنيئة فأفلتت منها ولم تنتفع بها».

وبعد فيطيب لي أن أشير إلى شيء له أهميته المعاصرة بمناسبة الحديث عن تفسير الإمام المراغي، حيث إن القنوات الفضائية،

والإذاعات اللاسلكية، قد زاد انتشارها وعظم خطرها وهى تفسح مجالًا واسعًا للأحاديث الدينية، والتفسير القرآني في طليعتها، وقد تختار من المتحدثين من يجيد القول، فيشبع السامع بما يفتح الله به عليه، ولكن كثيرًا ممن يتصدرون للقول في تفسير كتاب الله بهذه المنافذ القوية التأثير، البعيدة الصيت، يضلون السبيل بما يسوقونه من أفكار تشتط حينًا، وتضعف حينًا، وفيهم من يعرض آراء واهية قال بها القدماء، وهى منقوضة داحضة، وهذه الآراء ليس مكانها القنوات والإذاعات، لأنها تحتاج إلى تمحيص دقيق في الصحف الدينية المتخصصة حتى تكشف الرغوة عن الصريح، وأنا أدعو هؤلاء وهم في مجال الدعوة إلى سبيل الله أن يقرأوا ما كتبه الإمام المراغي ليحاولوا أن ينهجوا نهجه المستنير، فإن أحاديثه الساطعة تقدم المثال النادر لما يجب أن يطالع به جمهور السامعين، ومن الأسف أن بعض مقدمي هذه الأحاديث من موظفي الإذاعة يفرطون في الثناء على ما يُقال بدءًا وخاتمة حتى يتوهم الغافل أنه سمع من الرأي ما لا معقب من بعده، وهي جهالة تندرج على جهالة، فتكون ظلمة فوق ظلمة فإذا جعلنا أحاديث المراغي ومن تبعه بإحسان محمود شلتوت، وعبد الوهاب خَلَّاف، ومحمد عبد الله دراز، أمثلة تحتذى فإننا نسير بالسفينة إلى الشاطئ المأمول في سلامة واطمئنان!

من حلقات الذكر في شهر رمضان

تغيرت تقاليد رمضان في هذا القرن[1] عما عهدناه في القرن الماضي أو في نصفه الأول على التحديد، وقد تحدثت في العام الماضي عن سهرات شاعر الربابة في هذا الشهر الكريم، وأريد اليوم أن أتحدث عن بعض حلقات الذكر في هذا الموسم، إذ كانت هذه الحلقات ذات رواج ذائع في المساجد، ولها عشاقها الذين كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر؛ لأنها تضفى كثيرًا من البهجة الروحية على نفوس صافية تريد أن تؤكد صلتها بالسماء في حفل يهيج كله نشاط وخفة وإيقاع، ويزيد من متعته الروحية أن الذين يقومون بالذكر قضوا نهارهم صائمين، وقد أقبل الليل عليهم ليضيفوا إلى ثواب الصوم لدى الله ثوابًا آخر فيما يقومون به من ذكر جماعي يتخلله الإنشاد الديني، وله من المبتهلين من يقوم بالترجيع الخاشع، ومن يجلس وسط الحلقة ليضرب بيده متحادبًا مع رنات المنشد، وقد يكون الجالسون جماعة إذا اتسعت الحلقة فامتد صَفَّاهَا إلى الجدارين المتقابلين، والمنشد يصدح والذاكرون يهتفون بأسماء ذي الجلالة، «الله، الله، حي حي، هُو، هُو» وفق نظام متعارف لا يحيد عنه إنسان، وأذكر أن الدكتور طه حسين قد وصف في الجزء الأول من الأيام بعض حلقات الذكر

(١) القرن العشرين الميلادي.

فقال عن اجتماع الذاكرين: «إنهم يذكرون الله أولًا قاعدين ساكنين، ثم تتحرك رؤوسهم وترتفع أصواتهم قليلًا، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلًا، ثم تنبت في أجسامهم رعدة فإذا هم جميعًا وقوف قد دفعوا في الهواء كأنما حركهم لولب» ويظهر أن حلقات الصعيد التي وصفها الدكتور تختلف بعض الشيء عن حلقات الوجه البحري، حيث إن ما شهدته من الحلقات لا يبدأ بالذكر الصامت فجأة.. بل يبدأ بقراءة أجزاء القرآن، حيث يأتي صندوق من بيت شيخ الفقهاء يضم ثلاثين جزءًا هي جميع أجزاء القرآن ثم توزع الأجزاء على الجالسين فيقرأ كل إنسان ما بيده من كتاب الله حتى إذا فرغوا من ذلك كان كتاب الله قد قرئ جميعه، وتجمع الأجزاء لتوضع في الصندوق كعهدها السابق ثم يأتي قارئ حسن الصوت فيفتح المجلس بقراءة ما تيسر من آيات الله، وفق اختيار دقيق لآيات الترغيب والترهيب مما ينقل السامعين إلى العالم الروحي، فإذا انتهى من قراءته ابتدأ الذكر الصامت على نحو ما ذكره الدكتور، أما عند الخاتمة فلا بد أن توزع النفحة، وهى قطع صغيرة من الحلوى يتبرع بإحضارها أحد الذاكرين طيلة شهر رمضان لتوزع على الذاكرين، تذكيرا بطعام أهل الجنة ومنهم من يحتفظ بها كعلاج روحي للشفاء إذا نزل به داء، لأن جو الذكر والخشوع قد خلع عليها في اعتقاده ما يجعلها بعض أسباب الشفاء!

لقد كان المتبع أن تقام الحلقات في هذا الشهر الكريم كل ليلة، فهي من الأمسيات الدينية التي لا تقل مكانة عن دروس الوعظ في المساجد بعد العصر، وبعد المغرب، بل إن بعض هذه الدروس في المساجد الكبيرة، تخلق جوًّا من الانتعاش الروحي، فينهض السامعون فجأة لينتظموا في حلقة الذكر تهليلًا وتسبيحًا، وقد حدثني أحد أساتذتي بالأزهر منذ عهد طويل بأن الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتى الديار المصرية، كان يلقى في العشرينيات درسًا دينيًّا في شهر رمضان بمسجد الحسين بعد صلاة العصر، وقد اختار حكم ابن عطاء الله السكندري موضوعًا لدروسه الموسمية، وفى أحد هذه الدروس تعرض لشرح قول ابن عطاء الله عن رب العزة:

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى أظهر كل شيء؟.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء؟.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر في كل شيء؟.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد ليس معه شيء؟.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟.

كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء؟.

وكان السامعون في شبه انجذاب روحي يتفاعل مع هذه المعاني، فنهض أحدهم صائحًا لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، فهب الجالسون جميعًا من ورائه، وانتظموا تلقائيًّا في حلقة صوفية ذات رنين وابتهال، ونزل الشيخ بخيت– رحمه الله– ليجلس وسط الحلقة، إذ كان في سن متقدمة لا تسمح له بالنشاط كتلاميذه الشبان، وظلت الحلقة ممتدة حتى أذَّن المغرب، فآثر القوم أن يأكلوا (سندويتشات) الفول، ولم يذهبوا إلى منازلهم، ليعتكفوا في المسجد حتى يؤدوا صلاة التراويح بعد العشاء! وهم في جو روحي شغلهم عن الحياة والأحياء!.

أخلص من هذه المقدمة إلى وصف ما أريده من الحديث عن ليلة من ليالي الإيمان في أول يوم من رمضان قُدِّر لي أن أكون سببًا في إقامة احتفال ديني بها ترن فيه الأذكار وينتصب المُحَيَّا هاتفًا بألحان السماء، فقد كنت زميلًا للمستشرق الكبير الأستاذ عبد الكريم جرمانوس في إحدى زوراته للقاهرة الخاصة بدورة مجمع اللغة العربية السنوية، حين ذهبت معه لزيارة مسجد الإمام الشافعي، فقلت له: وهل نسيت عمر بن الفارض، سلطان العاشقين، إنه قريب منا، فرحب باقتراحي، ومضى يتحدث عن نوادر طريفة تروى عن العارف بالله شعرًا ونثرا،

وسرنا في الطريق فقلت له إن هذا الطريق كان يسمى في العهد الأيوبي: وادى المستضعفين» فقال: تسمية وافقت معناها؛ إذ لا يوجد مستضعف أذل من عاشق، فما بالك بسلطان العاشقين.

لكن سرورنا لم يتم، إذ ما كدنا نصل إلى مسجد الشاعر الكبير حتى رأيناه مهجورًا تظلله الوحشة، وليس به من زائر، والمصابيح منطفئة، ولا أدري هل انقطعت الكهرباء فجأة في هذا المساء أو كان انقطاعها دائمًا، وقد كان ظلام المسجد، وانصراف الناس عنه، مما خلع على نفسينا كآبة قاتمة، فقال الدكتور جرمانوس: لو لم يكن ابن الفارض صوفيًّا كبيرًا، لكان شاعرًا قديرًا، فكيف يهمل مزار نابغة مثله، إن عبقريات الشعراء المشاهير من أمثال أبى تمام والبحتري والمتنبي متشابهة لأنها تُمْتَاح من بئر المدائح الإنسانية، أما عبقرية ابن الفارض فمصدرها النبع الدافق من القلب الرقيق، وقد تكون خبرته بالحياة العامة قليلة، ولكن خبرته بالنفس العاشقة ذات عمق بعيد وانتهت الزيارة، ولكن صداها كان أليمًا في نفسي فاتجهت في صبيحة الغد إلى الجامع الأزهر وبه الشيخ العارف الشهير صالح الجعفري -رحمه الله- ولي به صلة حميمة، وكان الرجل يرى بنور الله فقال لي حين رآني:

ما تركت عملك وجئت في الصباح إلا لأمر شغلك فما هو؟ قلت:

وأى أمر يا سيدى، لقد كنت في مساء الأمس أزور مسجد عمر بن الفارض، فلم أجد به إنسانًا، ولا سراجًا حتى ماء الوضوء كان منقطعًا، لقد أحسست أنى فقدت أملًا كبيرًا حين جئت إليه سعيدًا، فرجعت حزينًا، لماذا لا تهتم وزارة الأوقاف بالمسجد، وهى تهتم بمساجد تحمل أسماء لا نعرف عنها شيئًا! ما شعور الشاعر الدفين بجسمه «الحي بروحه» وهو يرى الوحشة تكتنفه في كل مكان، فقال الشيخ صالح، ما نصه: «صه يا مولانا إن روح الشاعر العارف بربه تطرد كل وحشة، وهو في قبره يعيش في روضة من رياض الجنة، فالوحشة لا يعانيها ابن الفارض، ولكن نعانيها نحن! قلت: وماذا نصنع إزاء هذه الحالة، فسكت الرجل قليلًا ثم قال: نحن الآن في الأيام الأخيرة من شعبان، وعليك أن تحضر في اليوم الأول من رمضان إلى مسجد ابن الفارض قبل الغروب بساعة لترى احتفالنا به قلت: وكيف؟ قال لا تنس الموعد، وتوكل على الله!

كنت أعرف عزيمة الشيخ وصدق حديثه فلم أتردد في تصديق ما قاله، وأخذت أنتظر مرور الأيام حتى حان اليوم المرتقب، فاستأذنت أولادي بالفيوم أن أتركهم في أول أيام الموسم السعيد، لأسافر إلى القاهرة في عمل ضروري– هكذا قلت– وما كدت أصل إلى الطريق المتجه للمسجد، حتى رأيته محاطًا بأناس كثيرين من مريدي الشيخ،

وفيهم من يضع القدور على النار، وبجوارهم أكداس الخبز الطري، وما خالطت القوم حتى عرفت أن الشيخ صالح سيحيى الليلة بالمسجد، وأن أحباءه جاءوا بالمصابيح الغازية ليكونوا في مأمن إذا انقطع التيار الكهربائي فجأة، كما عرفت أن هذه القدور تمتلئ بالفول المدمس؛ إذ رأى الشيخ أن يكون الإفطار منه، أما ما جاور القدور من أقفاص الفاكهة فهي للسحور، وقد اتجهت إلى المسجد فكدت أضيع في الجمع المحتشد به ثم علت ضجة، فانتبهت لأرى الشيخ صالح الجعفري يقدم بقامته الفارعة، ساحبًا عباءته الفضفاضة، وبيده مسبحته الشهيرة، وخلفه جمع من مريديه، وما كاد يطأ سجاد المسجد، حتى اتجه إلى الضريح في شوق، ثم علا صوته هاتفًا بقول الشاعر:

وأقرب ما يكون الشوق يومًا ∴ إذا دنت الخيام من الخيام

ثم أخذ يحتضن الضريح، فخيل إليّ أن الشيخ يعانق صديقًا يتقبل أنفاسه، ويسمع صوته، ويتمتع بدفء حنانه وقد اهتاج الحاضرون هياج الطرب، وغمرهم روح من الوجد، فانتصب المحيا تلقائيًّا، صفوفًا خلف صفوف والشيخ في الوسط يتواجد ويترنح، وقد حضر جميع من كانوا خارج المسجد ليشاركوا في الابتهال، ويستمعوا لما ردده الشيخ من شعر ابن الفارض إذ يقول:

كل من في حماك يهواك لكن ∴ أنـا وحـدي بكـل مـن في حماكـا
لـك في الحى هالـك بـك حـي ∴ هـام واسـتعذب العـذاب هناكـا
وبشيرى لـو جاء منك بعطف ∴ ووجـودي في قبضـتي قلـت هاكـا!

ولا أدرى لماذا هب نسيم كله عطر، حتى رحت أتساءل: هل حمل بعض الذاكرين قارورة عطر وأراقها؟! أم أن هذا الجو الروحي جعل للهواء رائحة غير التي نعهد، ولم ينقطع المحيا حتى ارتفع صوت المؤذن فخشعت الأصوات للرحمن! ثم اتجه الشيخ إلى المحراب، فأدينا الصلاة خلفه، ولم يطل حيث جلسنا في صفوف، لنتلقى لفائف (السندويتش) تحمل ما يحليها من التوابل والسلطات، وكانت مهلة للراحة، حددها الشيخ بآذان العشاء.

حان موعد الصلاة فأمَّ الشيخ، وقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة خاتمة سورة الكهف:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾

(الكهف: ١٠٧)

قرأ الآيات بصوت شجى كأنه ترجيع الطير وقرأ في الركعة الثانية بعد الفاتحة قول الله- تعالى- في خاتمة سورة غافر، وقد بلغ ترتيله غاية الروعة حتى يخيل لسامعه أنه يبكى، قرأ قول الله:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (غافر: ٨٢ – ٨٥)

وتبعت فريضة العشاء سنتها، فصلاتا التراويح، والوتر، وجلس الشيخ ليعظ، فجعل يتحدث عن أنبياء الله ورسله، ويلم بشذرات من أخبار المتصوفة، حتى وصل إلى عمر بن الفارض فأفاض في سيرته إفاضة مدهشة، إذ حدثنا بما نعلم ونجهل معًا، واختار نبذا من خطراته الوجدانية أذكر منها ما رواه عن الشاعر العاشق من أنه كان يمشى ذات ليلة في سوق القاهرة، فمر على جماعة من حراس البضائع إذ لم يكن للدكاكين أبواب حينئذ، ولكن حراسًا منتظمين يكلفون بحراستها لقاء أجر شهري، وكى يطردوا النوم جعلوا يترنمون بأبيات شعرية سمع ابن الفارض منها:

مولاي سهرنا نبغى منك وصال ∴ مولاي فلم تسمح فقنعنا بخيال
مولاي فلم يطرق، فبلا شك بان ∴ ما نحن إذن عندك يا مولاي ببال

فصرخ عمر صرخة مدوية حين سمع «ما نحن إذن عندك يا مولاي ببال» وأقبل الناس على الولي الصارخ، وتحلق حوله المارة وهم

يرددون معه «ما نحن عندك يا مولاي ببال» وترك الحراس أمكنتهم حين سمعوا الضجيج، وجعلوا يكررون الأبيات، والحاضرون يذكرون مبتهلين، وترنح القوم وسقط الكثير على الأرض متواجدين، وسقط معهم عمر بن الفارض.

فحملوه على الأكتاف وساروا به في حلقة ذكر متنقلة، ومنهم من خلع ملابسه، ورمى بها في الطريق، وظل يذكر في شبه غيبوبة، ثم أعاد الشيخ الأبيات السابقة بإيقاع شجي لا يسمح به في كثير من الأوقات، وأخذته الصبوة فانتصب واقفًا، وانتصب من خلفه سامعوه، وهم يملأون ساحة المسجد، وانتظمت حلقة ذكر تلقائية ما شهدت مثلها إلا في القليل، وأذكر أن الشيخ قد جلس ليستريح، وجلس معه القوم، ثم دار بعينه فرآني، وسألني: ماذا سأنشد مما تختاره أنت في النوبة الثانية من شعر ابن الفارض، فقلت: إني لا أملّ سماع القصيدة العينية، فقال: بارك الله فيك، لقد خطرت علي بالى، وأنا أراجع بيني وبين نفسي قصائد الديوان، إن هذه القصيدة ذات نفس حار، وذات نبض دفاق! ودارت كئوس القرفة فشرب من شرب، حتى إذا تمت الراحة على نحو مستطاب، نهض الشيخ للذكر مرة ثالثة، وما كادت الأرواح تتجاوب حتى سبح الشيخ في جو ابن الفارض فأنشد قوله:

أبرق بدا من جانب الغور لامع

أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

أنار الغضى ضاءت وسلمى بذي الغضى

أم ابتسمت عما حكته المدامع

ألا ليت شعرى هل سليمى مقيمة

بوادي الحمى حيث المتيم والع

وهل عذبات الرند يقطف نورها

وهل سلمات بالحجاز أيانع

وهل ظبيات بالغوير يرينني

مرابع نعم نعم تلك المرابع

وهل ظل ذاك الضال شرقي ضارج

ظليل فقد روته منى المدامع

وهل عامر من بعدنا شعب عامر

وهل هو يومًا للمحبين جامع!

ولا أذكر أن حلاوة للإنشاد قد تذوقتها من منشد- على كثرة ما سمعت- كما استمرأت هذه الحلاوة، والعجيب أن الذاكرين من العامة وأكثرهم من أرباب الحرف المتواضعة لا تؤهلهم معارفهم وخبراتهم إلى فهم الدقيق من هذه المعاني قد بلغ بهم الطرب الوجداني

أبلغ ما يتصور، ولله في ذلك سر لا أدريه، أما أنا فقد خيل إلىّ أن الذي ينشد الأبيات هو عمر ابن الفارض نفسه، لا الشيخ صالح.

وبعدما يقرب من ساعة ونصف الساعة، جلسنا نستريح، وانفرد الشيخ في المحراب خاليًا للتسبيح، بينه وبين نفسه وكذلك فعل أكثر الحاضرين، وجاء من مريدي الشيخ من يفرقون الفاكهة، والخضراوات من برتقال وموز وجزر وطماطم، لتغنى غناء السحور، فأخذنا نأكل مستمرئين، وسقاة الماء من المتطوعين يدورون علينا بالأكواب، فكان الماء خاتمة السحور.

وارتفع الابتهال قبل أذان الفجر، فكثرت ركعات التهجد، وترددت التسابيح من الشفاه ردحًا من الوقت، ثم انشق عمود الفجر الصادق فدوى الأذان وخشعت النفوس، وتليت آيات من القرآن نهض الشيخ بعدها للإمامة ومن خلفه جميع الحاضرين!

وجئت أسلم عليه بعد انتهاء الصلاة، فضغط على يدي وقال: هل أدينا بعض حق سيدنا عمر، ثم قال: ولنا عودة إذا أذن الله، وتفرق الجميع رجالًا ورُكبانًا حتى وصلنا إلى محطة الترام بعد ليلة ساحرة من ليالي رمضان!

أذان في غير موعد

جلس المعتضد بالله الخليفة العباسي يتحدث مع رجال دولته بعد أن فرغ من صلاة العشاء، ونظر في ما ورد إليه من الرسائل، وناقش ما رآه موضعًا للنقاش فيما جد من أحداث اليوم المنصرم، ولكنه كان متجهم الأسارير لا يدل مرآه على هدوء نفسي، بل يشي بطوارق همٍّ تأخذ عليه أقطار نفسه، وكان وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب يعرف ما يعتمل في نفسه من الشجون، فاتجه إليه يقول بمشهد من الحاضرين في رفق: يا أمير المؤمنين إن كل دولة من الدول بالغة ما بلغت من الانتظام والجد، لا بد أن تتعرض إلى مشكلات تتطلب الحل، وفى حزم أمير المؤمنين وعزمه ما يجبر الصدع، ويرتق الفتق، وكم برزت أمثال هذه المشكلات في عهد المنصور والرشيد والمأمون فلم تلبث أن تزول.

قال المعتضد: إن ما أقابله من المعضلات يفوق ما تتحدث عنه، وليس لدينا من العتاد والجند والمال ما كان لدى المنصور والرشيد والمأمون، بل ليس لدينا من الرجال من رزقوا الحزم الصارم والكفاح الجاد.

تغيرت وجوه القوم حين لمسوا تعريضًا من الخليفة بعدم

كفاءتهم الإدارية، وحنكتهم السياسية، وأدرك الخليفة أنه أحرجهم بما قال. فأراد أن ينتقل إلى صميم المشكلات، فقال:

في كل يوم نلاقي خارجيًا وقحًا، يجمع الجموع، ويقود الناس إلى العصيان ولا ينحصر الأمر في مكان واحد، بل يتعداه إلى شتى ربوع الخلافة، ولئن اجتمع هؤلاء على رأي فماذا يصنع الخليفة ببغداد؟ لقد ثارت الكوفة بقيادة اللعين حمدان بن قرمط، وأيده في البحرين أبو سعيد الجنابي، وبهما انتشر أمر القرامطة واستفحل، وثار نصر الساماني في بلاد ما وراء النهر، واحتشدت خلفه الجموع وأعلن الاستقلال، كما برز ابن حوشب في بلاد اليمن يدعو إلى الفاطميين في المغرب، وقد علمت أنهم يعدون العدة لاقتحام مصر، والاستيلاء عليها، أما عمرو ابن الليث الصفار فقد استولى على أكثر بلاد فارس وأصبح صاحب الأمر فيها، فماذا بعد هذا كله؟ كان أبو جعفر يجد من رجاله من يقود الجيش لهزيمة المناوئين، بل كان يتقدم الجيش بنفسه في مواقع كثيرة، وأنا أنظر فإذا الأتراك يملكون أمر الجيش، ولا يهمهم غير السلب والنهب، ولكل فريق منهم أنصار لا يلتفتون إلى غير منافسيهم من بني جنسهم أما حماية الدولة خارج بغداد فمما لا يفد إليهم على بال! وقد دعوتهم إلى الجهاد فأظهروا الاستعداد، وسرعان ما قابلني قادتهم معتذرين بأن خصومهم متربصون بهم، إذ إن بأسهم بينهم شديد،

شديد، ولن يتركوا بغداد إلا إذا نفروا جميعًا، فوافقت على ذلك، فأظهروا الخلاف في أمر القائد العام من يكون؟ وكُلٌّ يرى نفسه الأجدر الأحق، أفيرجى النصر على يد هؤلاء؟ إن ثورة الزنج بالبصرة قد أكلت الأخضر واليابس بها، ولكنها وجدت جيشًا متحد الرأي، استطاع أن ينقذ الناس من شرها، فأين أجد هذا الجيش؟

ثم اعتدل في مجلسه، واتجه بالحديث إلى وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب ليقول له في جد حاسم:

أنت تعلم يا عبيد الله أني قمت بالإصلاح الداخلي، فحاربت الملاحدة والزنادقة، وحرمت تداول كتبهم، ومنعت المنجمين أن يجلسوا في الطرقات ليخدعوا الناس بما يزورون وعلوت المنبر للخطابة، وتقدمت إلى المحراب للصلاة لأعيد سنة الخلفاء الراشدين، وعدلت نظام المواريث ليسير وفق ما شرع الله وسن الرسول ﷺ! كل ذلك قد قمت به لأن أمر الإصلاح الداخلي في يدى، أما أمر الأتراك وهم قادة الجيش فلم أقدر عليه بعد! ولكني أناضل.

وهنا سمع الأذان يجلجل فوق المئذنة، فاضطرب الخليفة، ودهش المجتمعون لأن ساعة الفجر لم تحن بعد، فلم يمض بعد صلاة العشاء إلا وقت يسير، لا يسمح بارتفاع الأذان قبل موعده! هل

جُنَّ المؤذن؟ ولم ينتظر المعتضد، بل استدعى من يأمره بإحضار المؤذن على وجه الاستعجال دون انتظار.

لم يكن المؤذن هو المؤذن الرسمي، ولكنه إمام المسجد نفسه، وهو رجل ذو مكانة عالية في بغداد، وداعية مسموع المشورة، والناس جميعًا يتحدثون بشجاعته الجريئة في مواجهة الطغيان، وما كان لمثله أن يزعج الناس بأذان في غير موعده، وقد أدرك المعتضد أن وراء الآذان أمرًا خطيرًا سيقف عليه، فقال للشيخ الإمام «حين حضر إليه سريعًا»: لا بد من حدث خطير يا شيخ!

قال الإمام: وأي حدث أشنع من هتك الأعراض، واغتصاب المسلمات على أيدي الفجرة من الأتراك.

قال المعتضد في اهتمام: الفجرة من الأتراك! ما شأن هؤلاء؟.

فقال الإمام: قبل أن تسمع القصة أرسل حراسك لمنزل «باكباك» القائد التركي فورًا ليغيث مسكينة خطفها ساعة الأذان رغم أنفها، ومع صراخها الهائج!! أرسل حراسك الآن مولاي، فالأمر فضيحة لا ينبغي أن نسكت عليها حتى يتم المحظور.

ولما كان المعتضد يقدر في الإمام شجاعته، ويعرف صدقه وإخلاصه، فقد بادر بإرسال كوكبة من الحرس لتقتحم منزل «باكباك»، وتحضره مع الضحية دون إبطاء.

ورأى الخليفة أن الشيخ الإمام لا يزال واقفًا ينتظر أمر الجلوس، فأشار عليه أن يجلس إلى جواره، ثم التفت إلى جلسائه، موجهًا الخطاب إلى وزيره عبيد الله بن سليمان:

كنا يا ابن سليمان، في حديث الجيش التركى، ومدى قدرته على النضال؟ أسمعت الآن في أي ميدان يحارب هؤلاء!

قال ابن سليمان: إنها الفرصة السانحة لتأديب الفجرة، وما عليك إلا أن تعلن هذه الحادثة، ومعها عقابها الصارم لتنكشف الأمور في بغداد.

فاستأذن الشيخ الإمام كي يتكلم، فقال له الخليفة: أفصح عما تريد.

قال الإمام: نحن الآن في ليلة الجمعة، أفيأذن لي أمير المؤمنين أن أجعل موضوع الخطبة في الغد هذا الاعتداء الفاجر؟ وسأنتظر ما يصنع أمير المؤمنين عند وصول هذا الوغد لأكمل القصة بدءًا وانتهاء.

فرد عبيد الله بن سليمان يقول: أما تخاف على نفسك أن يتعقبك الأتراك.

فصاح الإمام: الخوف! الخوف! هو الذى جعلنا نرى الباطل، ونسكت عنه، والساكت عن الحق شيطان! على أني لست وحدي.

قال المعتضد: ومن معك؟

فصاح الإمام في انفعال: من معي؟ معي الفقهاء والعلماء والمحدثون وأئمة المساجد في بغداد، ولدى كل منهم ما يهول ويفزع من أنباء هذه الشرذمة التي تسيطر على الناس!

صاح المعتضد: كأن هناك أنباء من هذا الطراز؟

فقال الإمام: لدى كل عالم من الزملاء ما يكفى لتأليف كتاب.

فقلب المعتضد كفًّا على كف، ونظر إلى من حوله متأففًا، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، أتحدث هذه النوائب، ولا أجد منكم من يقوم بتبليغي عنها! حتى يحضر الشيخ عن طريق الآذان! كنت أسأل نفسي: لماذا قامت الثورات في الكوفة والبحرين واليمن وفارس وما وراء النهر على الخلافة العباسية! والآن علمت أن هذه البلاد النائية تعرف مخازي بغداد، وفظائع الأتراك، ويجهلها أمير المؤمنين!

ثم دخل الحاجب يعلن قدوم المرأة المختطفة وباكباك، فأمر أمير المؤمنين بإدخال المرأة أولًا، وسرعان ما قدمت وهي لا تكاد تتماسك من الذعر، وقد سقطت مرتين على الأرض، وكان منظرًا فاجعًا ما رآه الحاضرون، حين كشفت عن جسمها، وظهرت آثار السياط! وبعد برهة تمالكت نفسها وقالت بألفاظ متقطعة: رفضت يا أمير المؤمنين،

فأخذ السوط يلهب جسدي لأستسلم، وكنت أحس أن الشيخ الإمام لن يتركني، فكنت أتشجع، حتى سمعت أصوات الحرس فعلمت أن نصر الله قريب!

قال المعتضد: اهدئي يا بنيتي، وسيعوضك الله أحسن الجزاء على يدى، ثم اشار بانتقالها إلى حجرة مجاورة مع الشيخ الإمام، فنهضا مذعنين، وصفق أمير المؤمنين طالبًا «باكباك».

دخل الرجل متجهمًا عابسًا، فسأله المعتضد غاضبًا: ماذا صنعت يا وغد؟

فقال في استسلام: لقد جاءت إلى منزلي دون أن أعترضها، وحين رأت الحراس خافت على نفسها وادعت أنى خطفتها، وهى دعوى كاذبة لا شاهد عليها.

قال أمير المؤمنين موجهًا الحديث إلى وزيره عبيد الله بن سليمان: ناقشه أيها الوزير.

فقال سليمان في هدوء: ألم تأخذها عنوة من الطريق؟

فصاح في إصرار: كَلَّا، كَلَّا، فهى التي حضرت باختيارها.

فرد سليمان: ألم تفر منك إلى المسجد الكبير ببغداد؟

فعالج يقول: هي كاذبة؟

- ألم تتناقش مع الشيخ الإمام، وقد حاول حمايتها، فهددته بالسوط، وحملت الأخيذة معك كرهًا واغتصابًا.
- لم يحدث ذلك، وما رأيت الشيخ الإمام منذ زمن!
- وإذا جاء الإمام، وأظهر كذبك الأفاك.
- هو الآن لا يعلم شيئًا، وأخشى أن يذهب إليه من يوحي له بأن يقول غير الحق، ليتفق مع المرأة في دعوى الزور.
- هو الآن لا يعلم شيئًا؟
- نعم، وأخشى أن يوحي إليه بما يبدل الواقع، طمعًا في رضا الناس.

وهنا صفق المعتضد، وأمر باستدعاء المرأة وحدها، فأمرها أن تكشف عن مواضع السياط، ثم قال لباكباك:

- بم تعلل هذه الجروح التي لا تزال تنزف بالدماء؟
- لا أعلم، ولعل أحد الحراس قد ضربها بسوطه في الطريق.
- ألم تكن معها وهى قادمة؟
- كنت أفكر في نفسي، ولم ألتفت إلى ما يدور حولي.

وصفق المعتضد ثانية، وأمر باستدعاء الشيخ الإمام فذعر باكباك، وصاح منفعلًا: أهو موجود الآن؟

قال المعتضد: ومن قبل أن تجيء؛ لأنه أَذن الفجر قبل موعده، فعملت على إحضاره لأعلم ما يريد، فهل تنكر دخولك المسجد، وتهجمك عليه حين أراد إنقاذ من استجارت ببيت الله!.

ودخل الشيخ، فحدج باكباك بنظرة ملتهبة، ثم قال: أخزاك الله، كما أردت أن تخزي المحصنات الآمنات.

ولم يجد باكباك بُدًّا من الاعتراف، فأقر بما كان، وأمر المعتضد بتأليف لجنة قضائية عاجلة لمحاكمته، في صباح الغد.

فصاح الإمام: النص صريح، هذا ممن يحاربون الله، ويسعون في الأرض فسادًا:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾

(المائدة: ٣٣)

قال عبيد الله: هذا ليس لك أيها الشيخ، إنما هو لقاضي المسلمين! وستعقد المحاكمة في الصباح، قبل صلاة الجمعة، وسيأتيك الحكم لتعلنه على الناس في خطبة الأسبوع كما قلت من قبل!

قال الشيخ: هو كما تريد، ولكني أستسمح أمير المؤمنين في رجاء.

فرفع المعتضد رأسه، مصوبًا نظره إلى الشيخ، وسأل: هل بقي لديك شيء؟.

قال الإمام: إن حالة المرأة من الفزع، وقسوة السياط، مما لا يطاق وأرى أن يتفضل أمير المؤمنين فيشملها بعطفه الكريم، فهي مسلمة شريفة، وقد قاومت في سبيل طهارتها مقاومة الأبطال، وجود الخليفة غامر وسيع.

قال الخليفة: أحسنت يا شيخ، فقد تحدثت عما كان يجول بخاطري وما كان لي أن أتركها دون ثواب، ولكن لدي أنا رجاء خاص بك أيها الشيخ.

قال الإمام: رجاء! استغفر الله، بل أمر يا مولاي.

فرد المعتضد في ابتسام: عليك أن تراقب هؤلاء الأوغاد، وإذا بدا لك ما تنكر، فسارع بالوصول إليّ، فإذا كان الوقت ليلًا، والمسألة عاجلة فاصعد إلى المئذنة، وادعني إليك عن طريق الآذان!.

فبدا الارتياح على الوجوه، ونهض المعتضد، فنهض سُمَّارُهُ من خلفه، إذ علموا انتهاء الاجتماع، وخرجوا مع الشيخ فرحين بما تم من نصر المظلوم وعقاب الظالم، ومهنئين الشيخ على أذانه الحاسم، وابتكاره السديد.

المحتويات